وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـامعة الجـزائـر 2

(أبو القاسم سعد الله)

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

المركز الجامعي حاج موسى آق أخموك (تمنراست)

معهد اللغات والآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

صورة عن المجتمع الأفريقي في الأساطير والخرافات الأفريقية

مذكرة لنيل شهادة الماجستيـــر

التخصص: أدب أفريقي

إعداد الطالبة:

وردة لـواتي

إشراف الدكتورة:

حورية بوشريخة

السنة الجامعية: 2015/2014

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـامعة الجـزائـر 2

(أبو القاسم سعد الله)

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

المركز الجامعي حاج موسى آق أخموك (تمنراست)

معهد اللغات والآداب قسم اللغة العربية وآدابها

صورة عن المجتمع الأفريقي في الأساطير والخرافات الأفريقية

مذكرة لنيل شهادة الماجستيـــر

التخصص: أدب أفريقي

إعداد الطالبة:

وردة لـواتي

السنة الجامعية: 2015/2014

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـامعة الجـزائــر 2

(أبو القاسم سعد الله)

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

المركز الجامعي حاج موسى آق أخموك (تمنراست)

معهد اللغات والآداب قسم اللغة العربية وآدابها

صورة عن المجتمع الأفريقي في الأساطير والخرافات الأفريقية

مذكرة لنيل شهادة الماجستيــر

التخصص: أدب أفريقي

لجنة المناقشة:

أ/د: مليكـة بن بــوزة..... رئيسـا
أ/د: حورية بوشريخة.....مقررا
أ/د: محمد بكادي.....عضوا
أ/د:عبد الحميد بوحبيب.....عضوا

إعداد الطالبة: إشراف الدكتورة:

وردة لـواتي حورية بوشريخة

السنة الجامعية: 2015/2014

شكـر وعـرفـان

أول الشّكر لله عزّ وجلّ فهو نعم المولى ونعم النصير وإلى كل من علّمني حرفا. والشكر موصول إلى الأستاذة الفاضلة التي كانت لي خير موجه، وخير معين بنصائحها وإرشاداتها القيّمة " حورية بوشريخة " فألف شكرلها على تحملها عناء تصحيح هذه المذكرة وتوجيه النصائح القيمة لي، وتحية تقدير لها واعتراف بالجميل.

كما لا يفوتني شكر أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها بالمركز الجامعي بتمنراست خاصة من قدم لي يد المساعدة في إتمام هذا البحث، ومنهم الأستاذين عبد الوهاب بوشليحة، ومحمد بكادي، كذلك لا أنسى شكر أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر2(أبو القاسم سعد الله)، خاصة الذين تشرفت بمعرفتهم خلال دراستي.

وأخيرا الشكر موصول لكل من ساعدني من قريب أو من بعيد، ولكل من يسعده نجاحي ويسوؤه إخفاقي.

شكـــــرا

الإهـــــداء

إلى والديّ العزيزين...

وإلى زوجي وأولادي ...

وإخوتي...

إلى كل من عرفني وأحبني بصدق: أهدي هذا العمل المتواضع.

وردة

المقدمـة:

حظي إنسان الأزمنة الغابرة بالاهتمام من قبل الباحثين والدارسين، ولقي نتاجه الفكري كل الرعاية، وسلطت عليه الأضواء حتى غدا مادة دسمة يتنافس على النهل منها كل متطلع وراغب في كشف كنه المستور، خاصة وقد انتشر بنو الإنسان جماعات وفرادى، وساحوا في أرجاء الأرض وربوعها، فتكوّن هذا التنوّع والاختلاف في الألسنة والألوان، كما تنوعت ثقافاتهم ومشاربهم بتنوع بيئاتهم ومحيطهم الذي ما فتؤوا يتفاعلون معه.

لقد أيقن الإنسان الأول أيما يقين أن هذا الكون الذي يضمه بين جنباته يكتنفه الغموض وتلفه الأسرار، فمنذ بدء الخليقة وبداية تطور الوعي الإنساني والإنسان يجدّ باحثا عن معنى وجوده، والأسباب والدوافع الحقيقية التي من أجلها جاء، فإدراكه للمخلوقات التي يتعايش معها جعله يتطلّع بكل اهتمام لتفسير أسرارها، وكشف العلاقات السببية والوظيفية التي تربطها بالكون.

ولعلّ أهم ما أرّق الإنسان الأول هي البدايات الأولى، ومسألة الحياة والموت وكل ما يتعلّق به من أسرار، وقد كان تفكيره منصبا فيمن يقف وراء هذا الوجود بكل حيثياته ففطرته البسيطة أرشدته إلى أنّ لهذا الكون خالقا عظيما يسيطر عليه، ويسيره وفق ما يشاء كما تنبأ من خلال ملاحظته واحتكاكه بالطبيعة، وتفاعله مع عناصر الكون المتعددة والمختلفة أنّ هناك قوى غيبية بإمكانها أن تقدم له يد العون في حال الضرورة، كالرياح والمياه والبراكين، وحتى الرعد والبرق ...

ونتيجة خوف الإنسان و قلقه الدائمين - خاصة من الموت و اللّعنة - وسعيه الدائم لإطالة عمره و درأ كل ما يضره و يؤذيه، فقد بحث عن كل ما يحقق له ذلك، وسخّر كل ما اعتقد جازما أنّه يخدمه و يضمن له التّفوق، و هذا من خلال محاولة اقتحام عالم المجهول، و المتمثل في القوى الغيبية و الأرباب و الآلهة، ولجوئه إلى السحر و الخرافات ما نتج عن هذا كله بعد ذلك من أساطير.

ففي مراحل طفولة العقل البشري ومحدودية مجال إدراكه المعرفي و العلمي - خاصة وهو يوجه كل تركيزه نحو محيطه الذي لم يجد له تفسيرا بكل مظاهره وظواهره - اخترع لنفسه ما

يعرف بالآلهة و الأرباب؛ حتى تكون له عونا وسندا، ودعما نفسيا وحتى تحط عنه بعض ما ينتابه من خوف وقلق، وتكون له حماية من جميع ما يؤذيه على الصعيدين النفسي والجسدي ويهدئ روعه ويطمئن قلبه، فجاءت القصص والروايات التي امتزجت بالخرافات والحكايات والأساطير تعبر عن هذا الخوف والقلق وتشير إلى معتقدات إنسان تلك العصور القديمة.

لقد ظهرت الأساطير في معظم المجتمعات الإنسانية، فوجدت في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ولم يكن المجتمع الأفريقي بمنأى عنها، فقد كانت له أساطيره التي اصطبغت بصبغته الخاصة، فكانت الأساطير التي تكرّس للخلق والتأليه؛ حيث اعتقد الإنسان الأفريقي البدائي أنّ هذا الكون يحكمه خالق أعظم، وآلهة تساعده على تسيير شؤون الكون، وقد تخيّل أنّ هذه الآلهة تمتلك مشاعر إنسانية لا تختلف عن تلك التي يمتلكها الإنسان، وبالتالي فقد جعلهم خياله وإدراكه المحدود يتجسدون في هيآت وأشكال مختلفة.

وإلى جانب هذه الأساطير، وجدت الأساطير التي تثبت تقديس الإنسان الأفريقي لكل ما يعتقد فيه الأذى أو الخير، فقد قدّس الحيوانات بكل أنماطها (المفترسة والأليفة)، وقدّس النّبات كاليقطين والنّخيل ...، إلى جانب تقديسه لبعض الأنهار والجبال ...وحظيت النّار لديه بالتعظيم ولم تخل الكثير من الأساطير من قضية الموت والحياة، والبعث والثواب والعقاب، والصراع بين الخير والشّر.

وتعدّ الأساطير مصدرا تاريخيا هاما للتأريخ لحقبة زمنية معيّنة افتقدت لجميع أنواع التّوثيق والكتابة، فهي بالنسبة لهذه الشعوب التي امتلكتها بمثابة التاريخ المقدس الذي أنتجته الآلهة في أزمنة سحيقة، والتي لم تندثر رغم المسافة الزمنية البعيدة التي تمتد إلى ما قبل الكتابة، وما يعزّز هذا الطرح قول الفيلسوف **برتراند راسل** الذي صرّح بأنه:<< إذا أردت أن تدرك روح أمّة من الأمم، فعليك بدراسة أساطيرها >>.

لقد وصلت إلينا هذه الأساطير والخرافات جيلا بعد جيل فاندهش لها البعض، وأعجب بها البعض الآخر وتساءل عن مدى مصداقيتها، ولهذا حاول العديد من الباحثين والعلماء استنطاقها، وكشف كنهها، كل بطريقته الخاصة، ومن موقعه العلمي والمعرفي الذي ارتآه لنفسه، ومن خلال نظريته وطرحه الذي تبناه، وبالتالي تعددت الدّراسات واختلفت؛ لكنها لم

تختلف جوهريا بقدر ما اتفقت على أنّ الأسطورة تعدّ مستوى من مستويات الوعي الإنساني البدائي، الذي لا يكاد ينفصل عن الواقع انفصالا واضحا.

وتعتبر دراسة الأساطير ذات أهمية لا تقلّ عما هي عليه في العلوم، و المعارف الأخرى كونها جزءا لا يتجزأ من الموروث الإنساني، الذي يعود إليه الفضل في الوقوف على ماضي الإنسانية العريق والغائر في القدم، كما أن الأساطير تعدّ مخزونا ثقافيا وإنسانيا وتاريخيا لا حدود له، فهي لم تكن ماثلة في الماضي وانقطعت عنا في الحاضر؛ بل هي تنتمي إلى حاضرنا الإنساني الذي لا ننفك ننهل منه؛ والدليل على ذلك وجود بعض المعتقدات التي ربما لا نلقي لها بالا، لكنها تعدّ فعلا أسطوريا بامتياز؛ وهذا يتضح من خلال اهتمامنا بقراءة الأبراج والفنجان والكف، إنّه كما يقول جيمس فريزر:" الإنسان الكامن في أعماق البشر وخوفه الدائم من المجهول وما يخبؤه له الغد من مفاجآت وأحداث لا علم له بها و لا يقدر على توقعها ".

إضافة إلى ذلك فالأساطير تعيننا على فهم طرق تفكير الشعوب، وكيفية تعاملها مع المواقف المختلفة على مرّ العصور؛ من خلال دراسة الأسطورة وتحليلها تحليلا معمقا وعندما ندرك كنهها بكل أبعاده سنكون أقدر لا محالة على فهم العقل اللاواعي للفرد والمجتمع.

كما تعدّ الأساطير مادة خاما لغيرها من الفنون والمعارف التي ما فتأت تنهل من بحرها الذي لا ينضب، لقد وجد المبدعون والفنانون والأدباء فيها ضالتهم، فقد أثرت خيالهم وخصّبته فكانت إبداعاتهم استلهاما لما قرأوه من أساطير وخرافات، فكان لها بذلك الفضل في تزويد الإنسان بقدرة هائلة على التّفاعل مع واقعه بكل تفاصيله وأبعاده؛ فالأسطورة ملهمة الشعر والأدب... إلخ.

إنّ ما دفعنا إلى طرق هذا الموضوع وقوى عزيمتنا هو أملنا الكبير في إبراز مميزات الأسطورة الأفريقية وتسليط الضوء عليها، خاصة في الجانب المكتوب باللغة العربية؛ الذي يكاد يكون نادرا إلا من بعض الإضاءات المنتشرة هنا وهناك، بالإضافة إلى سعينا الدائم لاستجلاء صورة عن المجتمع الأفريقي من خلال تفكيك الرّموز، والدّلائل الكامنة في الأساطير والخرافات.

كما يهدف بحثنا المتواضع هذا إلى محاولة إبراز المعايير الفعّالة التي يتم من خلالها التّمييز بين النّص الأسطوري وما يشابهه من النّصوص الأخرى، وأن نؤكد القيمة الفنية والأدبية للأسطورة والتي ساهمت في نموّ الخيال والإبداع الأدبي و الفني عبر الأجيال، وما زاد إصرارنا على هذا التمييز هو الكم الهائل من التعريفات والآراء التي تناولت مصطلح الأسطورة؛ ما خلق خلطا واضحا بينه وبين غيره من المصطلحات الأخرى كالخرافة والحكاية البطولية الشعبية...، بالإضافة إلى ندرة الدراسات العربية المتخصصة في الأساطير والخرافات الأفريقية على وجه التّحديد وتبقى الطموحات عريضة لا تسعها هذه المذكرة المحددة.

لقد اطلعنا على بعض الدّراسات السابقة التي أفردت للحديث عن الأسطورة وما شابهها من نصوص أخرى ودورها في بناء النّظام الاجتماعي، وغيرها من الدّراسات التي تبقى محدودة ومحصورة في الأساطير اليونانية والبابلية... في حين تفتقد المكتبة العربية للدّراسات المتعلقة بالأساطير الأفريقية، ومن أهم الدّراسات التي تمكنا من العودة إليها:

دراسات **جيمس جورج فريزر** بكتابه **الغصن الذهبي** في طبعته المترجمة من قبل **محمد عبد الحميد محمد أبوزيد**، الموسوم **بالإنسان والأساطير والسّحر**؛ وفيه شرح وتفسير لكيفية تأثير الأساطير والخرافات في المجتمعات، وظهور السّحر في المجتمع البشري وكذلك شرح القواعد المميزة التي تنظم تتابع حكم الكهنة في المؤسسة الكهنوتية.

ومن بين الدّراسات أيضا بحوث **كلود ليفي شتراوس** المجسدة في كتابه **الأسطورة والمعنى** الذي يرى فيه أنّ الأسطورة تعدّ من بين إحدى وسائل الاتصال الإنسانية، كونها نتاج اللّغة وعناصرها هي عناصر اللّغة، وهي عديمة الجدوى في حال انعزالها، والحال نفسه بالنسبة للأسطورة التي لا معنى لها في ذاتها منعزلة، ومعناها لا يتأتى إلا من خلال انسجامها وترابطها.

أما دراسة **كارين أرمسترونغ**: **تاريخ الأسطورة** فقد تضمن معنى الأسطورة من خلال تتبع أصولها، كما تعرّض لحقب زمنية مختلفة ساهمت في ظهورها وتطورها، وهذه الدّراسة كانت تاريخية بامتياز.

في حين أن دراسات وأبحاث **لوك بنوا (إشارات، رموز وأساطير)** نحت محنى مغايرا حيث بدا له ضرورة تتبّع تحوّل الإشارات منذ ظهورها، حتى تحوّلها البعيد وبصورة خاصة في محيط العادات والأساطير، لكي يتّضح ترابطها الوظيفي كون هذه الأخيرة هي لغة المبادئ المزينة.

ولا تقلّ أبحاث **مرسيا الياد** أهمية عن الدراسات الأخرى، فقد تضمن كتابه **مظاهر الأسطورة** الجوانب المختلفة المتعلقة بالأسطورة كالنشأة، والأهمية والمعنى... ولم تكن دراسات وأبحاث فراس السّواح بمنأى، بقدر ما أثرت المكتبة العربية وأغنتها خاصة بكتابه **الأسطورة والمعنى**، الذي قدّم فيه تعريفا للأسطورة بكل أنماطها ومضامينها، وعلاقتها بمعارف أخرى كالتاريخ والأخلاق والرّمز.

أما ما يتعلّق بدراسات وأبحاث **أحمد زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة** فقد تتبع تطوّر الأسطورة عبر الحقب الزمنية، وترابطها الخفي مع الخرافة، كما تعرّض لأثرها في تطوّر الأدب والفن، وكذا علاقتها بالتراث الإنساني.

وقد كانت هذه الدّراسات والأبحاث خير معين لنا في بحثنا الذي وسمناه **بصورة عن المجتمع الأفريقي في الأساطير والخرافات الأفريقية**، والذي حاولنا من خلاله الإجابة عن التساؤلات التالية:

ما مدى تغلغل السّحر في المجتمع الأفريقي، وكيف كان انعكاسه في الأساطير والخرافات الأفريقية؟ وكيف كان تعامله مع الكون بكل تفاصيله وزخمه؟ وما سرّ العلاقة الوثيقة بين الإنسان الأفريقي والأسلاف؟ وكيف كان موقفه من الحياة والموت ومن البدايات الأولى؟... وغيرها من هذه التساؤلات التي تبقى عالقة تستدعي وقفة متأنية مع الأساطير والخرافات الأفريقية.

وقد استقرّ رأينا على ترتيب هذا العمل في ثلاثة فصول مسبوقة بمقدّمة وتمهيد، مختومة بخاتمة وملحق لأهم الأساطير والخرافات التي تناولناها بالدراسة. إن التّمهيد يرتكز على إعطاء نظرة على التّعاريف الممكنة للأسطورة والخرافة في الجانبين: اللّغوي والاصطلاحي، والتداخل المعرفي المحتمل بين المصطلحين - أي الأسورة والخرافة -

أما في الفصل الأول فركزنا فيه على إلقاء الضوء على الحياة الدينية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية، باعتبار أن الدين من أساسيات العقليات الغائرة في القدم وتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث بأربعة مطالب، حيث سعينا في المبحث الأول إلى ابراز دور السحر في المجتمع الأفريقي، في حين المبحث الثاني تعلّق بالقداسة الرؤية والحقيقة وفيه وقفنا على أهم مقدسات الإنسان الأفريقي، أما المبحث الثالث فأفردناه للخلق المنظور العقائدي ومن خلاله تلمّسنا أهم العناصر التي مسّها الخلق في عالم الأسطورة.

وقد وجهنا اهتمامنا في الفصل الثاني إلى دراسة الحياة السياسية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية، والذي حوى كذلك ثلاثة مباحث، كانت بدايتها مع بنية القبيلة الأفريقية والذي سعينا من خلاله إلى سوق عينات مكوّنة للقبيلة الأفريقية كالعائلة، والعشائر الطوطمية وإثبات دور زعماء وشيوخ القبائل والسّحرة الملوك في بناء المجتمع الأفريقي، وقد كان المبحث الثّاني كمحاولة لكشف العلاقة الوثيقة بين الأعراف والقبيلة، وقد جاء المبحث الأخير ليسلط الضوء على علاقة القبيلة بالسّلف، ويبيّن الارتباط الوثيق والمتجذر بينهما.

أما الفصل الثالث والأخير، فمداره على عرض أهم عناصر الحياة الاجتماعية والثقافية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية، فاخترنا له ثلاثة مباحث؛ تعلّق أولها بالزواج والولادة وكل ما أحاط بهما من طقوس وتابوهات...إلخ، والمبحث الثاني عرضنا فيه موقف الإنسان الأفريقي من الموت والبعث وما تعلّق بهما، في حين سعينا في المبحث الثالث والأخير إلى إلقاء الضوء على المعتقد البدائي الأفريقي، والأخلاق في المجتمع ذاته، وكل الممارسات الطّقسية وما انبثق عنها من ديانات أفريقية محضة.

لقد اقتضت طبيعة البحث أن نجمع بين المنهجين الوصفي والأسطوري، وقد واجهنا عدة عقبات أثناء إنجازنا لهذا البحث، من بينها ندرة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث؛ نتيجة افتقار المكتبة العربية والجزائرية على وجه التحديد لمثل هذا النّوع من المؤلفات - خاصة المكتوبة بالعربية - بالإضافة إلى صعوبة الإلمام بجميع ملامح وصور المجتمع الأفريقي في الأساطير والخرافات الأفريقية؛ نظرا لتشعبها وتفرعها، وما أرّقني فعلا هو انعزال منطقة تمنراست وصعوبة التواصل مع مصادر المعرفة والبحث العلمي ما خلق عقبة كبيرة في

الحصول على مؤلفات ودراسات تخدم بحثنا المتواضع، وربما من أكبر العراقيل التي واجهتنا هو جهلنا للغات الأفريقية العديدة التي لا تدرّس في جامعاتنا...

ولقد أردنا من وراء دراستنا هذه الوصول إلى بعض النتائج منها التعريف ببعض العادات والتقاليد الأفريقية ورصد الزوايا التي يسير فيها العقل الأفريقي، وربط ذلك بممارسته الاجتماعية والثقافية، ذلك أن أفريقيا مع أنها القارة العجوز تظل غامضة مستعصية عن الفهم في أنماط المعيشة المختلفة.

وفي الأخير نتقدم بالشكر الجزيل إلى لجنة المناقشة على تجشمهم عناء قراءة هذه المذكرة المتواضعة، إن أصبنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان.

والله خير معين.

التمهيـــــد

مفهوم الأسطورة والخرافة والتداخل المعرفي بينهما

1- مفهوم الأسطورة:

إن مصطلح الأسطورة يطرح إشكالات عديدة بمعانيه المتعددة والمتشعبة ولهذا وجب الوقوف عند جذوره اللغوية في المعاجم والقواميس، وضرورة تفحص معانيه في اللغة العربية، كما في غيرها من اللغات الأعجمية، وتختلف وجهات النظر حول المصطلح نفسه من مفكر إلى أخر، ومن مجال بحث إلى أخر...

أ- مفهوم الأسطورة لغة:

ورد في لسان العرب في باب **سطر**:<< سطر: السَّطْرُ، الصف من الكتاب، والشَّجر، والنَّخل ونحوها، والجمع من كل ذلك أسْطُرٌ وأَسْطَارٌ وأسَاطِيرُ.

والسَّطْرُ: الخط والكتابة، قال الزّجاج في قوله تعالى: << وقالوا أَسَاطيرُ الأولين >> خبر لابتداء محذوف، ومعناه سطره الأولون وواحد الأسَاطِير أُسطُورَة، كما قالوا أحدوثة وأحاديث والأسَاطيرُ:الأباطيل، وسَطَرَها: ألفها. الأسَاطيرُ: أحاديث لا نظام لها واحدتها إسْطَار وإسْطَارَة بالكسر وأَسْطِير وأَسْطِيرَة وأُسطُورة بالضم >>[1]، وورد ت في القرآن الكريم جمعا ولم ترد لفظة أسطورة مفردة في آية. << وعند ابن كثير أَسَاطِير الأولين: كتب الأولين >>[2].

ويتضح من خلال هذه التعاريف أنّ كلمة << أُسطُورة >> ليس لها مدلولاً واحدً، ولا معنى حقيقيا وإذا أمكننا أن نقارب المعاني، فالأساطير هي الأحاديث التي لا نظام لها، وهي كذلك الأباطيل، وهي الحكاية التي لا أصل لها، وهي الأحاديث العجيبة.

وفسرها الزمخشري في كشافه << بالخرافات والأكاذيب >>[3].

وحتى تتضح الصورة أكثر وجب أن نعرج على معناها في اللغات والمعاجم الأجنبية فنجدها في اللغات الهندوأوربية Myth وهي مشتقة من الأصل اليوناني Mythos << وتعني

(1) ابن منظور << لسان العرب >> دار صادر، لبنان، مج 7، ط 4، 1863، ص 182.
(2) المرجع نفسه، ص 182.
(3) طلال حرب << أولية النص نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي>> المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص 92.

حكاية شعبية أو أدبية تضم كائنات خارقة وإجراءات خيالية التي تنقل الأحداث التاريخية >> [1] وهي تعني كذلك << الكلمة المنطوقة، ثم تحدد استعمالها بعد ذلك أصبحت تعني الحكاية التي تختص بالآلهة وأفعالها ومغامراتها >> [2].

وكلمة أسطورة لها شبه قريب جدا من كلمة هستوريا Historia باليونانية ولهما دلالة على القصة أو الرواية أو التاريخ كما تدلان كذلك على ما كتبه الأوائل من روايات وحكايات وهي غالبا تكون أحداث خارقة للعادة وأباطيل. وقد ظهر فرع من فروع المعرفة يعنى بدراسة وتفسير الأساطير << دعي بالميثولوجيا Mytho-Logy، والشق الأول من الكلمة (Mytho) مأخوذ من الكلمة اليونانية (Mutho) التي تعني حكاية تقليدية عن الآلهة والأبطال أما الشق الثاني (Logy) فيعني علم >> [3].

ولهذا وجب التمييز بين مصطلح الأسطورة (Myth)، ومصطلح الميثولوجيا (Mytho-Logy). وإذا عدنا إلى التاريخ فأننا نجد أن << أفلاطون أول من استعمل التعبير Muthologia، بمعنى " القول عن " أو " الأخبار عن " أو بمعنى القصص >> [4].

وإذا عدنا ببحثنا إلى لغات الشرق القديم فإننا نجد صعوبة في تمييز مصطلح خاص بالأسطورة ومن هنا << تبدأ المشكلة... من أن القدماء أنفسهم لم يعملوا على تمييز النص الأسطوري عن غيره، ولهم دعوه باسم خاص يساعدنا على تمييزه بوضوح بين ركام ما تركوه لنا من حكايات وأناشيد وصلوات وما إليها >> [5].

---

(1) Petit Larousse en Couleurs- Libraire Larousse ,Paris,1980,p614.
(2) فراس السواح << مغامرات العقل الأولى >> دار علاء الدين، سورية، ط 13، 2002، ص 12.
(3) طلال حرب << أولية النص >>، ص 92.
(4) محمد عباس << أفلاطون والأسطورة >> دار التنوير للطباعة والنشر، 2008، ص 11.
(5) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >> دار علاء الدين، سورية، ط2، 2001، ص 8.

ب - مفهوم الأسطورة اصطلاحا:

إذا كان مصطلح الأسطورة بمفهومه اللغوي يتعدد ويتشعب، فإنه بمفهومه الاصطلاحي أكثر مرونة وزئبقية ويصعب القبض عليه، وهذا طبعا يرجع لكون الأسطورة - كما يرى بعض النقاد - ظاهرة ثقافية وأدبية غاية في التعقيد.

فقد جاء عن الباحث والفيلسوف **مرسيا إلياد*** تعريف للأسطورة مفادها أن <<الميتوس Mythos وهي عند الإغريق تعني حكاية، والأسطورة تروي قصة مقدسة وحادثا وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتى إلى الوجود هو الكون أو جزء منه، ولا يروي الميتوس إلا ما حدث فعلا ويفسر ما هو كائن و موجود فعلا، لذلك فهو قصة حقيقية >>.[1]

إذن فهي عند مرسيا الياد تدل على أنها << أحداثا تاريخية حدثت في الزمن السحيق فالأسطورة تروي تاريخا مقدسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدائي، الزمن الخيالي هو زمن البدايات، فالأسطورة تحكي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون أو جزئية كأن تكون جزيرة ونوعا من النبات، أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسسة >>.[2]

حيث يرى مارسيا إلياد أن الأسطورة تاريخ مقدس يروى عن الأصول والبدايات الأولى لكنها لا تتخذ من هذه الأصول والبدايات موقفا ذهنيا وصفيا، بقدر ما تسعى إلى استرجاع هذه الأزمنة المقدسة وذلك عبر الذاكرة الجماعية.

فالأسطورة في رأيه تبين لنا حقيقة كائنات عليا(آلهة) وأفعالها التي قامت بها عبر الزمن السحيق.فهي إذا تروي لنا حقائق مقدسة عن أعمال كائنات مقدسة ترتبط بها الأسطورة ويمكن

---

* مرسيا إلياد: باحث وفيلسوف روماني متخصص في الميثولوجيا وتاريخ الأديان، أكمل تعليمه العالي بجامعة بوخارست عمل بها كأستاذ لتاريخ الدين قبل أن يهاجر إلى وم أ بجامعة شيكاغو وعمل بالبحث والتدريس.

(1) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري >> قسم الدراسات والبحوث، دار كيوان، سورية ط1 2009، ص 23.

(2) مرسيا إلياد << مظاهر الأسطورة >> تر (نهاد خياطة)، دار كنعان للدراسات والنشر، سورية، ط1، 1981، ص 10 ، 11.

ويمكن القول أنه يعتبرها رؤية واقعية تعبر عن ثقافة الإنسان البدائي، وتفاعله مع واقعه وقد ربطها بالإنسان عبر التاريخ، حيث أعتبرها مدونة من صنع تلك العصور لوقائع وأحداث لمجموعات إنسانية. ومن هنا تأتي أهمية ميثولوجيا التكوين لدى الشعوب، وقداسة أسطورة الخلق في النظم الميثولوجية.

ويقول **برونوسلاف مالينوفيسكي** * محاولا أن يعطي تعريفا للأسطورة ، وذلك من خلال مميزاتها ودورها في المجتمعات البدائية :<< ليست الأسطورة تفسيرا يراد منه تلبية فضول علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية، وتستجيب لحاجة دينية عميقة، تطلعات أخلاقية وواجبات، وأوامر على المستوى الاجتماعي، بل وحتى المتطلبات عملية في الحضارات البدائية، تملأ الأسطورة وظيفة لا غنى عنها تفسر وتبرر وتقنن المعتقدات تحامي عن المبادئ الأخلاقية وتفرضها، تضمن فعالية الاحتفالات الطقسية وتنتج قواعد عملية لاستعمال الإنسان >>.[1]

فمالينوفسكي لا يرى في الأسطورة مجرد تفسير بوقائع خيالية، بل تبعث الحياة في حقيقة قائمة بذاتها تمكن الإنسان من كشف كنه الممارسات الطقوسية، التي قام بها الإنسان البدائي والتي يؤديها استجابة لأخلاقيات وواجبات معينة كانت سائدة لدى شعوب معينة، وهي إشارة إلى الوظيفة المقدسة للأسطورة، وقد اعتبر<< الدور الذي تلعبه الأساطير ضروريا؛ لأنها بكل بساطة تعبر عن المعتقد، كونها بمثابة التشريع الأول والحقيقي للديانة البدائية >> ينظر[2] وهنا يلتقي مع مرسيا في الطرح ذاته.

في حين نجد **كلود ليفي شتروس** قد دافع عن الشعوب البدائية، حيث اعتبر الأسطورة بمثابة تاريخ مدون، وأن هذه الشعوب المزعومة بلا تاريخ تعرف أفضل منا كيف تتعامل مع المشهد بطريقة تاريخية .

---

* برونو سلاف مالينو فسكي: (1884-1942)، إنثروبولوجي بريطاني، من أصل بولندي، أشتهر بدراسة الشعوب البدائية في جزر التروبرياند القريبة من غينيا الجديدة.

(1) محمد الخطيب << الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية >>، دار علاء الدين، سورية، ص194.

(2) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري >>، ص 23.

ونجد **سيغموند فرويد** في كتابه **تفسير الأحلام** الذي نشر عام 1905 يرى << تشابها في آلية العمل بين الحلم والأسطورة، وتشابه الرموز لكليهما، فهما نتاج العمليات النفسية اللاشعورية، ففي الأسطورة كما في الحلم نجد الأحداث تقع حرة خارج قيود وحدود الزمان والمكان، فالبطل في الأسطورة كما هي حال صاحب الحلم، يخضع لتحولات سحرية ويقوم بأفعال خارقة، هي انعكاس لرغبات وأمان مكبوتة... >>.[1]

فيعتبر فرويد أن وجود الأسطورة كان بدافع براغماتي محض، وهو السيطرة على الطبيعة وإخضاعها، مما استدعى لجوئه إلى السحر والشعوذة من أجل تعويض النقص الذي يحسه نتيجة سطو الطبيعة، وبهذا ظهر التفكير النفسي لدى الفرد البدائي. كما أشار فرويد إلى الشبه الموجود بين الأسطورة والحلم من حيث الرموز، هذه الأخيرة تظهر في الأحلام لتعبر عن دوافع غريزية، ولهذا فقد عبر عنها بشخصيات أسطورية، وظهرت قناعته هذه من خلال كتابه (الطوطم والطابو) هذه الشخصيات تمثلت في أوديب، والكترا.

ومن هنا يمكن القول أن سيغموند فرويد قد ركز على جانب معين في مقاربته للأسطورة وهو الجنس والرغبات المكبوتة، كما اتخذ من الأسطورة سبيلا للوصول إلى كنه المكبوتات العميقة في اللاشعور. ونتيجة حديثه عن العلاقة بين اللغة وتجليات اللاوعي في الحلم والإبداع فإنه يتعرض لنقد شارل مورون، حيث يرى هذا الأخير أنه << لابد من البحث في المؤلفات الإبداعية المتعاقبة لكاتب عن تلك الصور أو الاستعارات المتكررة التي تخلق الطابع المميز لمجموع تلك الأعمال. لقد سمي هذه الصور المهيمنة على مجموع أعمال كاتب واحد بالأسطورة الشخصية Le Mythe Personnel >>[2]، بمعنى أنه توجهه إلى خصخصة الأسطورة وربطها بالحياة الشخصية للكاتب.

ويعتبر **كارل غوستاف يونغ** << أن الأسطورة تنير جوانب لنفس الإنسانية، وأن المجتمع الذي يفقد أساطيره بدائيا كان أم متحضرا يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الإنسان لروحه >>.[3]

(1) فراس السواح << مغامرة العقل الأولى >>، ص 16.
(2) حميد الحمداني<< الفكر النقدي الأدبي المعاصر مناهج ونظريات ومواقف>>، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة (ProtarsIII) كلية الآداب ظهر المهراز ، فاس ، ط1 ، 2009، ص 106 .
(3) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري >>، ص 24.

فإذا كان يونغ قد ساوى بين فقدان الأسطورة وفقدان الروح من حيث الأهمية فإن الفيلسوف الألماني **أرنست كاسيرر** يؤكد << أن الأسطورة تمثل قوة أساسية في تطور الحضارة الإنسانية عبر الإنسان من خلال رموزها عن اهتماماته وتطلعاته، وقد وجد أنها تكون مع اللغة والفن والدين صورا حضارية، تبدعها طاقة الإنسان الرمزية >>[1].

وإذا ما عرجنا على الأسطورة لدى **فراس السواح** لوجدناها << حكاية تقليدية تلعب عن كائنات الماورائية أدوارها الرئيسية >>[2]، فهو يعتبرها حكاية ضاربة في القدم تتعلق بالإنسان البدائي، تكون فيها كائنات خارقة لا يمكن إدراك أبطالها الرئيسة، فعليها تنبني الأسطورة بكل زخمها.

فهي تنتقل من جيل إلى جيل مشافهة، وهذا ما يجعلها ذات صبغة جماعية، كما تحفظ الموروث الجمعي بكل زخمه، من قيم وعادات وتقاليد وطقوس، وأخلاق... فتكون بذلك جسر العبور إلى الجيل اللاحق وأداة طيّعة للتأثير على النفوس، فتكون بذلك الأسطورة << حكاية مقدسة، يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، أنها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العماء، ووطدت نظام كل شيء قائم، ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر. فهي معتقد راسخ، الكفر به فقدان الفرد لكل القيم التي تشده إلى جماعته وثقافته وفقدان المعنى في هذه الحياة >>[3].

من خلال كل ما تقدم به السّواح من تعاريف للأسطورة يكون قد ميزها عن غيرها من الأجناس الأدبية التي تتداخل معها في كثير من الأمور، فأخرجها من دائرتها تدريجيا رغم أنه يقر بذلك الشبه الكبير بينها وبين الخرافة، والحكاية البطولية والحكاية الشعبية والفلكلور.

وبهذا تعددت المفاهيم المتعلقة بالأسطورة، واختلفت وجهات النظر من باحث إلى أخر فلم يتوان طـلال حرب كذلك في إبداء موقفـه فيما يتعلـق بالأسطورة ، حيث تعرض لها من عـدة

(1) المرجع السابق، ص 24.
(2) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 8.
(3) فراس السواح << مغامرة العقل الأولى >>، ص 19.

جوانب حاول من خلالها المسك بناصية الأسطورة، ووضع اليد على المفهوم الذي يقارب من خلاله هذه الأخيرة.

فقد ربط العلاقة متينة بين الأسطورة والآلهة، واعتبرها محاولة للكشف عن خبايا الكون ومظاهره، فهي تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة الطبيعية للكون وللنظام الاجتماعي فلطالما عانى الإنسان من جبروت الطبيعة وقهرها، ما جعله يطرح تساؤلات حاول بها إيجاد إجابات شافية، ولأن الأمر استعصى عليه فقد ألحق هذه الظواهر بآلهة يعتقد فيها القوة والسطوة، ولهذا فالأسطورة عنده << محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة، أو هي تفسير له إنها نتاج وليد الخيال، ولكنها لا تخلو من منطق معين، ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد >>.[1]

وقد قام بتقسيم الأسطورة إلى أنواع متعددة كل حسب موضوعها فكانت:

- **أسطورة التكوين**:[2] وتتناول هذه الأسطورة بالدراسة والبحث الكون وبداياته الأولى، وأصل الحياة، والكائنات...

- **الأسطورة الطقوسية**:[3] وتبين أن الأسطورة تحوي طقوس تعكس الواقع الاجتماعي آنذاك واعتبر جيمس فريزر << الأسطورة قد استمدت من الطقوس، فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين وفقدان الاتصال مع الأجيال التي أسسته، يبدو الطقس خاليا من المعنى ومن السبب والغاية، وتخلق الحاجة لإعطاء تفسير له وتبرير >>.[4]

- **الأسطورة التعليلية:** وجاءت لتعلل مظاهر الطبيعة بكل زخمها << حيث ظهرت فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية، كالرعد وانفجار البراكين وانشقاق الأرض عن الزرع >>.[5]

---

(1) طلال حرب << أولية النص >>، ص93.
(2) المرجع نفسه، ص 94.
(3) المرجع نفسه، ص 95.
(4) المرجع السابق، ص 95.
(5) أحمد كمال زكي << الأساطير دراسة حضارية مقارنة >>، دار العودة، لبنان، ط2، 1979، ص 47.

- **الأسطورة الرمزية**: حيث أن الأسطورة ذات حمل رمزي، فيمكن قراءتها رمزيا على اعتبار أن الآلهة وأشباهها ذوو أبعاد رمزية.
- **أساطير الآلهة**[1]: وتعنى بالأساطير المتعلقة بالآلهة وبكل ما يتعلق بها.
- **الأساطير البطولية**[2]: لقد حوت الأساطير العديد من قصص الأبطال الخارقين من أمثال قلقامش أو جلجامش (Gilgamish) وأخيل (Achilles) ... إلخ، وهناك من يطلق على هذه الأساطير التاريخسطورة Le gend Myth فهي تاريخ وخرافة معا[3]، حيث تتضمن شيء من الملامح التاريخية، وخوارق تأخذ معها طابع الحكاية، فهي تجمع بين وقائع حقيقة لأشخاص حقيقيين وخيال جامح فتمزج فيه الحقيقة (التاريخ) بالخيال (الخوارق).

واعتمادا على ما تقدم يتبين أن << الأقدمين لم يطلقوا على حكاياتهم المقدسة اسما معينا ولم يجمعها في سفر واحد يفرقها عن بقية الحكاية، إلا أنهم كانوا يميزون بدقة بين القصص الحقيقة التي ترتبط بالمعتقدات الدينية، والقصص الزائفة ذات المضمون الأدبي البحت >>[4].

وعلى هذا الأساس فإنه وجب الوقوف على مفهوم الخرافة.

2 - مفهوم الخرافة:

أ - مفهوم الخرافة لغة: لقد جاء في لسان العرب باب **خ رف** :<< الَخَرَفُ بالتحريك، فساد العقل من الكبر. وقد خَرِفَ الرجل بالكسر، يَخرَفُ، خَرَفًا، فهو خَرِفَ فسد عقله من الكبر والأنثى خرف. والخريف: أحد فصول السنة، وسمى خريف لأنه تخرف فيه الثمار، أي تجتنى. وخَرَفَ الرجل يَخرُفُ، أخذ من طرف الفواكه. والإسم الخُرفَةُ: يقال التمر خُرفَةُ الصائم والخُرفَةُ بالضم ما يجتنى من الفواكه وفي حديث أبي النخلة خُرفَةُ الصائم أي ثمرته التي يأكلها. والخُرافَةُ ما خُرِفَ من النخل >>[5].

---

(1) المرجع السابق، ص 97.
(2) المرجع نفسه، ص 99.
(3) John Lewis, Anthropology, London, 1969, p185.
(4) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص14.
(5) ابن منظور<< لسان العرب >>، دار صادر، لبنان، مج5، 1863، ص 51.

لم يثبت وجود كلمة خرافة في القرآن الكريم، كما كان الحال مع الأسطورة. وفي حديث نبوي شريف: عن عائشة قالت: << حدث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه ذات ليلة حديثا فقالت امرأة، يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة، فقال: أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجل من عذرة أسرته الجن في الجاهلية فمكث فيهن دهرا طويلا ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى من الأعاجيب فقال الناس: حديث خرافة >>.[1]

وفي رواية أخرى أن << خرافة هو اسم رجل استهوته الجن فأقام بينهم ما شاء الله ثم عاد إلى قومه فأخذ يحدثهم بالأحاديث الغريبة، فكانوا بعد ذلك كلما سمعوا حكاية أو نادرة أو خبرا فيه من الغرائب قالوا حديث خرافة، وخرافات لكل ما لا يمكن تصديقه أو لكل خبر مبالغ فيه>>.[2]

وقالوا الخرافة هي حديث مستملح مكذوب.

ب - مفهوم الخرافة اصطلاحا:

لقد دأب العديد من الباحثين على جعل الحكاية الخرافية نوعا من الأساطير نظرا لاعتبارات عديدة، فقد عرفها أمية ابن أبي الصلت بأنها << بقايا أساطير موغلة في القدم >>[3]، حيث اعتبرت هنا الخرافة أسطورة، بذلك جمع بينهما بطريقة جعلت فيها الآلهة التي حوتها الأساطير تتحول إلى كائنات أرضية خارقة.

ويعتبر **فريدريك فون** أن << الخرافة تسبق كل تاريخ مدون، وترجع إلى عالم آخر من الدين والفكر والاعتقاد >>[4]، وبهذا جعل الخرافة والأسطورة شيء واحد، لكن لا يمكن أن نرجع كل خرافة إلى أزمنة غابرة، على اعتبار أن الرواة قاموا بإدخال إضافات وتغيرات مست الخرافة على مر العصور.

(1) مسند ابن حنبل << المطبعة الميمنية >>، مصر، 1313، ص 281.
(2) حسين الحاج حسن << الأسطورة عند العرب >>، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 16.
(3) أحمد كمال زكي << الأساطير دراسة حضارية مقارنة >>، ص62.
(4) المرجع نفسه، ص 62.

ومن المفكرين الذين يمزجون الأسطورة بالخرافة **أرسطو** في كتابه **فن الشعر** فلم يفرق بينهما، ونظر إليهما على أنهما شيء واحد، فقد اعتبر الأسطورة حكاية لأن كل منهما يتكون من أفعال.(1)

والخرافة عند **جيوفري بارينذر** << هي رواية تقليدية تدور حول شعوب عاشت ... خلال حقب من الزمن، وتتضمن الخرافات الشيء الكثير من الخيال... وتحاول العديد من تلك الروايات الخرافية تفسير الفكر والدين وحقب ما قبل التاريخ >>(2)، حيث ربط وجود الخرافة بتاريخ الشعوب، محاولة إعطاء تفسير للمنظور الفكري والمعتقد الديني لهذه الشعوب في فترة ما قبل التاريخ، أي الحياة البدئية.

أما **فرجينيا هاملتون** فترى أن الخرافة شكل سردي يشبه الأسطورة ويختلف عنها في ذات الوقت، حيث أن << الخرافة تتحدث عن كائنات وأحداث غير عادية إلا أنها تحدث في سياق زمن تجربتنا الإنسانية وتخبرنا عن قصص حدثت في مرة من المرات في ماض معروف >>(3).

وفي ضوء هذا الالتحام الذي يحتمل الفصل يمكن أن نخلص إلى وجود تداخل معرفي بين الخرافة والأسطورة سنحاول الوقوف عليه.

وقد عرفها فراس السواح بقوله: << حكاية بطولية ملأى بالمبالغات والخوارق، إلا أن أبطالها الرئيسيين هم من البشر أو الجن ولا دور للآلهة فيها >>(4).

وجاءت في كتابه الأسطورة والمعنى<< أنها تلك الحكايا التي تدور حول الأبطال الخرافيين من الرجال وأنصاف الآلهة أمثال بيرسيوس وجسون وتيسيوس >>(5). و يرى أحمد كمال زكي << أن الخرافة هي مجرد نسيج لا يحمل أصلا واقعيا، بالرغم من موضوعه الذي يحمل مواعظ وعبر >>(6).

---

(1) المرجع السابق، ص 67.
(2) جيوفري بارينذر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، دار نينوى، سورية، 2007، ص 143.
(3) فيرجينيا هاملتون << أساطير الخلق >>، تر (أسامة اسبر)، دار التكوين، سورية، ط2، 2006، ص 6.
(4) فراس السواح << مغامرة العقل الأولى >>، ص 20.
(5) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 16.
(6) أحمد كمال زكي << الأساطير دراسة حضارية مقارنة >>، ص 36.

3 - التداخل المعرفي بين مفهومي الأسطورة والخرافة:

لقد حاول كثير من الباحثين في مجال الأسطورة أن يقفوا على الحدود الفاصلة بينها وبين الأجناس الأدبية المتداخلة معها في المصطلح، وخاصة مع الخرافة، وحيث أن جامعوا التراث الأدبي جعلوا أشتاتا من الحكايا التي تنتمي إلى أجناس مختلفة ضمن سفر واحد، فالمفهوم في المجال العامي أكثر ضبابية منه في نظيره العلمي ،فالأول يخلط بين الأسطورة والخرافة ويعتبرهما شيئا واحدا في حين الثاني أمكنه وضع الحدود الفاصلة بينهما، فمعظم الباحثين والمؤرخين يرون أن الأسطورة تختلف عن الخرافة من حيث مادتها، كون الأسطورة مادتها الحدث التاريخي حتى وإن كان رمزيا، أما الخرافة فيعتبرونها مجرد سرد من نسيج الخيال وهو بعيد كل البعد عن الواقع.[1]

وقد استوقفتني أبحاث فراس السواح في هذا المجال، فقد وضع معايير عدة يمكن أن نميز بها الأسطورة عن غيرها من الأجناس.[2]

حيث ذهب في ذلك إلى أن الأسطورة من حيث الشكل هي قصة تتمتع بنفس العناصر التي تحويها من سرد، وحبكة، وعقدة وشخصيات، لكنها غالبا ما تصاغ في قالب شعري لتسهيل عملية ترتيلها في الطقوس. وهذا النص الأسطوري يتميز بثباته عبر العصور والأزمنة، وهو شيء يعود للطاقة الكامنة الإيحائية الجمعية، ولأنها ارتبطت بالجماعة، فلا يعرف لها مؤلف بعينه، رغم تأثير بعض الشخصيات الروحية القوية فيها.

في الأسطورة تكون الآلهة وأنصافها شخصيات تلعب دور البطولة، وإذا ما التحق بها الإنسان فيكون دوره مساعدا، وتكون الموضوعات التي تتناولها الأسطورة ذات طابع جدي ومصيري يتعلق بالتكوين، والأصول، والحياة، والموت، والبعث، والعالم الأخر... في حين نجد أن أحداثها تدور في زمن مقدس يختلف كل الاختلاف عن الزمن الحقيقي << ومع ذلك فإن مضامينها أكثر صدقا وحقيقة، بالنسبة للمؤمن من مضامين الروايات التاريخية >>.[3]

(1) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري >>، ص 42.
(2) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 12 - 14.
(3) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري >>، قسم الدراسات والبحوث، ص 13.

فعدم حدوث تداخل بين الزمنين (الأسطوري والحقيقي) يمكن من رسوخ الحدث الأسطوري وحضوره الأبدي.

كما يرى السواح أن من أهم المعايير ارتباط الأسطورة بنظام ديني معين، وذلك للتمكن من إبراز معتقداته وتوضحها من خلال الممارسات الطقوسية، وهي بهذا تتمتع بقدسية وسلطة تمارس على نفوس الأفراد والجماعات وعلى عقولهم. ومن خلال هذه المعايير يمكن فقط أن نقول بأن الفروق بين الأسطورة والخرافة بدأت تتضح إلى حد ما.

- فمن حيث الخلفية التاريخية ترتبط الأسطورة بالتاريخ من خلال شخصية تاريخية معينة (بطل معين)، أو حدث معين، أو مكان ما، في حين الخرافة لها علاقة وثيقة بالخيال الجمعي وهي بعيدة إلى حد ما عن الواقع الحقيقي، ولهذا شخصيتها البطولية هي خيالية.

- الزمن في الأسطورة يرتبط غالبا بفترة تاريخية بعينها (واقعية أو ميتافيزيقية)، أما زمن الخرافة فهو اللا زمن. وهو الحال نفسه بالنسبة للمكان.

- أما فيما يتعلق بالشخصيات فتكون الأسطورة أبطالها الآلهة وأنصافها، بالنسبة للخرافة فهي ترتبط بالبشر أو بأشباههم الذين يمتلكون قدرات خارقة.

- ومن حيث الموضوعات فالخرافة كانت تروى بقصد الترفيه، فهي الحديث المستملح المكذوب الخالي من أي رسالة، فلم يقصد - إلى حد ما - من رواياتها إيصال معنى ديني أو تربوي بعكس الأسطورة، التي جاءت من أجل غرس قيم معينة في نفوس شعب ما، والغاية من وراءها ترسيخ الإيمان والتصديق بكل ما تحمل من زخم.

- غالبا ما نجد الأسطورة في التراث فصيح اللغة، بينما الخرافة نجدها في عاميتها على اعتبار أنها جزء من الحكاية الشعبية، ولا يعني أن هذا بشكل جازم، بلا بالنسبة المعينة.

- وهناك من يرى بأن الأسطورة - نظرا لارتباطها بالجانب العقائدي - تنتمي إلى عهد ما قبل الديانات السماوية وقد أسست لها، في حين أن الخرافة تنتمي إلى عهد ما بعد الوثنية كونها بعيدة عن الدين والعقيدة.

ويمكن أن نلخص كل ما تقدم ذكره من خلال ما ذهب إليه السواح الذي أعتبر أنه << تقوم الخرافة على عنصر الإدهاش وتمتلئ بالمبالغات والتهويلات، وتجري أحداثها بعيدا عن الواقع، حيث تتحرك الشخصيات بسهولة بين المستوى الطبيعاني المنظور والمستوى فوق الطبيعاني، وتتشابك علائقها مع كائنات ما ورائية متنوعة مثل الجن والعفاريت والأرواح الهائمة، وقد تدخل الآلهة مسرح الأحداث في الخرافة، ولكنهم يظهرون هنا أشبه بالبشر المتفوقين لا كآلهة سامية متعالية كما هو شأنهم في الأسطورة >>.[1]

ورغم الاختلافات بين المصطلحين فالأبحاث والدراسات تذهب إلى وجود نقاط اشتراك تجمع بينهما << فكليهما يحتوي على المحسنات والزيادات اللفظية >>[2] التي تسهل تغلغلها في القلوب ورسوخها في الأذهان، ونقلها على الشفاه عبر الأجيال.

وقد جاء في تعريف الأسطورة عند بعض النقاد << أنها حكاية إله أو شبه إله أو كائن خارق تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة والطبيعة والكون، والنظام الاجتماعي وأوليات المعرفة... وتستوعب الكلمة والحركة والإشارة الإيقاع، وقد تستوعب تشكيل المادة وهي عند الإنسان البدائي عقيدة لها طقوسها ... وترسب في اللاشعور وتظل على الحالتين عقيدة أو ضربا من ضروب السحر أو ممارسة غير معقولة أو شاعرة اجتماعية >>.[3]

ورغم أهمية هذا التعريف فقد لقي انتقادات منها أنه و<< على أهميته لا يكفي لأن الآراء في الأسطورة متشعبة ومختلفة إلى حد التناقض >>.[4] وقد أكد صاحب التعريف نفسه أنه << من العسير أن نضع تعريفا للأسطورة يجمع عليه العلماء المتخصصون، ذلك لأن الأسطورة واقع ثقافي ممعن في التعقيد تختلف حوله وجهات النظر >>.[5]

(1) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري >>، ص 15.
(2) المرجع نفسه، ص 44.
(3) عبد الحميد يونس << معجم الفولكلور >>، مكتبة لبنان، ط 1، 1983، مادة أسطورة، ص 34.
(4) يوسف حلاوي الأسطورة في الشعر العربي، دار الحداثة، لبنان، ط1، 1982، ص 9.
(5) عبد الحميد يونس << معجم الفولكلور >>، ص 34.

إن هذا التداخل والا تباين بين الأسطورة والخرافة رغم المحاولات العديدة لوضع الحد الفاصل بينهما هو ما استفزنا لنخوض هذه التجربة العلمية، ونقتحم عالما محفوفا بالرمزية والغموض خاصة في ضوء الكم الهائل من المصطلحات التي تتقارب معها كالقصة البطولية والحكاية الشعبية... وكذا في ظل ارتباطهما بالسلوك البشري وبقيمة ومعنى الوجود وبوظيفتهما في المجتمعات التقليدية، كونهما تتيحان لنا الوقوف على مرحلة مغمورة من تاريخ الفكر الإنساني بكل حمولاتهم.

إن مجرد تصفح الأسطورة والخرافة لا يفصل في الأمر، ولا يضع الحدود الفاصلة بينهما فالبنية المعقدة لكليهما تحول بينك وبين الوصول إلى ذلك، فلا سبيل إلا بالغوص في أعماق بنيتهما وتدبر معانيهما من خلال فك الطلاسم والرموز. ويبقى الأهم من كل هذا هو المكانة المرموقة التي تحتلها كل منهما في حياة الإنسان البدائي، والدور الكبير المنوط بهما من خلال توظيف عناصر الطبيعة والممارسات الطقوسية التي تكرس فكرة ما وتعكس اعتقادا محددا.

الفصل الأول

صورة عن الحياة الدينية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية

1- الخلق والتأليه:

أ- خلق الآلهة :

لقد عمل الإنسان دوما على كشف حقيقة العالم والحياة، والبدايات والنهايات، وحيّرته الغايات، فاعتقد في البداية أن الكون بكل ما يحويه من مظاهر يخضع لقوانين، وقواعد معينة، وأنه إذ كشف عن كنه تلك القوانين والقواعد سيتمكن لا محالة من إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها وفق مصالحه وأهوائه، ولهذا اعتقد أنه بإمكانه السيطرة على الشمس واستجلاب الأمطار، وشفاء الأمراض، وإحياء الأموات، ودفع الكوارث... وهذا عن طريق ممارسة الطقوس السحرية أو ما يعرف بالسحر، فتكونت لديه تراكمات لهذه الممارسة جمعت في سفر واحد.

ومن المعتقد أن سر النجاح في طقوسه السحرية يكمن في تقيده بتلك القواعد والقوانين وبأنه يملك القدرة على ذلك، لكنه اصطدم بالفشل الذريع، وهنا أدرك أنه لابد من وجود قوى خارقة تقف وراء المظاهر المتغيرة لهذا العالم، إنها قوى إلهية قادرة على التأثير والتغيير، فعمل جاهدا على التقرب لتلك القوى، ومحاولة إدراك كنهها فظهر ما يعرف باسم الدين بقسميه: العقدي الذي يستخدم الأسطورة أداة للمعرفة والكشف، والطقسي الذي يسخر كل الممارسات بقصد استرضاء الآلهة والتعبد لها.

فظهرت بهذا أساطير الخلق (البدء) التي تكرس هذه الرؤية بأبعادها العقدية، محاولة فك طلاسم المجهول، ومن هذه الأساطير أسطورة خلق الآلهة **التوأمان** ماوو، وليزا. حيث تقوم أسطورة التكوين الأفريقية على عامل الزواج، هذا الأخير الذي ارتبط بالأم الأولى نانا بولوكو، ثم انتقل إلى الإله ماوو وليزا، ليؤدي في النهاية إلى ظهور سبعة توائم من الآلهة وقد أوكلت بكل توأم مهمة مقدسة ارتبطت بالمخلوقات جميعا.[1]

في البدء كانت الأم الأولى **نانا بولوكو** التي كانت مهمتها المقدسة هي ولادة (خلق) الإله التوأم **ماوو وليزا** الخنثى الذي يرمز للاتحاد، حيث ماوو يمثلونه بالقمر، وليزا بالشمس

(1)ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 29 ، 30 .

والقمر هو كوكب الحياة ورمز للميلاد والموت، فهو يموت ثم يعاود الولادة، وهو الإله الكبير لدى ميزوبوتامبا، وإله المياه لعدد من الشعوب، فموت وبعث القمر يلعب دورا كبيرا في الحفلات التكريسية للمجتمعات البدائية، وفي العديد من الثقافات القمر يرمز لمصير الإنسان.[1]

فالإنسان الأفريقي يؤمن بتجدد الحياة عبر دورته، ولهذا فهو يرى أن مصير الإنسان والظواهر الكونية كمصير القمر الإله، والشمس الإله ذات الطبيعة الذكرية، فهي مجسدة للمقدس، ومعبودة كإله، وهي رمز الألوهة وجزء من مجتمع الآلهة. وتعتقد الشعوب الأفريقية بأنها منحدرة من قران الشمس والقمر، وهذا الزواج المقدس كان معروفا لدى هذه الشعوب البدائية، حيث كان البشر يمثلون دور الآلهة في كثير من المواضع ليقوموا بعقد القران.

ففي شرق إفريقيا تعبد قبائل أكليليو رب نهر معين بمنطقتهم << وهو في صورة حية ويطلق عليها الربة الحية ويزوجونها من فتاة عذراء صغيرة السن، ويقوم الساحر ببناء كوخ من الجريد والقش لإتمام الزواج فيه، ويقوم الساحر بعقد قران الرب - الحية السامة للفتاة الجميلة ... وعادة ينيب الرب الحية ساحر القبيلة الرجل - الطبيب لإتمام مراسم الزواج ، ويطلق على أبناء الساحر أبناء الإله أو أبناء الرب >>.[2]

لقد جاء من اقتران ماوو وليزا أبناء بلغوا السبعة، ولوحظ في كل الأزمنة أن العدد سبعة يحتوي على شيء غامض في الديانات، فهو بالنسبة للسحرة والعرافين العدد الأكثر قوة ومهابة، فهو العدد العذري، فهناك سبعة أيام، وسبع سماوات، وسبعة أراضين وسبعة أبواب للجنة، ومثلها للجحيم، فالفضيلة السحرية للرقم سبعة كانت على الأرجح تحمي البيت وهناك الكواكب السيارة السبعة التي حملت أسماءها أيام الأسبوع السبعة.

وفي عهد هيبوقريط طرحوا مسألة الأعمار السبعة للحياة، حيث تبدأ من الطفل

---

(1) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن -الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس)، دار دمشق سوريا،ط2 ،2009 ص 383.

(2) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، دار العالم الثالث،ج1، 2005 ص173 .

الصغير، فالولد، فالمراهق، فالشاب، ثم الإنسان الناضج، ثم الرجل المسن، فالشيخوخة.[1] فالعدد سبعة في أسطورة الخلق لم يأت جزافا، بل عن نية مبيتة، فالتوأم الأول كان إله الأرض الذي أوكلت له مهمة إعمارها، هذه الأخيرة التي ارتبطت بالأم، اعتقادا أنها ولدت الإنسان، وهي منشأ الحياة بالنسبة له، وللنبات والحيوان، وربط بطن الأرض ببطن الأم.

إنها ألوهة أنثوية زوجتها الشعوب - خاصة الأفريقية - بكل رضا مع السماء و﴿ ثمة صلات رمزية تربط الأرض بالليل، بالقمر، بالمبدأ الأمومي، بالجانب الأيسر والنجاح المادي، بمقابل السماء المرتبطة بالنهار، بالشمس ، بالمبدأ الأبوي بالجانب الأيمن بالطقوس﴾.[2]

أما التوأم الثاني فهو إله السماء، الذي يتحكم في حركة الرياح وأفعال البرق والرعد (فالأرض تقابلها السماء)، هذه المظاهر التي طالما أرقت الإنسان الأفريقي، وبثت الرعب فيه ، وغالبا ما اعتقد أنها نفسها آلهة ، ولهذا كان يتقرب إليها بالقرابين .

فيما التوأم الثالث - وهو إله الحديد - أوكلت له مهمة تختص بصفاته القوية، فهو سيقطع الأشجار و يهيئ الأرض لتكون صالحة للزراعة، التي تعتبر مصدرا أساسا من مصادر غذاء الإنسان وترتبط بوجوده واستمراره.

واختص التوأم الرابع بالبحار، فكان إله المياه والكائنات البحرية، يجري فيها الحياة كيفما شاء، فالشعوب الأفريقية تؤمن بوجود إله لكل ظاهرة، فللبحر أو الماء إله، حيث جعلت له قرابين خاصة، فطالما قدمت له العذراوات الحسناوات لاسترضائه حتى يمنحهم صيدا وفيرا. فحيث ما وجد نهر وجدت الطقوس السحرية التي تهدف إلى إعلان الخضوع لإله الماء، حتى يمنحهم الخصوبة لأراضيهم ومحاصيلهم الزراعية، فالماء ألوهة مولدة للحياة والخصب.

---

(1) ينظر فيليب سيرنج ﴿ الرموز في الفن - الأديان - الحياة ﴾، تر (عبد الهادي عباس) ، 459 ، 460 .
(2) المرجع نفسه ، ص 362 .

ونلاحظ من الأمثلة التي بينت أن الكائنات السماوية الربانية العليا، التي تتزوج نساء من البشر- عادة ما تكون فوق طبيعية من الأرباب أو من روح الماء - فالرب ميكوسا <<إله بحيرة فكتوريا نيانزا، وتطلب قبائل باجندا الأفريقية سنويا رضاه وبركته، وتتعبد له بإعطائه فتيات عذارى صغيرات السن جدا للتأكد من عذريتهن ليتزوجهن فيغدق بركاته الإلهية على جميع أهالي القبيلة، وعلى الفتيات المختارات لهذه المهمة المقدسة والمراعاة الكاملة للعفة والتنسك >>[1].

أما باقي التوائم فنجد أن الإله ماوو وليزا قد فتح لهم المجال بين السماء والأرض وخصهم بمهمة غاية في التعقيد والخصوصية، ألا وهي الإشراف على معدلات عمر الإنسان، بتقدير عمر كل فرد في هذا الكون، وقد كلف بهذه المهمة الصعبة ثلاثة توائم إلهية، وهذا إن دل إنما يدل على ثقل المسؤولية المتعلقة بالإنسان، وتفاصيل حياته وظروف مماته، ولقد ارتبطت هذه التوائم بالغيبيات، وهو أمر في غاية التعقيد.

بعد ذلك تستمر خطة الخلق بمنح الآلهة لغات لا يطلع على سرها إلا الوسطاء بينها وبين البشر، وهم الكهنة والعرافين وتظهر في التراتيل والترانيم، التي تؤدى في الطقوس السحرية والدينية.

ويلاحظ من هذه الأسطورة أن خلق الآلهة كان ثنائيا، فالخنوثة الإلهية حسب إلياد ليست سوى تعبير قديم عن ازدواجية الوحدة الإلهية، ويرى برزيلوسكي في اتحاد الجنسيين خلاصة تطور الثنائي الإلهي المزدوج الجنس قبل مرحلة عبادة الإله الذكر الواحد، كما يعتقد أن الدلالة الذكرية ليست دلالة الأب المتسامي، بل هي دلالة الابن الأنثوي، فأغلب آلهة القمر أو النبات تتميز بجنس مزدوج. كما نجد أن الطقوس الدينية تعكس هذه الخنوثة اللاهوتية ويظهر ذلك من خلال طقوس الختان التي تهدف إلى تميز الجنسين بوضوح.

وتجدر الإشارة إلى التنكير الذي اتصفت به هذه التوائم الآلهة، حيث لم تكن تدعى باسم معين رغم أن الخالق الأعظم كان له اسم مزدوج، غير أن هذه الآلهة كانت بدون أسماء وكان

(1) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر >>ج1، ص173 .

معروف عن معظم الشعوب الأفريقية إطلاق أسماء على آلهتها، فقد كانت تؤمن بالخالق الأعظم أو الكائن الأعظم، والذي نعتته بعدة مسميات.

فنجد في القسم الشرقي للقارة أنها تطلق اسم ملونغو Mulungu، أما في المنطقة الاستوائية الممتدة من بوتسوانا وحتى الكونغو فالتسمية المألوفة للإله الأعظم هي نيامبي Nuambe، وفي القسم الغربي من القارة الأفريقية نجد تسميات أخرى للإله منها نيغوا Negewo، ماوو Mawu، أما Amma، أولورون Olorun، جوكو Chukwu[1] وغيرها من الأسماء.

لكن الواضح أنه توجد بعض القبائل الأفريقية التي تلجأ إلى إخفاء أسماء الآلهة والأشياء وحتى أسماء الناس، والغرض من ذلك هو الحماية من الأذى. أما بالنسبة للآلهة فقد كانت بعض القبائل في وسط أفريقيا تخفي أسماءها لأنها تخاف من انتزاع ألوهيتها بانتزاع اسمها أو إلحاق الأذى بالقبيلة، حيث يستعمل اسم الإله في التعويذات والطقوس السحرية التي يقصد من ورائها إلحاق الأذى.

بالنسبة لهذه الشعوب فالأسماء الحقيقة للآلهة ترتبط ارتباطا وثيقا بقوتها وطاقتها الخلاقة الربانية. ويؤمن الأفارقة بوجود أرواح أدنى من الإله الخالق، وهي غالبا واسطة بينه وبين البشر، حيث يتوجهون إليها بالعبادة، وتقام الطقوس الدينية المختلفة تقربا منها وطلبا لمساعدتها ورضاها، وتجنبا لغضبها، فجعلوا للخالق الأعظم معابد معدودة، في حين تكثر الأماكن المقدسة المكرسة للأرواح الأدنى والسلف.

كما تعتقد الشعوب الأفريقية أن الخالق الأعظم أكبر من أن تحتويه المعابد، ولكن نجدهم في كثير من المواقف يصفونه وكأنه بشر ماثل بينهم، وبالتالي فهو يملك يدين وصوتا يشبه الرعد إلا أنه أعظم من العاصفة والصاعقة، فحين يغضب تسمع له صوتا مخيفا كالرعد وحينما يرضى يهب نسيم هادئ... فهو المسؤول في اعتقادهم عن كل ما يصيب الإنسان من خير وشر.

(1) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 22.

لقد نسجوا روايات عديدة حول ولادة الخالق الأعظم وباقي الآلهة، فبعض القبائل الأفريقية تؤمن بأن الخالق الأعظم ولد من امرأة تحمل ثديا واحدا << فنصف امرأة يظهر جسد الإله مختل التناسق بفعل الجنس، إذ أن صدره لا يحمل سوى ثدي امرأة وحيد بارز>>[1]، هذه التخيلات الخنثوية موجودة بوضوح لدى الأفارقة.

كما جعلوا له زوجة وأولادا، ولهذا غالبا ما يشيرون إليه على أنه على هيئة بشر، وقد كان يعيش بينهم، إلا أن أفعال الإنسان جعلته يترك الأرض ليلتحق بالسماء، واعتقد الأفارقة بوجود ترابط لا فصام فيه بين الآلهة والبشر والحيوانات والطبيعة، وأنها جميعا خاضعة لنفس القوانين، ومكونة من مادة إلهية واحدة. في البداية لم يكن هناك فجوة وجودية بين عالم الآلهة وعالم البشر، فلم يكن وجود الآلهة الأساسي منفصلا عن وجود العاصفة والبحر والنهر...

التمييز بين الآلهة والإنسان لم تكن واضحة تماما في العصر القديم، أو بعبارة أخرى هذا التمييز والفصل بين الإلهي والإنساني بقي مطروحا، ففكرة الرجل الإله أو الرجل الرب أو الإنسان الذي تكمن فيه صفات ربانية وقوة فوق الطبيعية كانت موجودة في اعتقاد الشعوب الأفريقية، ومع ذلك فالمفهوم أن الآلهة هي كائنات أعلى من الإنسان وتكمن فيها قوى علوية أكبر وأعلى من البشر بكثير.

ب - خلق العالم:

إن الخلق هو إخراج شيء ما إلى الوجود، فيكون على هيئة معينة، وقد نظر الإنسان الأفريقي البدائي إلى هذا العالم فوجده أبدع من أن يحتويه فكره، ويستوعبه فهمه وإدراكه فحاول مرارا وتكرارا الغوص في أغواره لعله يصل إلى لب الحقيقة. فكانت هذه الأساطير والخرافات محاولة منه لتفسير كل ما يدور حوله من ظواهر ومظاهر.

لقد تعددت الأساطير التي تفسر الخلق واختلفت، ومنها أساطير خلق العالم أو الكون حيث تقول أسطورة **خلق العالم من قطرة لبن**، أن أصل العالم كان قطرة لبن كبيرة، هذه القطرة

(1) جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات لبنان، ط3 ،2006، ص 270.

ظهر منها الإله دونداري Doondari، وبعدها بدأ الخلق.[1] فالإنسان الأفريقي البدائي كان يعيش على الصيد والرعي، فكان غذاؤه الأساس هو ألبان الحيوانات (ماعز وأبقار...)، فقد مثلت غذاء له على امتداد مراحل حياته، فلا يمكنه الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال.

كما شكلت مرحلة الرضاعة لديه فترة غاية في الأهمية، فحليب أمه سر بقائه واستمراره فهو يمثل بالنسبة له الحنان والعطف والنقاء، والأرجح أنه ربط بين هذه المقدمات وبين خلق العالم. فاللبن يمثل الفطرة والنقاء والطهر زيادة على لونه الأبيض، وكأن هذا العالم قد وجد نقيا طاهرا، وهذا الأخير بالنسبة للإنسان الأفريقي يشبه تماما الأم مع أولادها فهي ترعاهم وتتعهدهم بالحنان والعطف، وتقول **ماري بونابرث** :<< أن البحر هو بالنسبة لكافة البشر واحد من الرموز الأمومية... ونحن نحب البحر لأن بعض الشيء منا يوجد ليعاود تجسيد نفسه بعض الشيء نابع مما كنا نهواه في طفولتنا، والذي لم يمض بدائيا إلا للخليقة - الملجأ المخلوقة - المرضعة التي كانت الأم >>.[2]

ويتقارب معها **باشيلارد** في هذا الطرح، حيث يعتبر كل سائل هو ماء، وكل ماء هو لبن ويعتبر البحر أمومي، والماء لبن أعجوبي. لقد خلق الإله دونداري قبل كل شيء من قطرة لبن، فكان رمز الصفاء والقوة، فقد بادر لخلق الحجر، وهذا الأخير بالنسبة للأفارقة البدائيين هو العالم، لقد كان **روجيه كيلوا** يعتبر كل حجر كعالم، وهي سابقة للحياة والإنسان، وهذا الاعتقاد نجده لدى الإنسان الأفريقي البدائي الأول، فالحجارة في اعتقاده مثقلة بالمقدس، حيث تمثل دعامة لروح ما وراء الطبيعة، أو التجسيد المادي لروح السلف.

ويرى **فيلب سيرنج** في كتابه الرموز في الفن والأديان والحياة أن الحجارة لدى البدائي هي بمثابة كافلة للحقوق المتعلقة بالأراضي، وقد جرت العادة بالنسبة للقبيلة المرتحلة أن تحمل معها بعض حجارتها السلفية، أو قد تعود لسرقتها، في حين القبيلة التي تحط بمكان جديد وجب عليها أن تقدم القرابين للحجارة الموجودة بذلك المكان.

(1) ينظرالحسيني الحسيني معدي<< الأساطير الأفريقية >>، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص 7.
(2) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 360.

ويذهب في هذا **مرسيا الياد** إلى وجود اعتقاد لدى هذه الشعوب بوجود حجر الميغاليت الذي يحمي البشر من بعض الأعمال السحرية التي قد تؤدي إلى الموت، ويرمز الحجر إلى الخصب، فهناك بعض الحجارة كرموز قضيبية مكلفة بتخصيب الأرض (الأرض - الأم)... الحجر المولدة Le petra genitris.[1]

وبعدها خلق الحجر الحديد الذي يمثل القوة والصمود، وهذا يكرس الاعتقاد الراسخ بصلابة الكون وقوته. ومن الحديد جاءت النار التي فتنت البشر والأفارقة على وجه التحديد فهي رفيقة أنسهم، ومبعث اطمئنانهم، فالأفريقي وبحكم الطبيعة الموحشة التي تحيط به، لا يمكنه بحال من الأحوال الاستغناء عن النار، فهي حاضرة في الحرب والسلم، والصيد والسحر، والاحتفال... فلا تكاد تخلو حياته بكل تفاصيلها من حضور النار.

ومن النار يعتقد أنه وجد الماء، وهذا فيه جمع بين النقيضين، فالنار والماء ضدان لا يجتمعان، فحيث ما وجد الماء غابت النار، لكن في اعتقاد الإنسان الأفريقي بظهور الماء من النار رمزية بعيدة المعاني. فالماء رمز الحياة، وحيث ما وجد الماء وجدت الحياة، والمعتقد الشائع هو أن الماء أصل الكون، ولأن الأفريقي يدرك ذلك فالقبائل لا تبني قراها إلا على ضفاف الأنهار، والينابيع، وكما سبق الإشارة إليه فإن هذه الأخيرة عبدت وقدست وقدم لأرواحها القرابين.

ولأن العلاقة وثيقة بين الأفريقي والبحر من خلال صيد الأسماك، وارتباط حركة القوارب - التي كان يركبها ليجوب بها البحار- بحركة الهواء، ولأن العواصف المطرية غالبا ما تترافق وهبوب الرياح القوية، فقد اعتقد الأفريقي اعتقادا جازما أن الماء خلق الهواء.

بهذا تكون العناصر الأساسية التي تدخل في تكوين العالم قد اكتملت، وهي نفسها العناصر التي يتكون منها الإنسان. فالأفريقي إذن كان على وعي تام بمكونات الكون والإنسان، رغم بساطته وبدائيته، فملاحظته للطبيعة بحكم احتكاكه الدائم والقوي كانت نظرة عن تجربة

(1) ينظر المرجع السابق، ص 327.

وتفاعل قويين. كما أشارت هذه الأسطورة إلى أسباب خلق العمى، والنوم، والموت، وقد اقترنت جمعيها بالتكبر، وهي صفة تنبذها الآلهة، وترفضها أعراف المجتمع القبلي.

ويعد **غاستون باشلار** (G.Bachelar) **ممن** اهتموا بالعناصر الأربعة للوجود الماء والنار والهواء والتراب،[1] واعتبرها << بمثابة القانون العام الثابت في مملكة الخيال >>[2] وقد أكد وجود خاصية تناظرية بين هذه العناصر (ماء/ نار- هواء/ تراب).

وفي أسطورة بداية الخلق من نيجيريا يظهر اعتقاد الشعوب الأفريقية بأن العالم (الكون) في بداية الخلق، لم يكن مؤهلا للعيش فيه، فهو مجرد مستنقعات، لم يرق لأن يكون مكانا مناسبا ليسكن فيه الإنسان والحيوان أو حتى النبات. ولأن إله السماء ضاق بهذه الوضعية التي لم تكن تريحه هو وبقية الآلهة، فقد عرض على كبير الآلهة أن يجعل من هذه المستنقعات أرضا يابسة.

ويظهر من خلال هذه الأسطورة إيمان هذه الشعوب بوجود إله الوحي، وهو رسول بين الآلهة، ومع أن الأساطير كانت غالبا ما تظهر الآلهة وهي تتحدث إلى بعضها البعض دون واسطة، إلا أن هذه الأسطورة أبرزت هذه الخاصية التي نرى أنها استثناء يكرس الفوقية وتسامي الإله الأكبر.

لقد استجاب كبير الآلهة لطلب إله السماء، وتتبع طريقة متسلسلة في عمله، حيث بدأ بنثر التراب الذي حوته القوقعة الحلزونية، والتي تعتبر حيوانا قمريا بامتياز<< فالحلزون رمز قمري متميز وهو ليس فقط قوقعة تعبر عن مظهر الأنوثة المائي، وتمتلك مظهر الأنوثة الجنسي، ولكنه بالإضافة إلى ذلك صدفة لولبية شبه دائرية... فيصبح قابلا بسبب تعدد رمزيته لأن ينطوي على مجموعة دلالات قمرية... فيصور إله القمر مسجونا في قوقعة حلزون >>[3] ولا تنحصر دلالة الحلزون في هذا المعنى، بل يمكن أن يتعدى شكله اللولبي الهام إلى أساطير

(1) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث والحكايات الشعبية >>، ص 15، 16.
(2) ينظر L'eau et les rêves:Essai sur l'imagination de la matiére , Librairie José Corti ,1942,p.10.
(3) جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها >>، ص 292.

توازن المتناقضات ودمجها، فالشكل اللولبي لقوقعة الحلزون يحمل << رمزا عالميا للزمنية والديمومة الكائن من خلال التغير والتبدل >>.[1]

ولهذا اختاره - حسب اعتقادهم - إله السماء ليحوي تراب خلق اليابسة المقدس. وبعد نثر التراب أوكلت المهمة الباقية للدجاجة والحمامة لتقوما ببعثرة التراب في كل مكان، وهناك رواية أخرى تقول أن الديك هو من قام بالمهمة و<< الديك كان على الدوام طائرا شمسيا رمز الكوكب والنور المتولد... وهو رمز الحيوية... ويفترض أن الطائر يمضي ليقود روح الميت نحو ولادة جديدة في عالم آخر >>.[2]

في حين نجد الحمامة ترمز للسلام، وكأن كبير الآلهة أمل في أن يعم هذه الأرض التي يخلقها السلام بين ساكنيها، الذين هم على وشك الوجود. وبعد أن بعث بالحرباء لتنشر من ألوانها وتسكب على الأرض ألوانا مختلفة، وتتأكد من صلاحية الأرض لاستقبال الوافد الجديد وقد اختيرت الحرباء دون غيرها لاتساع عينيها وقدرتها على تحريكهما في كل الاتجاهات وبكل سرعة وخفة.

تعتقد قبائل اليوروبا أن الأرض الأولى التي خلقت ونزل عليها الإنسان الأول هي نفسها أرضهم التي يقيمون بها، حيث أصبحت مقدسة من طرف الأفارقة. لقد دامت مدة خلق الأرض أربعة أيام، واليوم الخامس خصص للعبادة، ونلاحظ هنا تقارب في أيام خلق الأرض في الأسطورة والحقيقة، وكأنه اقتباس من القرآن الكريم حيث خلق الله الكون في ستة أيام، ثم استوى على العرش، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون الشعوب الأفريقية البدائية في منأى عن التأثر بما يأتيها من روايات، وما تسمعه من حكايات...

ولأن الشعوب الأفريقية تعتمد في تغذيتها على الصيد والزراعة، فقد ركزت هذه الأسطورة على الزراعة كمورد غذائي لهذه الشعوب، وخصت بالذكر شجرة جوز الهند المقدسة، وبعد تهيئة الأرض والظروف لاستقبال الإنسان، الذي يعتقد أنه خلق في السماء من طين، ونفخ فيه

(1) المرجع السابق ، ص 293.
(2) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 184 .

الإله أورون من روحه، والمتمعن في الخطوات التي انتهجها الإله في عملية خلق الإنسان هذه يتبين له كذلك التقارب الشديد بين المراحل التي ذكرت في الكتب السماوية. حيث خلق الإنسان في السماء من صلصال، ثم نزل لظروف معينة إلى الأرض ليسكن فيها بعد أن هيئت له الظروف.

هذا إن دل إنما يدل على احتكاك القبائل الأفريقية التي قد تحمل ثقافات تختلف عن ثقافة الأفارقة، مما يؤدي إلى تأثر هذه الأخيرة فيظهر هذا التأثر من خلال أساطيرهم وخرافاتهم و<< لم يكن حدث الخلق مثل أي حدث تاريخي اعتيادي، يحصل وينتهي. فخلق العالم عملية مستمرة، ومعركة الألوهة ضد الفوضى ما تزال مستمرة، ويحتاج البشر إلى تدفق الطاقة الإلهي التي تبعد الفوضى والكوارث >>.[1]

وتوجد أسطورة " **أربع عمليات خلق للإنسان** ". تبرز كيفية خلق العالم من يابسة وأشجار، وحيوان وإنسان[2]، وسنركز على الجزء الخاص بخلق اليابسة والأشجار والحيوان، ونترك القسم المتعلق بخلق الإنسان لنتناوله بالدراسة في مطلب خلق الإنسان.

إنه يتبين من هذه الأسطورة تقديس الشعوب الأفريقية للثعبان وتأليهه له، فهم يعتقدون أنه خالق الكون، وسبب وجوده وقد أطلقوا عليه أسماء شتى منها: الصياد، بوسم، الصياد كيوتي الثعبان المريش، قلب السماء، قلب الأرض، الجد والجدة. وهو برمزيته القمرية يمثل انعكاس لصورة الحيوان القمري، بقدرته المائية الظلامية، إنه رمز الاكتمال وتجميع كل الإمكانيات الطبيعية[3]. وقد ورد في كثير من الدلالات أن << الثعبان ذو الريش هو حيوان كوكبي يظهر ويختفي بشكل دوري، وهو مخلوق مركب، بشير خير ونذير شؤم، وترمز تموجات جسده إلى المياه الكونية، بينما يمثل جناحاه صورة الهواء والرياح >>.[4]

---

(1) كارين أرمسترونغ << تاريخ الأسطورة >>، تر(وجيه قانصو) ، الدار العربية للعلوم ، لبنان ، ط1 ، 2008، ص84.
(2) ينظر فيريجينا هاملتون << أساطير الخلق >>، تر (أسامة اسبر) ، ص79.
(3) ينظر جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 292.
(4) المرجع نفسه، ص 296.

لقد جاء في بداية الأسطورة ذكر عبارة الكلمة، فهي تدل على القدرة المطلقة، وتسبق الكلمة خلق الكون، وهي تتماثل مع النور والسيادة العليا. الواضح أن الخالق المريش والصانع لم يكونا يسكنان السماء كما هو الحال بالنسبة للإله الأعظم فهم بهذا - وحتى إن رأت فيه القبائل الأفريقية خالق الكون - لا يعتقدون بألوهيته المطلقة.

واللافت للانتباه أن هذه الأسطورة ذكرت البحر بدل المستنقعات، والبحر له << رمزية محزنة... ويرمز بصورة عامة للقوى العمائية للعالم، الشر، القوة الشيطانية. وعلى العكس من ذلك فإن التحليل النفسي يقرب البحر من سلسلة كاملة من العناصر، أرض، مغارة ليل، قمر ثمة ميل لأن يرى في المياه نمط بدئي للأم. حسب ماري بونابرث أن البحر هو بالنسبة لكافة البشر واحد من الرموز الأمومية الأكثر ضخامة والأكثر ثبات >>[1].

وقد أشارت الأسطورة إلى ذلك، حيث قرنت الظلام والليل مع البحر الهادئ الوحيد، كما كان الصانع والثعبان المريش يعيشان في البحر، وكان يتوهج منهما ضوء، وهو<< رمز التصاعد والألوهة، إنه يتعارض مع الظلمات والليل رمز بدئي للشر>>[2]. وكانا مكسوين بالزرقة والريش الأخضر الذي يرمز إلى البعث، والأخضر في النبات المتولد له علاقة بفكرة القوى الإلهية للتجديد، في حين الأزرق يدل على أفكار الطهارة والحكمة الإلهية[3].

وبهذا يكون الصانع والثعبان المريش. في اعتقاد الشعوب الأفريقية علامة من علامات البعث، والقوى الإلهية المجددة للحياة، ورمز للطهارة والحكمة الإلهية، وهذا ما جاء صراحة في الأسطورة حيث وصفتهما بالذكاء والقدرة على التفكير. والقدرة مشاكلة للنور والسيادة العليا.

لقد كان إيمان الشعوب الأفريقية قاطعا بقدرة الصانع والثعبان المريش على الخلق، ويتضح ذلك جليا من خلال الأسطورة فبمجرد أن يذكر اسم المخلوق من طرفهما، حتى يظهر إلى الوجود، فظهرت الأرض بعد انجلاء البحر عن وجهها، وظهرت الجبال بمجرد التفكير فيـها

(1) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، 360.
(2) المرجع نفسه ، ص 343.
(3) ينظر المرجع نفسه ، ص 322 ، 324.

وباستعمال القوى السحرية التي لا غنى عنها لدى هذه الشعوب، جاءت الأشجار لتغطي وجه الجبال.

ثم تتابعت عملية الخلق ليتم خلق الحيوانات، تباعا بداية بالأيل الذي يرمز للبعث والنشور ولإله الثروة، ويعتبر رمزا شمسيا، وبذلك كان مقدسا.[1] والطيور هي رمز التسامي الروحي وقد جاء الفهد ضمن الحيوانات التي خلقها الصانع والثعبان المريش، فقد ارتبط ظهوره بالربة الأم فهو حيوان شعائري، ويتضمن ألوهية ذكورية.[2] أما فيما يخص الأفعى فهو الحيوان الأكثر غنى بالدلالات والرمزية، لكن الشائع أن الثعبان هو رمز أرضي، ورمز المعرفة والحكمة.

ويتضح أن الجمع بين هذه الحيوانات ذات الرمزية المختلفة، والتي تتمحور حول الألوهة والقداسة كان أملا في الحصول على المديح وعبادة الإله، لكن الحيوانات لم تتكلم، ولم تبد امتنانا، لهذا فكر الخالق في إيجاد من يمدحه، ويعبده.

ج- خلق الأرض:

بعد أن تعرضت الأساطير والخرافات الأفريقية لخلق العالم بأكمله، خصت الأرض أو اليابسة بأساطير حول البدايات الأولى لخلقها، وقد تعددت هذه الأساطير، لكنها لا تكاد تختلف من حيث المراحل المتبعة في خلقها إلا في التسميات، ولهذا سنركز على أسطورة مختلفة إلى حد ما، ألا وهي أسطورة خلق اليابسة **أصل العجز**.

ويتعين بداية الأمر أن نشير إلى اسم الإله الأكبر فهو يختلف باختلاف الأسطورة، وهذا يبين أن الأسطورة عندما تنتقل من قبيلة إلى أخرى تحمل خصائص القبيلة. والاختلاف في أسماء الآلهة شائع لدى هذه القبائل.

لقد كلف الإله أوباتالا Obatala بخلق الأرض فهبط عبر سلسلة،[3] وإن لم يذكر لمن تعود فإنه يرجح أن تكون لعنكبوت ، فالأفارقة غالبا ما يربطون العلاقة بينها وبين الإله ، والأرجح

(1) ينظر المرجع السابق ، ص 104،105.
(2) ينظر المرجع نفسه ، ص 85.
(3) ينظرالحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص 33.

أن هناك تأثرا بالقصص الإسلامية حول العنكبوت، كقيامها بنسج شبكة في غار حراء. وهي غالبا ذات رمزية سلبية، في حين نجد أن السلسلة أو الخيط أو النسيج << رابطة مطمئنة ورمز للاستمرارية >>[1]. وقد توافقت أسطورة خلق الأرض (اليابسة) مع أسطورة خلق العالم، من حيث العناصر المشكلة لكليهما، وهي : التراب، ومعدن الحديد، والماء واستعمال الديك المقدس ليقوم بعملية نثر التراب على الماء.

اعتقدت الشعوب الأفريقية بأن الأرض ذات جنسية أنثوية، وأنها تمثل دور الأم بالنسبة للإنسان، ولكل الكائنات << فكانت توقر كشيء مقدس بذاته، لقد أنتجت الأرض من رحمها كل الأشياء بنفس الطريقة التي تلد المرأة فيها طفلها[2] >>، فلو لم توجد الأرض لما وجد الإنسان ولما كانت الحياة، << وقد علمت أساطير التكوين ... الناس بأنهم ينتمون إلى الأرض مثلما تنتمي الصخور والأنهار والأشجار إليها >>[3].

تدعم ما ذهبنا إليه أسطورة الخلق لدى قبائل الدوغون Dogon، التي جاءت على لسان أحد شيوخها، حيث كان الإله أما Amma قد خلق الشمس والقمر، وأحاطهما بثمان حلقات نحاسية حمراء للشمس، وبيضاء للقمر، والكواكب الأخرى من طين، ألقى بها في الفضاء[4]. والشمس هي مجسدة للمقدس ومعبودة كإله، فهي ترمز للألوهة. أما القمر فهو كوكب إيقاعات الحياة ورمزيته تمتد لكل ما يسيطر عليه أو يبدو، كالمياه، والأمطار، والنبات والخصوبة. والشمس عند الشعوب الأفريقية تمثل جنسا ذكوريا، في الوقت الذي ينظر فيه إلى القمر على أنه من جنس أنثوي، وقد ذكرت العديد من الأساطير تزوجت فيها الشمس بالقمر، وأنجبا آلهة متعددة.

وساد اعتقاد راسخ بين القبائل الأفريقية أن الأرض المؤنثة اقترنت مع الإله " أما "، ونتج عن هذا الاقتران ابن آوى، وفي رواية ولد لهما توأمان جمعا في شكلهما بين جسم الإنسان وجسم الأفعى المقدسة. كما تؤمن بأن الماء هو الروح نمو Nummo، قام بتغطية الأرض الأم

---

(1) جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 301.
(2) كارين أرمسترونغ << تاريخ الأسطورة >>، تر (وجيه قانصو)، ص43.
(3) المرجع نفسه، ص 44.
(4) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 35.

بالأعشاب لأنها كانت عارية، وهذا يدل على أن الأرض الأم تبقى جرداء بدون نباتات خضراء، ولا أشجار، إلا إذا نزل عليها المطر وارتوت من مائه.

لقد آمنت الشعوب الأفريقية بوجود طاقة خلاقة منتشرة في أرجاء الكون، والتي كانت في البداية قوة مقدسة غير متميزة، جعلت من الأرض تجليا لألوهيتها << ومثلما أدى تمجيد السماء لاحقا إلى شخصنة إله السماء، فإن الأرض الأم والمربية أصبحت هنا الإلهة الأم >>[1] وقد أصبحت الأرض الأم رمز البطولة الأنثوية في كل الأساطير التي تتكلم بشكل أساسي عن التوازن والتناغم المتجدد.

أما أسطورة شعب بنين حول **خلق اليابسة**، فتشبه إلى حد بعيد أسطورة خلق الياسبة لدى قبائل يوروبا بنيجيريا، والتي تشير إلى أن الابن الأصغر للإله الأعظم نزل إلى الأرض وأقام مملكته على أرض بنين، بينما أقام إخوته ممالكهم الخاصة بأراضي أخرى من اليابسة، وقد أشارت زيادة على أسطورة شعب يوروبا إلى أن الإخوة حملوا معهم ثروات وكنوز، بالإضافة إلى اللغوة واللسان، وكان من بينهم من يبرع في السحر، ويتحكم في خباياه، وهذا يفسر انتشاره في المجتمع الأفريقي.[2]

د - خلق البشر:

يبدو أن خلق الإنسان حير العقول وأجهد الفكر، فتعددت الآراء واختلفت وجهات النظر فتنوعت الأساطير، وامتلك كل شعب أسطورته الخاصة، وبات لكل قبيلة قصة الخلق التي تترجم اعتقادها السائد، ونتيجة للزخم الكبير في هذا المجال، ولصعوبة حصرها جميعا فقد توقفت عند بعضها وأهمهما.

يتبين من خلال أسطورة **خلق البشر**، أن الإله أوباتالا بعد ما انتهى من خلق الأرض وهيأها ، وأصبحت صالحة للحياة التفت إلى خلق البشر ، فجعلهم إناثا وذكورا ، ونفخ فيهم من

(1) المرجع السابق، ص45.
(2) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث والحكايات الشعبية >>، ص 43.

روحه ومنحهم الحياة. وتعتقد القبائل الأفريقية أن تشوه خلقة بعض الناس يرجع السبب فيه إلى الإله أوباتالا، الذي أفرط في شرب نبيذ النخيل، حيث فقد السيطرة على عملية خلق البشر، فبدلا من أن يخلق أناسا أسوياء خلقهم مشوهين، وبعاهات مختلفة.[1]

يسود اعتقاد لدى قبائل الزولو بجنوب أفريقيا، أن الإله خلق الإنسان الأول ذكرا وأنثى وأن هذا الإنسان ولد من قصب، بدليل أنه كانت العائلة التي يولد لها طفل تضع القصب في ساحة الفناء الأمامي للبيت،[2] وهذا الاعتقاد نجده كذلك عند قبائل تونغا بموزمبيق. أما قبائل هيروبو فتعتقد أن أصل الإنسان الأول هو الأشجار، في حين قبائل أشانتي التي تتواجد بغانا تعتقد أن الإنسان انبعث من فجوة في الأرض، من خلال نفق شقته دودة.

وتخيلت بعض أساطير الخلق أن << البشر الأوائل انبثقوا من الأرض مثل النبات، فحياتهم تبدأ في العالم السفلي مثل البذور، إلى أن يرتفع الناس الجدد إلى السطح، أو ينموا مثل الأزهار ثم تقطفهم أمهاتهم البشرية، وحين تخيل الناس أنفسهم صاعدين ثم تقطفهم أمهاتهم البشرية، وحين تخيل الناس أنفسهم صاعدين إلى المرتفعات من أجل الاتصال بالآلهة، فقد ابتكروا طقوسا للاتصال بالمقدس الكائن في جوف الأرض >>.[3]

وتؤمن قبائل الدنكا أن الإله خلق الإنسان من طين وجعله ذكرا وأنثى، ثم وضعهما في إناء لأن حجمهما كان صغيرا ، ولم يصبح حجمهما كما هو معروف ، إلا بعدما فتح الإناء وبعد خروجهما منه أطلق على الرجل اسم " كارانج " وعلى المرأة اسم " أبوك "، وقد منحهما كل ما يحتاجانه للعيش الكريم،[4] وفي نظرهم أن المرأة هي أجشع مخلوق ، فالإله منحهما دخن واحدة كل يوم ليقتاتا عليها ، لكنها طمعت في المزيد فكانت السبب في إبعادهما عنه.

في حين قبائل بوغندا التي تقطن بأوغندا تترجم اعتقادها حول خلق الإنسان بأسطورة

(1) ينظر الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص 34.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 24.
(3) كارين أرمسترونغ << تاريخ الأسطورة >>، تر (وجيه قانصو)، ص43،44.
(4) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية>>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 61.

الاختبار سر الاختيار، حيث تعتقد أن الإنسان الأول (السلف) الذي يدعى كنتو خلق على الأرض وعاش هناك مع بقرته الوحيدة، أين كان يقتات على حليبها، ولأنه قابل ابنة الإله التي نزلت من السماء، وأراد الاقتران بها وقوبل برفض الإله وإصرار ابنته، فقد تعرض إلى الاختبار، الذي وضعه الإله ليعرف به مدى ذكاء الإنسان، وقدرته على التعايش مع واقعه الذي فرض عليه، ومدى صموده.[1]

الواضح أن الإنسان بعد صعوده إلى السماء ليخضع للاختبار أظهر إمكانية تدبر أمره، من خلال استعمال ذكائه الذي تميز به، ومن خلال تفاعله واحتكاكه بالطبيعة التي خبر خفاياها وسخرها لخدمته.

فإذا كانت هذه الأساطير تكرس خلق الإنسان على الأرض، فإنه توجد أساطير أخرى تكرس لخلق الإنسان في السماء. فهذه قبائل لويا تؤمن بخلق الإنسان الأول في السماء، من خلال أسطورة **لمن تشرق الشمس؟** يتبين أن الشمس كانت سببا في نزول الإنسان إلى الأرض بعدما كان يعيش في السماء، فقد تساءلت عن سبب إشراقها، فهي لا تجد من تشرق من أجله لكن الإنسان استوحش لبقائه وحيدا، فبعث له الإله سيلا واقترن بها، وحتى يتمكن من العيش الرغيد منحه الإله أمطارا اهتزت بها الأرض وربت.[2]

كما منحه حيوانات تكون له عونا وسندا كالأبقار المقدسة، وتعتقد القبائل الأفريقية بأن الطيور الكاسرة لها رمز سحري، وهي تمثل روح الإله ولهذا فهي مقدسة شأنها شأن بعض الزواحف مثل الثعبان أو الأفعى التي سبق وتعرضنا لها بالدراسة. وفي نيجيريا وبالضبط لدى قبائل اليوروبا، يؤمنون إيمانا راسخا بأن الإنسان الأول كان يعيش في السماء، ثم نزل إلى الأرض لمساعدة الإله الأعظم، حيث كون مجتمعا مسالما تعايش فيه مع الحيوانات جنبا إلى جنب.

لقد أشارت الأسطورة إلى أن الإنسان الأول، والمتمثل في **ماومبو** و**سيلا** جعلا من الأشجار مكان إقامة لهما، حيث شيدا كوخا في أعالي الأشجار تجنبا لأي هجوم من الحيوانات

(1) ينظر حسن عبد الغفار << الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث والحكايات الشعبية >>، ص 28.
(2) ينظر المصدر نفسه، ص 33.

المفترسة المنتشرة بشكل كبير في البلاد الأفريقية، وحسب اعتقادهم فهذا يفسر سبب اتخاذ بعض القبائل لمنازلهم فوق الأشجار، أو جعلها على أعمدة خشبية طويلة، اتقاء لشر الضواري والزواحف.

وفي أسطورة أربع عمليات خلق للإنسان (الصانع والثعبان المريش) في قسمها الثاني تعتقد قبائل كويتشي أن الصانع والثعبان المريش، قام بصنع شكل إنساني من الطين، لكنه لم يصمد طويلا، فقد ذاب وتلاشى حيث لم يكن صنعه ناجحا، وهذا ما جعلهما يحاولان صنعه من الخشب ليكون أكثر صلابة ودواما، فكان لهما ما أرادا، لكن الهدف الحقيقي الذي من أجله خلق الإنسان - وهي العبادة والمديح، وتقديم فروض الطاعة - لم يتحقق فلم يكن الخالق راضيا، فسلط عليهم قلب السماء طوفانا، وما تبقى منهم افترستهم حيوانات الغابة، ويعتقدون أن القردة هي بقايا هذه المخلوقات عديمة العقل.

كما اعتقدت قبائل الكويتشي أن الخالق حاول خلق الإنسان كمحاولة أخيرة، ليكون جسده من اللحم والدم بدلا من الطين والخشب ، وقد أشار عليه كل من القط البري ، والذئب الصغير، والببغاء، والغراب بضرورة خلقه من الذرة البيضاء والصفراء والماء.

الذئب هو رمز الشراسة، والخبث، ورمز الشيطان،[1] أما الغراب فقد تراوح رمزه بين الدلالة على الغطرسة وسرعة التصديق، وزرع الفوضى. أما غراب الزرع فيرمز لطهارة الروح والوفاء،[2] فقد جمعت هذه الأسطورة بين أربعة حيوانات ترمز للألوهة والقداسة ومثيلتها ترمز لكل ما هو دنيوي، وفيه دلالة جلية على تنوع الخلق بين الدنيوي والمقدس.

لقد قدمت الحيوانات النصح للإله بخلق الإنسان من الذرة البيضاء والصفراء، كون العرق الأسود (الأفارقة) في احتكاك دائم مع هذه الحبوب، حيث تمثل غذاء أساسيا بالنسبة لهم إلى جانب حبوب الدخن، ولهذا فهم يعتقدون أن الإنسان يتكون من الذرة بنوعيها والماء، وبالتالي فهو إسقاط للواقعي على الأسطوري.

(1) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 110.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 191،192.

يعتقد شعب المايا (كويتشي) أن الصانع والثعبان المريش صنع أربعة من البشر رجالا وعندما شكروا الإله على نعمه وحمدوه زادهم من نعمه بأن خلق لهم أربع زوجات، وكانت أسماء الرجال تتراوح بين الليل والريح ... وأسماء النساء بين البحر والسمكة والببغاء، وهذه الأسماء تحمل دلالة مثقلة بالمعاني، وهي نفسها مقدسة لدى الشعوب الأفريقية. وإذا سبق وذكرنا البحر على أنه رمز الابتلاع، والاحتواء فإن السمكة هي << رمز الاحتواء المضاعف>>[1]، كما يتبين لنا أنه وجدت كثير من الآلهة السمكية التي غالبا ما ظهرت على هيئة امرأة لها زعنفتان << فالاحتواء السمكي هو اللجة الأنثوية والأمومة التي تشكل بالنسبة لثقافات عديدة أنموذج الهبوط والعودة إلى ينابيع السعادة الأولى >>[2].

هذه القبائل تؤمن أن هؤلاء هم السلف، وقد بدأ الخلق بالرجال قبل النساء وهذا يتشابه وقصة الخلق في الديانات السماوية، حيث خلق آدم وهو رجل، وبعد حمده وشكره خلقت حواء من ضلعه، ومنها جاءت الذرية. وقبائل كويتشي تعتقد أن ذرية شعبهم تتأصل وتمتد من هؤلاء الرجال والنساء.

هـ - خلق النار:

لقد ذهل الإنسان وهو يرى ذلك الشرر المتطاير من النار، فوقف مدهوشا مبهورا لعظمة هذا المخلوق، الذي حيره أصل خلقه، وهذا الاكتشاف الذي غير مجرى حياته، فأدخل عليه الدفء والنور فحاول جاهدا أن يصل إلى الحقيقة الضائعة، فكان لكل قبيلة أفريقية أسطورتها المميزة، والتي تترجم من خلالها اعتقادها حول النار.

فهذه قبائل **البيرغداما** أو البيرغدامارا التي تعيش في الجنوب الغربي من أفريقيا، تعتقد أن الطقس كان باردا على الأرض، ولم يكن البشر يملكون النار، بل الأسد الذي كان يسكن في الضفة الأخرى وعائلته وحدهم يملكون النار[3]، والأسد كذلك هو إله الخصب ورمز الشمس

(1) جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 191.
(2) المرجع نفسه، ص 202.
(3) ينظر جيمس فريزر<< أساطير في أصل النار>>،تر(يوسف شلب الشام)،دارعلاء الدين، سوريا،ط2 ،2008،ص 117.

وحامي العرش، ولا نستغرب إذا وجدناه حامي النار، فهو رمز القوة المقدس فوحده - يعتقد الأفارقة - يمتلك النار ويحميها لكونها مقدسة ، وترمز للنور الإلهي . وقد اعتقدوا قديما أن شعلة النار قريبة من الروح، حيث يعتقد ج ب بايارد أن << للنار معنى عميق متعلق بالروح البشرية، روح الحياة المتطهرة، أي الحياة الروحانية >>.[1]

بالرغم من هذا الاعتقاد المتجذر، فإن الإنسان استطاع أن يحصل على النار ولو كان عن طريق سرقتها من هذا الحامي القوي، فالإنسان كان أذكى وأدهى من ملك الغابة وباقي الحيوانات، ويكمن إيمان هذه القبائل في هذا التأصيل للنار، ومع هذا فقد استخدموا اللوحتين (الذكر والأنثى) وطريقة الحك للحصول على النار.

إذا كانت قبائل البيرغداما ترى أن أصل النار جاء من عند الأسد، فإن قبيلة البائيلا، وهم قبيلة من روديسيا الشمالية ، تعتقد أن الفضل في وجود النار على الأرض يرجع للزنبور البناء* ،[2] الذي أحضرها من عند الإله الذي يقطن في السماء ، فحين كان في طريقه إلى الإله ليحضر النار رافقه الصقر، والعقاب، والغراب.

والعقاب هو رمز الإعلاء الروحي، والسمو، والقوة،[3] وكذلك الصقر، أما الغراب فهو مرتبط بفكرة الرسول، وهو رمز شمسي، ولهذا لم يكن تطوعهم للذهاب مع الزنبور محض صدفة بل هو نتاج لهذه الصفات التي يتصفون بها. وقدر للطيور الثلاثة أن تنفق وهي في طريقها إلى الإله، وتسقط عظامها تباعا بعد كل عشرة أيام، والعدد عشرة يرمز لعدد أوامر الإله، وعدد مقدس للألوهة وهو العدد الكامل.[4]

بعدها اضطر الزنبور لامتطاء الغيوم ليكمل طريقه وللغيم كذلك رمزية الرسول[5] ومعنى هذا أن كل المعطيات تسهل لحصول المخلوقات على النـار، رغم صعوبات الطريق إلا أنها تشير

(1) فيليب سيرنج << الرموز في الفن – الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 342.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 118.
* الزنبور البناء: حشرة بروميثيوس البائيلا بأجنحته الزرق النيلية وبطنه الأصفر وساقيه السوداوين والبرتقاليتين، كثير التواجد بأفريقيا الوسطى، يبني عشه الطيني في المداخن وعلى الجدران وحتى الكتب.
(3) ينظر المرجع نفسه، ص 17.
(4) ينظر المرجع نفسه، ص 467.
(5) ينظر المرجع نفسه، ص 349.

جميعا إلى الحصول على المبتغى، ويظهر ذلك جليا من خلال نزول الإله حيث الزنبور وإعطاءه مسألته، وتكريمه بجعله زعيما على كل الحيوانات، لأنه تميز بالتضحية وروح الشجاعة، حيث سهل تكاثره من خلال حشرة النغونغوا.

ولأن الزنبور يبني أعشاشه فوق المواقد، فقد اعتقدت الشعوب الأفريقية أنه فعل ذلك استجابة لأوامر الإله، وأنه لا يتكاثر بالطريقة المعروفة، بل بتحول حشرة النغونغوا إلى زنبور. ولكن تفسيرات العلماء تبين بأن الزنبور يبني بيته فوق المواقد، وعلى الجدران ... ثم يضع بيضه ومعها دودة صغيرة يغلق عليها العش، وعندما تفقس البيوض تأكل الحشرات التي كانت خدرة لم تمت، وعندما تكبر الحشرات التي فقست تخرج للعالم، فيعتقد الأفارقة أنها حشرة النغونغوا تحولت إلى زنبور.

ونجد رواية مختلفة حول خلق النار وأصلها لدى قبائل **الباسونغومينو**، حيث تقول أنهم حصلوا على النار من خلال صنعهم لقفف صيدهم، التي استعملوا فيها قشور بلح الرافيا، بينما كان أحد الرجال يثقب قفته باستخدام عصى مذببة اندلعت النيران في القفة،[1] منذ ذلك الوقت وهم يهتمون بأشجار الرافيا. وتعتقد قبائل الشلوك لذين يقطنون منطقة النيل الأبيض، أن النار أتت من بلد الروح الكبير(بان جوك)، وقد كانوا يقومون بتسخين الأكل تحت الشمس فالجزء العلوي منه يأكله الرجال بينما السفلي هو من نصيب النساء.

(1) ينظر جيمس فريزر<< أساطير في أصل النار>>، تر (يوسف شلب الشام) ، ص 121، 122.

2- التأليه والتقديس :

إن المقدس على العموم << هو الأماكن والشخصيات والأعمال التي يجب احترامها من قبل المجتمع ليقوم هذا الأخير بطقوس دينية يعتقد فيها أنها موصولة بالآلهة >>[1] وقد ارتبط المقدس بالطقس الذي هو<< مجموعة من الإجراءات والحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية، وتهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية >>[2] الطقوس التي نشأت من أجل التعامل مع القوة السحرية هي أول أنواع الطقوس، و<< تهدف إلى التأثير على القوة الحيادية وتوجيهها لتحقيق غايات معينة >>[3].فالسحر طالما ارتبط بالطقس، والطقس يؤدي بالضرورة إلى ما يعرف بالمقدس، وهذا الأخير مرتبط ارتباطا وثيقا بالدين الذي ينبني على كل ما هو مقدس.

والمقدس في قاموس اللغة العربية نجد أنه << يعني المبارك، والبيت المقدس: بيت مقدس - والنسبة إليهما: مقدسي، والكتاب المقدس عند اليهود >>[4]. إن السلوكات والممارسات المتبعة من أجل تجسيد اعتقاد معين هي التي تدفع إلى خلق التابو (المحرمات) أو الأفعال المحرمة والتي تؤسس لظهور الطقس تلقائيا. فالمعتقد والمقدس صنوان لا يفترقان.

من هنا ظهر ما يعرف بالطوتم، << والطواتم يراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه وقد يكون الطوتم حيوانا أو نباتا، وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الأحلام اللذيذة، وصاحبه يحترمه ويقدسه، فإذا كان حيوانا فلا يقدم على قتله، أو نباتا فلا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمنة الشديدة>>[5].

ومن الطواتم النباتية نذكر: نبتة القرعة أو اليقطين، وشجرة الخيزران، والنخيل والسنديان وشجرة جوزالهند...الخ، ومن الطواتم الحيوانية نذكر: الثعبان، والتمساح والثور، والأسد...الخ

---

(1) فراس السواح << الأسطورة والمعنى>>، 125.
(2) المرجع نفسه، ص 142.
(3) المرجع نفسه، ص 130.
(4) مجمع اللغة العربية<< المجمع الوسيط>>، مصر، ط 4 ، 2004 ، ص 769 .
(5) محمد عبد المعيد خان<< الأساطير والخرافات عند العرب>>، دار الحداثة، لبنان، ط 4 ، 1982 ، ص 74.

ومن الطيور: البومة، والحدأة والبلشون، أما الطواتم غير الحية فهناك النار، والسحب والكرسي ...الخ، فكل من هذه الطواتم تحترم وتقدس.

أ- تقديس الناس:

لقد عرف عن الإنسان الأفريقي البدائي تقديسه لكل متحرك وساكن، ولكل ما يرى فيه قوة وغموضا سواء أكان حيوانا أو نباتا أو ظاهرة طبيعية ما، ولم يكن الإنسان ذاته بمنأى عن هذا التقديس، فقد ثبت عن القبائل الأفريقية البدائية تقديسهم لأشخاص معينين تتوفر فيهم العديد من الصفات التي تؤهلهم لينالوا التبجيل والتعظيم الذي يصل في كثير من الأحيان إلى حد التقديس والتأليه.

فأسطورة **زعماء الرماح** خير دليل على تقديس الفرد الأفريقي البدائي للإنسان الذي يتمتع بقيمة عالية في المجتمع، فأيول ابن النهرجاء من اتحاد المرأة بالنهر المقدس*[1] الذي غالبا ما أله فالنهر ألوهة مطلقة و<< الأنهر مثقلة جدا بالمقدس >>[2]، ومن هنا اكتسب أيول قدسيته التي ترسخت فيما بعد من خلال الصفات التي تميز بها.

فقد عرف منذ صغره بقدرته على حمل الرمح - الذي يرمز للكهنوت - وهو في المهد والرمح هبة من النهر الذي يعتقد أنه والده، وبالتالي فقد ورث عنه صفة القوة والألوهة وكذا التقديس، ومن خلال تمتعه بالقوى الخارقة الموجودة لدى زعماء الرماح الذين كانت تتحقق نبوءاتهم، وقد عرف فيما بعد بأيول لونغار نسبة للثور الذي كان يصاحبه عند مغادرته القرية بعد القحط الذي أصابها ليتوجه إلى أرض الميعاد، وفي هذا تشبيه واضح بالرسل الذين كان بعضهم يغادرون متوجهين إلى أرض الميعاد التي يتوقع فيها النجاة والخلاص.

لكن لقب لونغار الذي يعتقد أنه يعود لثور هناك رواية أخرى تقول أن لونغار كان أول

(1) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 150 .
* هي أسطورة تتطابق لحد بعيد مع أسطورة ابن النهر وكهنة المعابد.
(2) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس)، ص 356 .

شخص يظهر من النهر وهو الابن البكر للإله وكان مزيجا من الروح والجسد، ويعتبر الإنسان الأول الذي أوجده الإله على الأرض وهو مصدر الحياة عليها[1].

وقد جاءت هذه الرواية لتدعم ما ذهبنا إليه من قدسية أيول، ويزيد في تأكيده الصراع الذي دار بينه وبين أحد أفراد قبيلته وتغلب فيه أيول ثم منحه رماحا للصيد وأخرى للحرب، وثورا عظم فخده مقدسا، والأهم من هذا أنه بشرهم بعبادة الآلهة الأخرى، ليغادرهم إلى حيث لا يجدونه، وما كان منهم إلا أن قدموا له فروض الطاعة والتبجيل والقداسة، وساد اعتقاد بينهم أنه سلفهم الأول الذي يرعاهم ويحميهم.

وإلى جانب هذه الأسطورة هناك العديد من الأساطير التي رويت عن تقديس الإنسان الأفريقي البدائي للبشر الذين يعتقد انحدارهم من أصل ألوهي، كما نجد أن الطبيب - الساحر- يلقي التبجيل والتقديس والمكانة العالية في حياته وبعد مماته، فأهل القبيلة يرون فيه المنج والمخلص من كل ما يصيبهم وقبيلتهم من أذى أو كوارث على اعتبار أن له << قدرات هائلة في التحكم في حركة الطبيعة، والسيطرة عليها، كما تصور زيفا أنه له قدرات فوق - الطبيعة (ما وراء الطبيعة)أي أن له قوى روحية >>[2].

وكون الإنسان الأفريقي البدائي كان يرى في<< هؤلاء الأشخاص الربانيين القدرة على امتلاك المعرفة الربانية لفترات محدودة... وبأن هناك أشخاص معينون يتقمص فيهم الله بصفة دائمة >> فإنهم بالتالي يتمتعون عن غيرهم بقدرات هائلة تمكنهم من صنع المعجزات، وأن لهم معرفة غير محدودة وهذا ما يؤهلهم لأن يكونوا مقدسين عن استحقاق. كم نجد عند بعض القبائل الأفريقية البدائية << طبقة من الرجال تعبد ويسجد لها على أنها آلهة وارباباً، اثناء حياتهم الدنيوية، وتعتقد الأهالي هناك بأن لهم قوى إلهية روحية عظيمة... فيقدمون لهم القرابين البشرية لكي يتجنوا بطشهم ويطلبوا عفوهم ورضاهم ورحمتهم >>[3][4].

---

(1) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 153 .
(2) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر >>ج1، ص 113.
(3) المصدر نفسه ، ص114،113.
(4) المصدر نفسه، ص114.

وتقول أسطورة من أساطير **المحافل السلفية** أن زعيم قريتهم كان رجلا مسنا يمتلك مراع وأراضي واسعة ومعها السلطة المطلقة عليهم، وكانت قبضته محكمة فلا يكسر له أمر وحدث وأن مرض مرضا غريبا وتغير صوته فعزل في الغابة إلى أن مات، وخوفا من ارتباك القبيلة وتذبذب أحوال أهلها أخفوا أمر موته، واتفق حكماؤها على تقليد صوته من خلال رجل لتستمر أحوال القبيلة جيدة، وقد شاع أن الزعيم انتقل إلى الخلود بحكم قواه الخارقة،[1] فهو صاحب قوى علوية << أي انه يمتلك " قوى فوق الطبيعة " وينظر إليه على أنه شخصية مقدسة >>.[2]

والملاحظ من خلال ما تقدم ذكره من الإنسان الأفريقي البدائي لا يضع حدا فاصلا بين الإنساني والمقدس، ولهذا يرى أن فئة معينة من البشر يمتلكون القدرة على بلوغ مرتبة الآلهة << ليس فقط بعد الموت ولكن في حياتهم الدنيوية، وذلك من خلال سيطرة الروح القوية (القوى العلوية أو قوى ما فوق - الطبيعية) على كيانهم البشري المحدود جدا بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة >>.[3] وهكذا لقد تمتعت هذه الفئة المبجلة بقدسية لا غبار عليها استمرت إلى وقت غير محدود.

ب - تقديس الحيوان:

لقد عرف عن الإنسان الأفريقي تفاعله الكبير مع الطبيعة على مر السنيين، هذا التفاعل لم يكن على الصعيد المادي فقط، بل تعداه إلى المستوى المعنوي والروحي، فأقام علاقة وثيقة مع النباتات والأشجار وجعل منها المقدس، وحرم على نفسه الاعتداء عليها بالقطع أو الكسر إنه يحس باتحاد روحي بينهما، وهذا لم يمنعه من ربط أواصر الاتحاد الروحي مع العديد من الحيوانات، التي استحوذت على احترامه وتعظيمه، فقد وهبها صفة القداسة وتعهدها بالرعاية وعاهدها على الحماية.

وعلى هذا الأساس ظهرت لدى الشعوب الأفريقية أساطير وخرافات عديدة توثق لهذه القداسة، وتفسر الدوافع الكامنة وراءها، حيث تعتقد قبائل الفون FON أن الأفعى كان لها فضل

---

(1) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث >>، ص 39.
(2) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر >> ج1، ص 104.
(3) المصدر نفسه، ص 107.

كبير في ربط الأرض أثناء الخليقة، لقد قامت بالالتفاف على الأرض حتى يتمكن الإنسان من الاستقرار، وذلك من خلال حراشفها والتي يعتقد أنها بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة حرشفة فوق الأرض والعدد نفسه في باطنها، كما تشير أسطورة أخرى إلى أن الأفعى (أفعى الخلود) أقامت أربعة أعمدة في أركان الأرض حتى ترفع السماء، وبعدها قامت بالالتفاف عليها لتسندها[1].

يتبين من خلال الأسطورة أن هذه الأفعى حيرت العقول، وأدهشت الأنظار من خلال حركتها الانسيابية، وألوانها المختلفة، فهي تتواجد في البر والبحر والصحراء... الخ. فنظرا لقدرتها على الالتفاف على نفسها من خلال مرونة جسمها، يعتقد الأفارقة أنها سر بقاء كوكبهم متماسكا.

فالأفعى أو الثعبان من أقدم الحيوانات الفردية وحسب اعتقاد معظم الشعوب أنها سابقة الخليقة، ولأن الثعبان موجود في كل مكان من العالم، ولأنه بأنواع وألون مختلفة فقد كان لكل شعب أسطورة يقدسه بها ويمجده، فالشعوب الأفريقية ترى في الأفعى عونا للإله الذي خلق الأرض، وأوكل لها مهمة الحفاظ على تماسكها من خلال حركتها الرشيقة، حيث أوجدت بذلك مكانا مناسبا ليعيش فيه الإنسان، وطالما بقيت كذلك فالأرض بخير والإنسان كذلك. ويظهر أن الأفعى الملتفة على نفسها تدل على التقاء المتناقضات واستمرار تعاقب المراحل الأساسية السلبية والإيجابية لمصير الكون.

ولأنهم يؤمنون بأنها أقامت أعمدة أربعة لتتمكن من رفع السماء على الأرض، فإنهم يعتقدون بارتقائها إلى مرتبة الألوهية والتقديس<< فالأفعى ديامبو تمثل جبروت الله، لأنه لا يمكن اعتلاء ظهرها فمن يعتليه ينزلق إلى الأسفل >>[2]. والعدد أربعة يرمز إلى الثبات والكمال والشمولية، وعالمنا يتكون من أربعة عناصر، وهي الماء، والهواء، والتراب، والنار << والسماء ترتكز على أربعة أعمدة كما تقول الكوزمولوجيات >>[3].

---

(1) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 3.

(2) سليمان جيغوديوب << حكايات وأساطير أفريقية >>(1)، تر(محمد الدنيا)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 2004 ، ص 7 .

(3) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس) ، ص 451.

وترمز كذلك الأربعة للعصور الأربعة للعالم: عصر الذهب، عصر الفضة، عصر البرونز وعصر الحديد،[1] والتي بدورها يرمز لها بألوان أربعة وهي: الأبيض، والأحمر والأصفر والأسود، ومعروف أن الأفعى لها ألوان رئيسية أربعة وهي سابقة الذكر، وهذا تداخل وتطابق تامين بين ألوان الأفعى وألوان العصور الأربعة وكأن بهذه الأفعى موجودة عبر هذه العصور. فالأفعى تشير إلى اتساع قدرات الاستمرارية والتجدد من خلال رمزيتها القمرية (الأنثوية).

إذا تمعنا في هذه الألوان لوجدنا الأحمر هو لون النار والدم، ولون العشق الإلهي والحب البشري، كما يرمز إلى الكائنات والأشياء المشؤومة.[2] والأبيض هو رمز الطهارة والنصر هو رمز الفرح والسرور،[3] ويرمز كذلك إلى الحداد في أفريقيا السوداء، أما الأسود فهو رمز الحداد عند باقي الشعوب وغالبا ما يكون فأل شر، ورمز للشيطان وهو رمز الظلام والليل، كما يشير إلى ذلك باشلارد.[4] والأصفر سبق وأشرنا إليه. وكأن الأفعى تجمع بين كل هذه المزايا والصفات، التي تجعل منها محط تقديس وتبجيل من طرف كل الشعوب، ولدى الأفارقة على وجه الخصوص.

بالإضافة إلى هذه الأسطورة هناك أساطير أخرى تقدس الثور، ومن بينها أسطورة **الصبي موروبيل والمقعد** من قبائل جاغا Chaga بكينيا.

يبدو أن السحر لن يراوح الأساطير الأفريقية فهو يقف خلف معظم الأحداث الواقعة فيها فالصبي موروبيل عندما لقي اللوم من أمه بسبب سرقته لكرسي والده مارس سحره على الكرسي، وانتقل به إلى السماء حيث القمر،[5] وممارسة الصبي للسحر يدل على تفشي هذه الظاهرة في المجتمعات الأفريقية بين جميع الفئات، أما فيما يتعلق بالكرسي فسنتناوله بصفة مفصلة في مطلب تقديس الأشياء.

خلال رحلة الصبي التي توقفت عند مراحل عديدة كانت قبيلة معينة لا تملك النار، لكنه قام

(1) ينظر المرجع السابق، ص 451.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 425 ، 426.
(3) ينظر نفسه، ص 428.
(4) ينظر نفسه، ص 429.
(5) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية>>، تر(حسن هيثم الطريحي)، ص 96 ،97 .

بمساعدتها على امتلاكها من خلال حك قطعتين من خشب. والأفريقي البدائي طالما تساءل عن أصل النار، ونسج حولها الخرافات والأساطير، فقد حيرت فكره وشغلت ذهنه البسيط وحصوله على قبس من نار كان بمثابة خارقة، وأمر لا يقدر عليه إلا أصحاب القوى الخارقة كالأرباب والأرواح، والسحرة والعرافين.

قابل أهل القرية صنيعه بالتبجيل والتعظيم، فرفعوا قدره إلى مرتبة السحرة، فتحول حال موربيل إلى الأفضل، ورزق ذرية كثيرة. فكر في العودة إلى كنف والديه فكلف الطائر المحاكي ليذيع الخبر، وهذا الأخير هو مقدس لدى الأفارقة، كونهم يعتقدون بإمكانية سفره بين السماء والأرض.

ولأن طريق موربيل كان شاقا، فقد تطوع ثور لحمله بشرط أن يعاهده على عدم ذبحه وكان له ذلك، ولأن والداه لم يلتزما بهذا الوعد، وقاموا بذبح الثور وإطعام لحمه لابنهم فقد لقي حتفه بابتلاع الأرض له، وهذا ما يؤكد تقديس الأفارقة للثور، فالأفريقي يؤمن بوجود عهد بينه وبين الثور الذي قدم خدمة للإنسان، ولأن المكان الأصلي الذي جاء منه الثور هو السماء فهم يلتزمون بعهدهم فيلقى منهم التقديس.

لقد قدس الإنسان الأفريقي العديد من الحيوانات سواء البقر، أو الخرفان، أو الثيران ...الخ كما ربطت الشعوب الأفريقية بين أصل الإنسان وبعض الحيوانات، وآمن بأن الإنسان تنحدر أصوله منها، مثل الحصان، والخنزير، والتمساح، ومن ثم حرموا أكلها، واعتقدوا أنه من يفعل سيصاب حتما بمرض خطير يودي بحياته.

فقبائل شلك تروي أسطورة قريبة جدا من سابقتها، حيث تعتقد أن مؤسس القبيلة وبيت شلك، هو الملك نيكانغ ابن الإنسان الذي هبط من السماء، وأنه تحول إلى مخلوق على هيئة عجل، وقد اقترن هذا المخلوق بمخلوق مائي على هيئة تمساح فكانت ذريتهم الإنسان، ولهذا فهم يؤمنون بأن التمساح هو راعي الولادة وحامي الأطفال.[1]

وعند القبائل في وسط أفريقيا<<عندما تهدد حشود التماسيح الجائعة، أهالي المنطقة بالهلاك

(1) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث >>، ص 27.

يخبرهم ساحر القبيلة (الرجل - الطبيب) أن سبب الكارثة التي تهددهم هو أن أمير التماسيح قد عشق فتاة قبيلة معينة، وأن عليهم إجبار والد الفتاة أن يزوجها من أمير التماسيح فيقوم... ويلقي بالفتاة وسط عاصفة من الغناء والتهليل إلى سرب التماسيح... لكي يرضى عنهم أمير التماسيح >>.(1)

وتدعم أسطورة **ابن التمساح** لدى قبائل ملاغسي كيف انحدرت أصولهم من التمساح الذي تزوج من امرأة وعاشت معه، ثم أنجبت طفلين من خلال اقترانها برجل آخر، ومنذ ذلك الحين أصبح أحفادها يعتقدون بانتمائهم إلى التمساح (السلف)، فحرموا قتله أو اصطياده.(2)

كما يؤمن أهل هذه القبيلة بأن جثة الميت تتحول إلى تمساح، فبعد قيام الرجل المسن من أهل القبيلة بدق مسمار في جبين الجثة حتى لا تغادر المكان هاربة لمكان آخر، يقومون بدفنها حينذاك فقط يختفي المسمار فتصبح بإمكانها الذهاب أينما شاءت، لكنها تفضل العودة إلى مقبرة العائلة، حيث تستقبلها أرواح السلف (الأجداد) عندها تتحول جثة الرجل وتصبح على شكل جسد تمساح، فيقوم الأهالي بتقديم قربان ثور كل سنة.

ومن الأساطير التي تقدس الحيوانات أسطورة **الكلمة**، حيث إلى جانب تقديسها للشجرة التي تعتبر مركز العالم، ومبعث الحياة والخلق، فإنها تقدس الخرفان، فالخروف في الأسطورة كان طويل الذيل حاد القرون، وهذا دليل على قوة البطش، والفتك، حيث قتل الكلمة وأصبح إله الكون، وسيطر على كل المخلوقات، وقد خاض معارك طاحنة مع أشجار الملانجزي Mlanjzi التي كان يرى فيها المنافس فهي بذاتها مؤلهة ، والخروف هو رمز البعث والألوهية، وهو إله الخصب ورمز القوة الملكية.(3)

لقد كان الخروف أو الكبش يعبد من قبل بعض القبائل الأفريقية، والأسطورة تدل على ذلك، ولهذا فإنه يلقى الاحترام والتقديس لدى هذه القبائل. وتعتقد قبائل داغومبا Dagomba التي تقطن توغو << بأنه يوجد في الشمس مركز للتسوق يمكن مشاهدته عند ظهور هالة حول

(1) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر >>، ج1، ص 173.
(2) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي) ص 96،97.
(3) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس) ، ص 68.

الشمس، ويعتقدون أنه يوجد في هذا المركز كبش، عندما يرفس بقدميه يحدث الرعد وعندما يهز بذيله يحدث البرق، ويعتقدون أن المطر المتساقط عليهم من ذيل الكبش وأن الرياح تهب من جراء دوران الكبش حول مركز التسوق >>.[1]

وما يعزز هذا الطرح أسطورة الإله الخروف لدى قبائل سونغاي Songhay . فزعيم القبيلة الذي أراد اصطياد السمك من النهر، كتب له أن رأى الإله في كوخه وكان على هيئة خروف، ثم تحول إلى طفل صغير بعدما تلا الزعيم تعاويذه السحرية، لكن هذا الأخير لقي حتفه بسبب ذلك.[2] هذه الأسطورة تكرس تأليه الخروف، فقبائل سونغاي تعتقد بوجود إله النهر متمثلا في الخروف، وهي بالتالي تقدس كليهما (الخروف والنهر).

يثبت هنا أيضا ممارسة الطقوس السحرية من قبل زعيم القبيلة الساحر، هذه الطقوس كان الغرض منها استرضاء إله النهر حتى لا يلحق به الأذى، ويمنحه صيدا وفيرا، لكن لسوء حظ هذا الزعيم فقد وقع في المحظور (تابو) ، حيث يحظر على الإنسان الفاني مشاهدة الإله الخالد ، وكان الزعيم يعتقد أنه يشاهد الثعبان إله النهر على هيئة صبي، وفيه إشارة إلى إيمان الأفارقة بتعدد الآلهة، وبتأليههم للحيوانات المختلفة كالأفعى والخروف.

ج- تقديس النبات:

لقد دأبت الشعوب الأفريقية على مر السنين على تقديس كل ما يحيط بها، ويجلب لها الطمأنينة والرفاهية، ولم تكن النباتات استثناء عن القداسة، فقد عرف عن القبائل الأفريقية تقديسهم لعدد من النباتات التي تتواجد بمحيطهم، ولعلى أكثر هذه النباتات أهمية وقدسية بالنسبة لهم هي القرعة العالمية أو ما يعرف باليقطين فالأهالي يقومون بتقطيعها إلى نصفين ووضعها في المعابد حيث توضع بها القرابين الصغيرة، كما تزين بنقوش لكائنات حية مختلفة.

وتقول الأسطورة لدى قبائل **داهومي** أن الكون مدور تماما كالقرعة الكبيرة، والأفق حيث

(1) المصدر السابق، ص 94.
(2) ينظر المصدر نفسه، ص 117.

يلتقي السماء والبحر يكون في مكان التقاء الشفتين: العلوية والسفلية، وأن الأرض مسطحة تطفو في الكون كما تطفو القرعة الصغيرة داخل القرعة الكبيرة، وتؤمن هذه القبائل بوجود الماء في الأرض، بين الشمس والقمر وباقي الكواكب تصبح في القسم العلوي للقرعة،[1] وقد اختلفوا في أمر الموت فمنهم من يعتقد بوجوده تحت الأرض المأهولة بالسكان.

القرعة أو اليقطين هي نوع من الخضر تشبه في مظهرها الخارجي إلى حد كبير البطيخ الأصفر، وتمتلك قشرة صلبة يستخدمها الأفريقي كإناء للماء، في حين النواة الداخلية تستخدم كخشخيشة للعلب الأطفال. وإذا عدنا إلى تاريخ اليقطين هو لا محال ضارب في القدم، ويرجع وجوده إلى البدايات الأولى للخليقة، حيث نجد النبي يونس عليه السلام عندما التقمه الحوت ولفظه، ونبذ في العراء نمت عليه يقطينة عظيمة كانت السبب في نجاته، فقد كان يأكل منها ويحتمي بها.

والأرجح أن هذه الرواية وصلت إلى الشعوب الأفريقية القديمة على شكل أساطير جعلت خيال الأفارقة يعطيها طابع القداسة، بحيث ربط بينها وبين الكون من حيث الشكل والدور فهي رمز الحياة، ولونها الأصفر المائل للبرتقالي لون شمسي حار سيكون رمز قوة ذكية وحكمة وحب إلهي، فهو لون الشمس والآلهة المرتبطة بها، وهو رمز الذهب وهذا الأخير معدن أصيل غير قابل للكساد أو التحول فهو إذا رمز الخلود ولون الزعفران وشيفا المقدس.[2]

ويبدو أن تقديس الأشجار وعبادتها لم تكن حكرا على الشعوب الهندوأوروبية، بل تعدتها إلى الشعوب الأفريقية البدائية، التي ترى أن الحياة كامنة في جوهر وجود الطبيعة والأشجار والنباتات لها روح مثل الإنسان ، فإذا كان يعتبر قتل حيوان أو إنسان ما هي جريمة وخطأ كبير، فهو يعتبر قطع شجرة البلوط أو شجرة جوز الهند جريمة كبرى لا تقل بحال من الأحوال عن جريمة قتل الإنسان أو الحيوان المقدس .

(1) ينظر جيوفري بارينذر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 31.
(2) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 426 ، 427.

ففي شرق أفريقيا يؤمن الأهالي << أن كل شجرة لها روح كامنة فيها، خاصة شجرة جوز الهند فلها روحها الكامنة فيها، ويعتبر الأفريقي أن تدمير شجرة جوز الهند خطيئة كبرى لا تقل بحال من الأحوال عن خطيئة قتل الأم، إذ أن هذه الشجرة تهب وتعطي الحياة والغذاء للناس جميعا مثل الأم التي ترضع وليدها حليبها >>.(1)

فشجرة جوز الهند تحوي ثمار جوز الهند التي يوجد بداخلها مشروب حلو المذاق، يشربه الإنسان الأفريقي فيروي ضمأه، وهو في الأيام الحارة خير مشروب، وأفريقيا معروفة بجوها الحار، ولهذا فهو مقدس لديه كقداسة الأم وحليبها.

وفي غرب أفريقيا ينظر إلى شجرة القطن الحريري العملاقة نظرة قداسة، فهي شديدة الارتفاع والطول ما يجعل ظلها يغمر ما حولها، ولهذا فإنهم يعتقدون أنها مركز العالم، وأن الإله أو الرب يتخذ منها كيانا له، وبهذا فالأهالي في كل من السنغال حتى النيجر يحيطونها بمهابة وقداسة خاصين وهم يؤمنون بأن قداستها من قداسة الرب، لأن روحه تسكن فيها.(2)

ويلاحظ عند القبائل الأفريقية في منطقة ساحل العاج << يطلق الأهالي هناك اسم هانتين على الروح (الرب) الذي يسكن فيها، وتعرف الشجرة التي يسكنها الرب بأنها محاطة ومطوقة بحزام من أوراق النخيل، كما توجد الماشية المذبوحة المقدمة كقرابين عند جذعها وأحيانا نجد القرابين البشرية المقدمة لها مربوطة في جذع الشجرة، ولا يجرؤ الحطاب أو أي شخص من الأهالي على لمس شجرة القطن الحريري >>.(3)

وفي حالة ما إذا اقترب الحطاب من الشجرة وقطعها أو قطع أي غصن منها، فإنه يجب عليه تقديم قربان حتى تسامحه روح الشجرة وتعفو عنه، وقد جرت العادة تقديم دجاجة أو زيت النخل، وذلك كقربان حتى يطهر نفسه من ذنبه وجريمته التي اقترفها، وفي حال إحجامه عن هذا التطهير فإنه يتعرض لا محالة إلى العقاب الذي قد يكون بالموت.

ويعتبر النخيل لدى الشعوب الأفريقية ذو أهمية كبيرة ، فهو يرافق المقدس دائما، وهي عند

(1) محمد عبد الحميد محمد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1، ص 130.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 131.
(3) المرجع نفسه، ص 131.

سكان ساحل العاج ترمز إلى الصياد من قبائل ديدا، فعندما يتعرض الصياد للموت، ولا يعثرون على جسمه فإنه يقومون بدفن غصن شجرة نخيل عوضا عنه.

تعتقد قبائل باسوجا في وسط أفريقيا أن قطع الأشجار في الغابة قد يؤدي إلى تدمير القبيلة وجلب الكوارث عليها وذلك نتيجة لغضب الروح الكامنة فيها، وإذا ما اضطروا إلى ذلك فإنهم يطلبون النصح من الساحر- الطبيب الذي يملي عليهم بضرورة ذبح دجاجة وجدي كقربان يدفع عنهم غضب الأرواح الكامنة فيها. وأثناء قيام الحطاب بقطع الشجرة، فإنه يضع فمه في مكان القطع حيث الفأس، معتقدا بذلك أنهما يصيران إخوة كإخوة الدم - أي روح الشجرة والحطاب - وبهذا لن يتعرض لأي مكروه.[1]

فالشعوب الأفريقية تعتقد أن الشجرة هي كائن حي مثله مثل الإنسان والحيوان، لها روح وهي تتألم في حال تعرضها للقطع، ففي وسط أفريقيا يمتنعون عن قطعها لأن الساحر- الطبيب أخبرهم بأنه يسمع الأشجار وهي تصرخ وتتأوه بسبب الألم الذي تعانيه بعد قطع أحد أغصانها أو ضربها بالفأس .

والحال نفسه لدى قبائل مارافص في جنوب أفريقيا، التي تعتبر أرض مقابرهم مقدسة وبالتالي فالأشجار الموجودة بها هي مقدسة، فيمنع قطعها وذلك راجع لإيمانهم بأن روح الأجداد تكمن فيها. وفي غرب أفريقيا لدى قبائل بيلي فإنهم إذا اضطروا إلى قطع شجرة فإنهم يقومون بطقوس سحرية، ويعتقدون من خلالها أنهم يستحضرون روحها لاستسماحها من أجل الخروج منها، وهذه الطقوس تتم بواسطة الرجل الساحر الذي يغري روح الشجرة عن طريق وضع زيت النخيل تحتها.

أما في الكونغو فإنهم إذا عزموا البناء مكان الشجرة فإنهم << يقومون بذبح جاموس أو خنزير فدية وقربانا إلى الروح المقدسة التي تقطن في الأشجار، وهكذا يجتنبون الضرر الذي

(1) ينظر المرجع السابق، ص 131 ،132.

سيقع عليهم من قبل أرواح الأشجار، وإذا كان البناء لغرض إقامة معبد فإنهم يلوثون جدران المعبد بدم الأضحية الربانية المقدمة لروح الغابة، ويذبحون الجدي على سطح المعبد >>.[1]

وقد لقيت شجرة البلوط لدى القبائل الأفريقية العناية والاهتمام والقداسة، فهم يجرمون من يقطعها أو حتى من يقوم بتقشيرها أو قطع غصن منها، فهي تتمتع بالقداسة حالها حال شجرة القطن الحريري، والإنسان الأفريقي ينظر إليها نظرة تعظيم وإجلال لطولها وكبر حجمها حيث يعتقدون أن روح الآباء والأجداد تقطن فيها.

غالبا ما ترمز الشجرة إلى << الصيرورة >>[2]، فهي تمثل بالنسبة للأفارقة الاستمرار والارتباط والانتماء للسلف، وهي مختصر كوني وكون عمودي وهي بالتالي تجمع كل رموز الكلية الكونية << فالعمودية تعطي للشجرة بعدا بشريا، وتجعلها رمزا لمصغر الكون العمودي الذي هو الإنسان... وتبدو الشجرة وكأنها مجمل نفسي وعضوي للشخصية الإنسانية: فجذعها هو الذكاء، وتجويفها الأعصاب وأغصانها المشاعر، وثمارها وأزهارها الأعمال الحسنة والسيئة >>.[3]

فالشجرة إذن برمزيتها هذه تمثل الاستمرار والبقاء للكون وللبشر، كما تترجم حقيقة العلاقة بين الأفريقي والإله الخالق.

د - تقديس الأشياء:

يبدو أن التقديس لم يتوقف - عند الأفارقة - على النبات والحيوان، بل تعداه إلى تقديس الأشياء بصفة عامة، لا يقتصر هذا التقديس على الكرسي (العرش)، بل تعداه إلى أشياء عديدة منها النهر، فمعظم الشعوب ترى في النهر منبع الحياة، والأفارقة بصفة خاصة، حيث رويت عدة أساطير وخرافات تكرس هذه النظرة منها أسطورة **ابن النهر وكهنة المعابد** لقبائل الدينكا التي تقطن أعالي النيل.

---

(1) المرجع السابق، ص 136.
(2) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أنساقها أساطيرها >>، تر(مصباح الصمد)، ص 320.
(3) المرجع نفسه ، ص 322 ، 323.

الأسطورة تبين العلاقة المتينة بين الإنسان الأفريقي، وبين النهر، الذي ترى فيه الإله المانح للحياة والاستمرار، والملجأ والمنجى عند كل أزمة وضيق. كما لم تهمل الإشارة إلى علاقة الإنسان الإفريقي بالحيوان[1](الذي سبق وتناولته بالدراسة)، وذلك بحكم وجودهما في محيط معيشي واحد. وقد ذكر الأسد بصفة خاصة لأنه يلقى مهابة وتقديسا بحكم سطوته وقوته، فهو رمز الشجاعة والقدرة العالية ويرتبط بالموت والشمس المحرقة، فهو الموت المفترس، وقد أكدت **كومهيرسيلفان** Comhaire Sylvain بعد الدراسة التي قامت بها على أكثر من 250 أسطورة من مختلف العالم، ومنها أفريقية أنه في خمسة وأربعين أسطورة يظهر الشيطان على هيئة حيوان مفترس كالأسد واللبؤة.[2]

وإذا عدنا إلى موضوعنا الأساس وهو النهر الذي يحتل مكانة كبيرة في حياة الشعوب الأفريقية، حيث تحتوي البلاد الأفريقية على أنهر لا حصر لها تمتد على طول الأراضي ولأن الماء أساس الحياة، والنهر سر الحضارة، فإن هذه الشعوب أدركت منذ الأزل أنه لا حديث عن البقاء والاستمرار بعيدا عنها، فنجد معظم القبائل الأفريقية تقطن بمحاذاة الأنهار ليكون لها مصدرا من مصادر الرزق السخية.

هنا نجد أن المرأة التي غدر الأسد بزوجها، وتركها هي وابنتها فريسة للجوع والفاقة، لم تجد ملجأ لهما سوى النهر الذي راحت تشكو له كربتها، هذا الأخير الذي لم يخذلها، ومن أجل مساعدتها أوحى لها بالغوص في مياهه لتحمل منه، وترزق بولد يكون لهما خير سند، وأشار عليها بعدة طقوس تتبعها ليتم ذلك. والنهر هنا يمثل الإله الحاني على عباده، فقد ثبت عن الشعوب الأفريقية تأليه الأنهر وعبادتها، واللجوء إليها عند الحاجة من خلال القيام بطقوس سحرية معينة، وتقديم القرابين استرضاء لها وطلبا للعون.

فكانوا يلقون بفتيات عذارى حسناوات في النهر كقربان له، حتى يغدق عليهم ببركاته الإلهية ويمنحهم من خيراته فهو رمز<< الألوهة المولدة للحياة والخصب >>.[3] ومن الأمثلة على

(1) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية >>، ص 61.
(2) ينظر جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 63.
(3) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي الصمد) ، ص 355 .

ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن قبائل أكليليو التي تقطن شرق أفريقيا، كانت تعبد رب نهر معين وكانوا يزوجونه كل عام من فتاة عذراء صغيرة السن، وكان الساحر غالبا ما ينوب عن لإله أو الرب في هذا الزواج، ويطلقون على الأبناء من هذا الزواج " أبناء الإله أو أبناء الرب" إذن << ليست الينابيع وحدها هي التي غالبا ما ألهت، وإنما أيضا النهر والجداول >>.(1)

ولأن النهر هو مانح الرزق والغذاء بما يحويه من خيرات، فإن ابن النهر الذي ولد كان يحمل بيده رمحا كبيرا لا يقوى الرجال على حمله، ومعروف عن الأفريقي أنه لا يتخلى عن رمحه وقوسه، فبه يصطاد فرائسه من النهر والغابة، وبه يدافع عن نفسه في الحروب ومن المعتدين فهو والرمح صنوان لا يفترقان، فالسلاح الذي يحمله البطل هو رمز للقوة وللنقاء وقتاله مع ابن القبيلة << يأخذ من وجهة النظر الأسطورية صفة روحانية، إذا لم نقل فكرية ذلك لأن الأسلحة ترمز إلى القوة الروحانية والعلائقية >>.(2)

في الأسطورة إشارة كذلك إلى ثور أبيض، والثور مقدس لدى الشعوب الأفريقية، وهو يرمز إلى التغيرات المناخية والكوارث الطبيعية، ولونه الأبيض يرمز للنصر والسعادة والفرح، وقد قرن اللون الأبيض للثور بالسحابة، وهذا لم يكن اعتباطيا فقديما << رافقت السحابة العبرانيين عند اجتيازهم البحر الأحمر... وكانت علامة وجود الرب وسط شعبه: إنها رمز الروح القدس >>.(3)

وابن النهر عبر بشعبه النهر ليصلوا إلى المكان حيث الغذاء، والصيد والحياة، فكان بذلك المنقذ، والمنجي لهم من الهلاك جوعا وعطشا، وقد أغدق عليهم أكثر بالحماية والتعبد حيث وجههم إلى دينهم الذي ارتضاه لهم، فما كان منهم إلا أن عبدوه، وقدسوه وقدموا له طقوس الطاعة والقربان.

وفي غرب أفريقيا << عندما يعود الرّجل إلى بيته بعد غياب طويل، وقبل أن يسمح له بزيارة زوجته، عليه الاغتسال بسائل معين من ينبوع مقدس في المنطقة ، وبعد قراءة الساحر

(1) المرجع السابق، ص 357.
(2) المرجع نفسه، ص 38.
(3) المرجع نفسه، ص 349.

والكاهن، تعاويذه السحرية عليه، وأصبح السائل مسحورا له القدرة على ضمان سلامة المسافر... >>[1]. فإيمان الأفارقة بوجود أرواح شريرة قد تؤذي المسافر وجب تطهيره منها هي التي أوجبت الاغتسال من الينبوع الذي أصبح مقدسا نتيجة لهذه الطقوس السحرية المؤداة.

لقد تعددت أسماء آلهة الأنهار والبحيرات حيث نجد منها: توي Twe، إله بحيرة بوسومتو و" زن " Zin إله بحيرة سونغاي Soghay، وإله البحر أولكون Ol-okun لدى قبائل يوروبا وفي غانا وساحل العاج << يعتبر نهر تانو Tano من الأنهر المقدسة، ويعتقد بأن نهر تانو ابن الإله الأعظم >>[2].

ومن خلال ما تقدم من تقديس للنبات والحيوان، ومختلف الأشياء والظواهر يتبين لنا أن المجتمعات الأفريقية هي مجتمعات طوطمية بامتياز، فيمكن القول أن<< شخصية الأفريقي الزنجي تتشكل من جسم، ونفس، وطوطم، وتعدد الأسماء، وربما كان من الصعب جدا أن نعرف أيا من هذه العناصر الأربعة يؤدي الدور الراجح. في الواقع يمثل كل منها على طريقته جانبا من الفرد. الجسد هو الشكل الجسماني، والنفس هي المعطاة الميتافيزيقية والطوطم هو العنصر الكوسمولوجي، والاسم - الذي يختصرها جمعيا بقوة واقتضاب - هو الجانب الاجتماعي >>[3].

3- السحر في المجتمع الأفريقي:

كثيرة هي مخاوف الإنسان عامة - والأفريقي خاصة ـ من المجهول واللا محدود، وكثيرة هي الأسئلة المطروحة عن الغيب، والتي لا يجد لها إجابة شافية. فالإنسان فطم عل حب الاستكشاف وكسر المعتاد، لأنه دائم الإحساس بالنقص والقصور، ولكونه يعتقد بوجود قوى غيبية لا يستطيع إدراكها، ولا يمكنه الوصول إلى كنهها، ومع هذا فهي بإمكانها السيطرة عليه وإلحاق الأذى به، وبأهله، وبرزقه ما جعله دائم التطلع إلى فك طلاسم المجهول واقتحام دائرة اللا متناهي ، وذلك للسيطرة على زمام الأمور واكتساب قوة يسخرها لخدمته ويهون بها

(1) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر >>،ج1،ص 225.
(2) جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي)، ص 114.
(3) سليمان جيغوب << حكايات وأساطير أفريقية >>، تر(محمد الدنيا) ، ص 11 .

مصاعب الحياة. وبهذا فقد حاول ممارسة أعمال تمكنه من السيطرة على هاته القوى الغيبية فظهر ما عرف بالسحر والشعوذة.

لقد عرف الإنسان الأفريقي بإيمانه العميق والمتجذر بالسحر والشعوذة، بوجود أشخاص بعينهم يمتلكون قدرات خارقة يتمكنون من خلالها إلحاق الأذى بالآخرين أو مساعدتهم، ولهذا لا تخلو الأساطير والخرافات من الروايات التي تدور حول السحر والسحرة والمسوخ. ومن هذه الأساطير ما تناقلته قبائل الهوسا(Hausa) بنيجيريا عن **الرجل والزوجات الثلاث**.

فنجد أن الزوجتين أضمرتا الحقد والحسد والكراهية للزوجة الثالثة، التي استأثرت بزوجهم لنفسها، وللزوج بالدرجة الأولى وذلك لإهماله لهما، فقد حاولتا إلحاق الأذى بهذا الأخير انتقاما لكرامتهما، و تنفيسا عن غيظهما وحقدهما، ويتضح ذلك من خلال طلبهما من الزوجة الثالثة خيانة زوجها بسرقة تعويذته - التي يعتقد أنها تحميه من كل أذى - ومحاولة استدراجها للغابة لتتمكنا من الاستفراد بها، ومعاقبتها بطريقتهما الخاصة، وبالتالي تحققان هدفهما المنشود، ألا وهو التخلص من المنافسة والتمكن من الزوج غير العادل ومعاقبته.[1]

يتضح لنا أن ما قامتا به هو سحر وشعوذة تنمّ عن حقد وحسد وكراهية حيث أن << الشعوذة هي طقوس شيطانية الغرض منها إيقاع الأذى بالآخرين بدافع الحقد والحسد والكراهية، والغبن أو محاولة تغيير قدرإلهي >>.[2] في حين نجد أن << السحر هو عمل التعويذات لمساعدة الإنسان في مروره بضائقة منها: عدم الإنجاب والمرض، وعدم التوافق الأسري أو نيل شيء عزيز المنال، أو عودة غائب، أو حفظ المولود، أو سعة الرزق وغير ذلك من أمور لا تضر بأحد>>.[3]

لقد لجأت الزوجتان للخروج إلى الغابة، والقيام برقصات حول النار، ومعروف عن الأفريقي أداءه للرقص في كل مناسبة، فهو عندما يفرح (زواج، ولادة...) يرقص، وعندما يغضب يرقص فيعبر بذلك عن رفضه للواقع برقصه ، وكذلك عندما يحزن يرقص فتكون

(1) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية >>، ص 46.
(2) المصدر نفسه، ص 45 .
(3) المصدر نفسه، ص 45 ، 46 .

متنفسا له عن ألمه وأساه، والحال نفسه عندما يقوم بطقوس سحرية، فهو يمارس الرقص الذي يعتبر طقسا من طقوس السحر والشعوذة.

هذا الرقص غالبا ما يصاحبه الطبل بإيقاعاته الرنانة، أو مع الترانيم والتراتيل، والتعاويذ وهذا بالضبط ما قامت به الزوجتان، حيث صاحبتا الرقص بالتعاويذ والترانيم والتمتمة بكلمات غير مفهومة، وإلقاء البخور وخرق من الملابس الخاصة بالزوج.

والرقص حول النار بذاتها له رمزية خاصة في عالم السحر ولدى الشعوب الأفريقية، فقد عبدت النار وألهت قديما، وهي مقدسة و << منذ العصور القديمة كان للنار رمزية تطهير وقد كتب فيرجيل في إلياذته (كتاب 4) أن الأرواح طهرت بالنار خلال الطقوس >>[1]. هذا التطهير يحمل معنيين مزدوجين: إيجابي وسلبي، فيما يتعلق بالمعنى الإيجابي فهو الجانب الخير، أما المعنى السلبي فهو يحمل معنى << التخريب، الخوف أو الألم >>[2] وهو الجانب الشرير وهو الموظف في هذه الأسطورة.

كما تعتبر النار مصدر العناية الإلهية للأسرة، وتمثل << رمز الروح >>[3]، وهي بالنسبة للقائم بهذه الأفعال السحرية << ممارسة ذات سمة وقائية ضد هذه النكبة أو تلك >>[4]، ولقد اعتبر كثير من المحللين النفسين من أمثال باشيلارد أن النار تحمل رمزية جنسية ثقيلة فالإنسان الأول أنتج النار من خلال حك قطعتين من خشب، إحداهما تسمى الذكر والأخرى تسمى الأنثى، وفعل الحك أضفى عليه صفة الجنسية، والأفعال السحرية كانت من طرف زوجتان اتجاه زوجهما، إذا فالرقص حول النار لم يأت اعتباطا.

ذكرت الأسطورة أن الزوجتين خرجتا إلى الغابة من أجل ممارسة هذه الطقوس السحرية وهذا أيضا لم يكن صدفة، بل هو نابع عن قناعة واعتقاد، فالغابة بطبيعتها موحشة، عامرة بالوحوش المادية (ذئاب أسود ...) والوحوش المعنوية ، وهذا ما جعل الزوجتان تلجآن للغابة

---

(1) فيليب سيرنج <<الرموز في الفن-الأديان-الحياة>>، تر(عبد الهادي عباس)، ص 338.
(2) المرجع نفسه ، ص 342 .
(3) المرجع نفسه ، ص 340 .
(4) محمد عبد الحميد محمد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1، ص 20 .

فهناك اعتقاد سائد لدى الأفارقة أن الأرواح الشريرة تسكن الغابة، والأدغال والبراري، فقد كان الهدف استحضار هذه الأرواح التي يأمل أن تكون العون، والنصير في إنجاز المهمة وتحقيق الأغراض الدنيئة المرتجاة.

كما أشارت الأسطورة إلى قيام الزوجتين بإلقاء خرق من ملابس الزوج في النار حتى تتمكنا من إتمام الطقوس السحرية بطريقة صحيحة وفعالة. ومعروف عن السحر أن من بين مبادئه العديدة << قانون الاحتكاك، ويعني أن الساحر إذا أحدث تأثيرا في أي شيء مادي فهذا يعني أن هذا التأثير سيحدث في الشخص نفسه الذي كان ملامسا لهذا الشيء، فإذا أحدث تأثيرا في الملابس مثلا التي كانت ملامسة لهذا الشخص، انتقل هذا التأثير إلى الشخص ذاته وإذا أحدث تأثيرا في شعره أو بصاقه أو في أي جزء من جلده، فإن هذا التأثير يحدث في الشخص نفسه >>.[1]

ولهذا يحاول الساحر بطرق ملتوية من أجل الحصول على أجزاء من جسم العدو أو الشخص المستهدف، مثل قلامة أظافره، أو خصلات من شعره... أو قليلا من ملابسه التي كان يرتديها قريبا، من أجل إيذائه وإلحاق الضرر به.

والملاحظ أن الزوجتين الساحرتين قامتا بأفعال منظمة ومرتبة، وفق طريقة تسلسلية معينة متبعة في عملية السحر والشعوذة، هذه الطريقة المتسلسلة يظن أنه إذا اتبعها الساحر والمشعوذ فإنه يتيقن من حصول النتائج المرجوة، وضمن عدم تعرضه لضرر يدمره أو يهدد حياته وهو بهذا، << أخضع نفسه للتابو(المحرمات المقدسة) >>.[2] وهذا يرجع دائما إلى ذهنية الساحر، وما يحمله من معتقدات تجعله يسن قوانين ومبادئ يتقيد بها، فلا يمكنه أن يحيد عنها.

في أحايين كثيرة قد يتبع الساحر الطقوس المتسلسلة والمنظمة المتبعة في عملية السحر، إلا أنه لا يفلح الساحر حيث أتى، وقد يكرر الأمر مرات عديدة، لكن يبقى الفشل حليفه، فيحاول استقصاء الأمر إن أمكنه ذلك، ليكشف سر هذا الإخفاق. ونظرا لكون الأفارقة يؤمنون بالسحر

(1) المرجع السابق، ص 29.
(2) المرجع نفسه، ص 127.

فهم يؤمنون بوجود رادع ، وحام يقيهم شر هذا السحر، ألا وهي التعويذة السحرية وهي << طلسم لجلب الحض ومنع السحر >>[1].

التعويذة قد تكون نباتا مقدسا، أو جزء من أعضاء أحد الحيوانات المقدسة، كناب التمساح مثلا، أو قطعة من جلده، أو قطعة نحاس أو أي معدن كتبت عليه طلاسم يفترض أنها تحمي الإنسان من الشرور، وترد عنه الأرواح الشريرة.

ولكل قبيلة أفريقية تعويذتها الخاصة، كما أن لكل شخص تعويذته التي تحميه وترد عنه الأذى، فهو يعتقد اعتقادا جازما أنه طالما يلبسها، أو ما دامت معه فهو في أمن وأمان من السحر أو ما شبه من الطقوس المؤذية، أما في حال فقدانها أو ضياعها فإنه يتعرض - حسب اعتقاده - إلى مكروه كبير، أو قد يصاب بمرض خطير، أو تزهق روحه من طرف الأرواح الشريرة. بمعنى أن التعويذة فيها بقاؤه، وحياته وسلامته، أو مرضه وموته، وهذا هو الحال مع الزوج في هذه الأسطورة فقد كان يرتدي تعويذته الخاصة.

يتبين لنا من خلال الأسطورة رمزية العدد ثلاثة (3) بالنسبة للأفارقة، فالرجل تزوج ثلاث نساء، والعدد ثلاثة هو رمز التناس، كما يرمز إلى ثلاث سموات، وثلاثة طهارات، هو رقم الرجل،[2] وكأن الزوج أراد أن يحدث تناسقا في أسرته، ويثبت رجولته، وبالتالي يثبت قوامته ومكانته. كما أن الرقم ثلاثة يحمل رمزية متعددة ومتشعبة << وقد وصف الإغريق ثلاثة أنواع من النعم، وأنواع ثلاثة من الغضب، وثلاثة نساء شريرات...>>[3]. وإذا حاولنا فك طلاسم هذا الرمز لنسقطه على ما جاء في الأسطورة فإننا نعتبر النساء الثلاثة نعمة من الله بالنسبة لهذا الزوج، لكن عندما أغضب بعضهم فإنهن انقلبن من نعمة إلى نقمة فأصبحن شريرات.

وهناك أسطورة أخرى لدى قبائل الهوسا، وهي أسطورة عن **الزوجة الساحرة والثقوب التسعة**. حيث يتبين من خلال الأسطورة أمر مهم ألا وهو نتانة جسم المرأة التي طال عهدها

(1) المرجع السابق، ص 20.
(2) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس) ، ص447.
(3) المرجع نفسه، ص448.

بالسحر والشعوذة[1] - وإن كان هذا أمر مستحيل حدوثه في الحقيقة - إلا أنه يحمل رمزية مثقلة بالمعاني ، حيث تشير إلى قضية شائكة في المجتمعات - خاصة أفريقية منها - ألا وهي قضية الأخلاق وعلاقتها بممارسة الطقوس السحرية ، ونظرة المجتمع لمثل هذه الأعمال التي تتنافى والأخلاق.

وبالرغم من أن << الجسد البشري مثقوب بتسعة ثقوب من بينها العينان >>[2] فنتانة جسم المرأة من خلال الثقوب التي تفرز رائحة كريهة، معناه نتانة أخلاقها من خلال أفعالها الدنسة التي تنمّ عن سوء السريرة وفساد الجوهر، الذي انعكس بصورة تلقائية على المظهر. وهذه الصفات مستهجنة وتلاقي الرفض لدى مجتمع الأفارقة، وكأننا نجد فيها توافق مع الديانات السماوية المختلفة، ومع الدين الإسلامي على وجه التحديد.

ولهذا نجد الشعوب الأفريقية تفرق بين الساحر الذي يقدم مساعدة للناس والذي يؤذيهم << فيحترم الأفارقة السحرة الذين لديهم قدرة على معالجة الناس، ويكنون الكراهية للمشعوذ الذي يمارس طقوسه في السر>>.[3]

لقد عبر عن الثقوب الموجودة في جسمها بالرقم تسعة (9) الذي يحمل دلالات مختلفة فهو رقم صوفي، ويعبر عن أنهر تسعة في الجحيم في الفردوس المفقود لميلتون، كما يشير الرقم تسعة حسب هذا الأخير إلى سقوط الملائكة خلال تسعة أيام، والعدد تسعة هو عدد سماوي وفي الطاوية تسمى المنطقة التي تمضي إليها أرواح الأجداد بعد الموت الينابيع التسعة، كما نجد في أسطورة الخلق لقبيلة الياقوط في سيبيريا أنها تحتوي على تسع محيطات سماوية بالإضافة إلى بطل، هذا الأخير يزداد قوة وعظمة بعدما يقتل التنين.[4]

بالتمعن في دلالات ورمزية الرقم تسعة في الأسطورة نجد أنها تربط هذه الثقوب بأعمالها المشينـة التي تقـوم بها - من سحر وشعوذة - وكأنها سقطت بأفعالهـا هذه لتغرق في الدونيـة

(1) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية >>، ص 47 - 48.
(2) المرجع السابق، ص466.
(3) جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم اطريحي)، ص 129.
(4) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 365-367 .

والانحطاط الخلقي، لتشبه بهذا الشيطان، بعدما كان ملكا له مكانته في جنة الفردوس سقط بأفعاله إلى مرتبة دنيئة فاستحق الخلود في الجحيم، وعليه فالمرأة المشعوذة تستحق الجحيم لكن في المقابل ترى نفسها عكس ذلك، فهي تعتقد أنه بقتلها لزوجها ووالده (بالسحر) فستمتلك قوة، ومكانة في المجتمع من خلال سيطرتها على المنزل واستفرادها به.

وإلى جانب إيمان الشعوب الأفريقية الراسخ بالسحر والشعوذة، وممارستهم الاعتيادية لطقوسه، فهم يؤمنون كذلك بالمسوخ وتناسخ الأرواح وهو أمر مرتبط أشد الارتباط بالسحر والشعوذة، فالساحر أو الجني أو الشبح - حسب اعتقادهم - وحدهم القادرون على القيام به وهذا التناسخ في الأرواح غالبا ما يتم بين أحدهم وبين إنسان آخر، أو حيوان ، أو وحش مفترس ... الخ.

ويعتقدون أن الساحر الذي ضعف جسمه ووهنت قواه وخارت يقوم باختيار جسد حيوان متوحش، والاستيلاء عليه من خلال انتقال روحه إلى جسده وحلولها به، أو الانتقال إلى جسد إنسان آخر يكون أكثر شبابا وقوة، أو أكثر عنفا وشراسة ... الخ، أوقد يكون العكس أي من وحش إلى إنسان، فيتقمص جسده ويحل به.

ومن هذه الأساطير ما ترويه أسطورة من **ساحل العاج**، عن امرأة كانت تمتهن السحر والشعوذة، وعندما اقترب أجلها لم تستكن وتسلم للقضاء، بل انتقلت بروحها إلى جسد بومة وبقي جسمها طريح الفراش، وراحت تحلق في الفضاء مزهوة فصادفها صياد فارداها قتيلة فحينذاك فارق جسدها الذي في الفراش الحياة، كونها لم تجد سجدا آخر لتحل به.[1]

وهناك أسطورة أخرى قريبة جدا في تفاصيلها، غير أن الساحرة حلت روحها بجسد تمساح هذا الأخير راح يجوب النهر فوجد فتاة فافترسها، وما كان من الأهالي إلا أن قتلوه، ففارق جسدها كذلك الحياة.[2] وهذا إن دل على شيء أن يدل أنما يدل على إيمان الشعوب الأفريقية بمفارقة الروح للجسد، وحلولها بجسد آخر خصوصا في اللحظات الأخيرة للفرد،أي أثناء موته

(1) ينظر حسن عبد الغفارد الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث >>، ص 48.
(2) ينظر المصدر نفسه، ص 48.

فاعتقادهم راسخ بأن الروح تنتقل من جسد الميت إلى جسد آخر، وبالتالي فهي تبقى موجودة بين الأحياء ولا تغادر بموت الجسد.

وقد تسيطر هذه الروح الهائمة على جسد حيوان أو إنسان آخر. وعند القبائل الأفريقية في الكونغو يسود الاعتقاد << بأن الإنسان إذا وقع مريضا بمرض خطير ميؤوس شفاؤه، فإن الروح ستغادر الجسد، وتتجول في العالم الخارجي، وهنا يستعان بساحر القبيلة والذي يحاول الإمساك بروح المريض الهائمة في الخارج بطرقه السحرية، ويرجعها إلى صاحبها المحتضر فتعود له صحته ويشفى من المرض... ويتجمع كل الأهالي في المدينة ويرافقون الساحر حتى مكان الروح ... ويقوم الساحر بتلاوة تعاويذه السحرية >>.[1]

كما تؤمن الشعوب الأفريقية بأن الجني أو الروح الشريرة لديها القدرة على الحلول بجسم كائن آخر أثناء نومه، لأن الروح تتركه لتهيم وتتجول في الخارج وتجوب الأماكن البعيدة والقريبة، فتتمكن روح الساحر أو الجني أو الروح الشريرة من الانتقال إلى هذا الجسد النائم...

لهذا فهم يرون أنه من الخطورة تغيير شكل النائم أثناء نومه، أو إيقاظه بسرعة أو فجأة حتى لا تتيه عنه الروح. كما لا يحبذون أن ينام الإنسان وفمه مفتوح ظنا منهم أن الروح ستخرج من فمه وهو نائم، وعند << القبائل في جنوب أفريقيا، أثناء ولادة النساء يقومون بإغلاق فتحات الفم لكل الحيوانات داخل الدار وخارجها، تخوفا من أن يبتلع أي حيوان روح الأم أو طفلها أثناء تجوالهم وينبه على جميع النساء الحاضرات الولادة، إغلاق فمهن طوال فترة الولادة، حتى لا يبتعلوا روح الطفل الوليد >>.[2]

على هذا الأساس كثرت الأساطير والخرافات التي تتحدث عن مسوخ حلت بجسد إنسان وتقمصته، وعاشت بين بني البشر وكأنها منه، وتزوجت ببناتهم، وأكلت طعامهم وافترشت فراشهم ...الخ. وفي هذا المعنى كانت الأسطورة التي تروى عن **ابنة زعيم القبيلة والأمير المسخ**. فالشعوب الأفريقية كان من عاداتها إقامة الحفلات الجماعية، وكل قبيلة لها طقوسها

(1) عبد الحميد محمد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر >>، ج1، ص 211.
(2) المرجع نفسه، ص208.

الخاصة بها، ومعظم القبائل تقيم حفلات تمكن من خلالها الشباب الراغب في الزواج من الالتقاء والاختيار.[1]

هذا الاختيار ليس واحد لدى جل القبائل، فبعضها يكون اختيار الزوج المرغوب من طرف الرجال اتجاه النساء، وفي المقابل نجد بعضها يكون اختيار الزوج مرهون بيدي الفتاة، حيث يقف الشباب في طابور كبير مؤدين طقوس، ورقصات معينة محاولين من خلالها إبراز جمالها وجاذبيتهم وصفاتهم المميزة، في حين تقف الفتيات قريبا لإمعان النظر واختيار الزوج الذي يرون فيه الصفات المرغوبة.

كما يتبن من خلال هذه الأسطورة أن ابنة زعيم القبيلة تترفع عن الارتباط بغير أمير، أو ابن زعيم قبيلة أخرى، وفي هذا تشكيل لمجتمع طبقي غير معلن، والإضافة إلى تأكيد الأسطورة لاعتقاد الشعوب الأفريقية الثابت بالمسوخ وحلولها بجسد البشر، فإننا نستشف من خلالها إشارة واضحة إلى مسألة أخرى غاية في الأهمية تتعلق دائما بالأخلاق، ألا وهي قضية الخداع ولبس الأقنعة المزيفة لا سيما إذا ما تعلق الأمر بالزواج، حيث نجد الكثير من الأزواج يلجؤون إلى الخداع والمكيدة بغرض إيجاد القبول لدى الطرف الآخر، فيظهرون بمظهر غير حقيقي، ويتقمصون شخصيات غير شخصيتهم ويدعون الكمال.

والعدد أربعة (4) خير دليل على ما نذهب إليه، فالفتى (المسخ) لم يطلب الفتاة ابنة الزعيم إلا بعد أربعة أيام، خاصة إذا عرفنا رمزية العدد أربعة الذي يدل على الثبات والكمال كما أن <<عالمنا مؤلف من أربعة عناصر، والسماء ترتكز على أربعة أعمدة كما تقول الكوزومولوجيات >>.[2] فهو يدعي الكمال والثبات، في حين يضمر غير ذلك، وبرمزية مجاورة << غالبا ما كان لبراهما أربعة رؤوس ...>>.[3]

هذا يفسر حقيقته الغائبة عن الفتاة وأهلها، والمتمثلة في كونه يخفي وحشا قابعا خلف ذلك الفتى الوسيم الأمير، الذي تمكن من خداع الجميع لوقت معين ، وكان غرضه هو الاستفراد

(1) ينظر حسن عبد الغفار << الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث >>، ص 53 -55.
(2) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>،تر (عبد الهادي عباس) ،ص 451.
(3) المرجع نفسه، ص 452.

بالفتاة والفتك بها. وهكذا ارتبطت المسوخ بالسحر والأذية، فلا نكاد نجد أسطورة أو خرافة تتحدث عن المسوخ والسحر إلا وكان الخداع والأذى لصيقا بها.

أ - السحر والمرأة والساحر الطبيب:

اللافت للانتباه والذي لا يمكن أبدا التغاضي عنه أو إهمال الإشارة إليه هو علاقة المرأة بالسحر، حيث غالبا ما تربط الأساطير والخرافات بين السحر والمرأة، فالشعوب الأفريقية توجه أصبع الاتهام دائما للمرأة، فوحدها من تمارس الطقوس السحرية والشعوذة لتؤذي بهما الناس، وكأن المرأة وحدها تحمل الشرور وتترجمها على شكل طقوس سحرية مؤذية، ولا علاقة للرجل بكل هذا، مع أنه يوجد كثير من الرجال يقومون بأعمال سحرية أفظع من تلك التي تقوم بها المرأة.

وعلى هذا الأساس والاعتقاد لدى الشعوب الأفريقية، فقد اقترن اسم الرجل الساحر بالطبيب الذي يساعد أفراد القبيلة عندما يتعرض أحدهم للمرض المستعصي شفاؤه، فهو الذي يقوم على رعايته من خلال التعاويذ والترانيم السحرية التي يقوم بترتيلها، حتى تشفى روحه، أو من خلال ما يصفه له من أعشاب شافية، أو عن طريق نصحه بتقديم قرابين ترضي الأرواح.

كما يقوم الساحر- الطبيب في القبيلة بمساعدة الصيادين للحصول على صيد وفير، وكذلك المزارعين وذلك لضمان الحصول على محصول وفير من خيرات الأرض والماشية، حيث يلزمهم بالقيام بخطوات معينة وطقوس خاصة ليتمكنوا من حصد النتائج المرغوبة، وتجنب الكثير من الأفعال (تابو) حتى يتجنبوا النتائج السيئة.

إننا نجد << في بعض البلاد الأفريقية يعتقد الأهالي، أن الأشياء التي من نفس النوع تنجذب إلى بعضها البعض بواسطة أرواحهم الكامنة فيهم، ولهذا يقوم صيادوا الغزلان والخنازير البرية، في تلك المناطق بتعليق عظام الغزلان والخنازير البرية في منازلهم في مكان ظاهر لتشجيع أرواح هذه الحيوانات على جذب المزيد من الغزلان والخنازير البرية إلى مناطق الصيد التي يتواجدون بها الصيادون >>.[1]

(1) محمد عبد الحميد أبو زيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1، ص 27.

وقد ثبت عن قبيلة واكندو بوسط أفريقيا أنه عندما يصيبهم الجفاف يلجؤون إلى ساحر القبيلة، ليعينهم على جلب الأمطار فيقوم بصب الماء على الحجر السحري الأسود الخاص بإسقاط الأمطار، والذي يحتفظ به في مكان أمين فيقوم الساحر بدهن الحجر بالزيت أو يضعه في وعاء مملوء بالماء، ويوهمهم أنه بعد هذه الممارسات ستتجمع الغيوم السوداء في السماء وتسقط الأمطار.

يتضح من هذا أن السحر انتقل من سحر فردي إلى سحر جماعي، أي سحر ينتفع منه أفراد القبيلة؛ << فعندما تعتمد رفاهية كل أبناء القبيلة على أداء الطقوس الشعائر السحرية يرتفع مقام السحرة إلى مستوى كبير في القدرة على التأثير والشهرة >>[1]. لهذا فإن الساحر -الطبيب مرتبته من مرتبة زعيم القبيلة، فهو ذو شرف ونفوذ ويتمتع بذكاء وفطنة، وبغض النظر عن الجانب السلبي فيه وفيما يقوم به من استغلال للناس بزيفه، ووهمه ودجله الذي فرضه على أبناء القبيلة، فإن القبيلة ترى فيه المخلص.

لقد استطاع الساحر- الطبيب أن يفرض وجوده، ويصنع مكانته في القبيلة وذلك من خلال ذكائه، وخياله وقدراته العالية ومهاراته. يحاط الساحر- الطبيب بهالة من الغموض والتقديس فهو يملك قيمة كبيرة في المجتمع، فالجميع يحترمه ويقدسه ليس فقط لمهارته في استخدام العقاقير لعلاج المرضى، ولكن لمهارته في فن السحر والأسرار الغامضة، كما يملك الرأي الحاسم في كل الأمور الهامة في الحرب والسلم، وفي كل ما يتعلق بشؤون القبيلة.

في كثير من بلدان أفريقيا ارتقى الساحر- الطبيب إلى مرتبة الملك والزعيم نتيجة لهذه الهالة العظيمة التي يحيطونه بها، فهم يرون أنه أقدر الناس على التحكم في أمورهم جميعا فبالتالي له القدرة على إسقاط المطر، وصنع العاصفة، وشفاء المرضى، والتحكم في الشمس وإيقاف الكوارث الطبيعية، كما يملك القدرة على الاتصال بالأشباح وجلب الرفاهية والثروة لأبناء القبيلة.

(1) المرجع السابق، ص 55.

وفي بعض القبائل في غرب إفريقيا << توجد كثير من الأدلة التي تشير إلى نشأة وظيفة الملك أو الزعيم من وظيفة الساحر العمومي ... وعند قبائل البانثون في شرق أفريقيا ... كان ملك المنطقة أصلا ساحرا ماهر >>[1]. فمعظم زعماء القبائل الأفريقية كانوا في الأصل سحرة مهرة، وصناع مطر بصفة خاصة، لأن المطر متعلق بالزراعة وهذه الأخيرة هي من أهم مصادر عيش القبائل الأفريقية، وبالتالي التحكم بمصيرهم.

وعند قبائل الليندو غرب بحيرة ألبرت << يعتقد الأهالي أن بعض الأشخاص يمتلكون القوة السحرية لصناعة الأمطار، والساحر عادة يكون هو الملك والزعيم، والأهالي هناك تكن التقديس والمهابة للساحر الزعيم وتخشى بطشه وقسوته >>[2]. أما قبائل الزولو فزعميهم الساحر والذي يدعى << التشاكا كان يقول: أنا المتنبئ والعراف الوحيد في القبيلة >>[3]. وقد مجدوه من خلال نسج أسطورة حول شخصه.

لكن في المقابل إذا فشل الساحر- الطبيب (الملك والزعيم) في نبوءته، أو لم تسقط الأمطار وعمت المجاعة، بالرغم من طرقه السحرية فإن أهل القبيلة لن يتوانوا في إيذائه ،وقد يتعرض للموت. وقد ثبت في بعض البلدان الأفريقية أنه إذا فشل في إسقاط المطر فإنهم يقومون بطرده من القبيلة أو قتله، ويتضح ذلك جليا في غرب أفريقيا << فعندما تفشل الصلوات والقرابين المقدسة المقدمة للملك في جلب الرخاء والمطر، تقوم رعاياه بربطه في الحبال ويأخذوه عنوة بالقوة إلى المقابر المدفون فيها الأجداد لكي يطلب منهم المطر >>[4].

أما في شرق أفريقيا فعندما يفشلون في صيد الأسماك يتهم أهالي قرية لوانجو ملكهم بأنه هو السبب في القحط الذي ألم بالبلاد، ذلك لأنه ذو قلب شرير وروح خبيثة، ويعزلوه من منصبه.

---

(1) المرجع السابق، ص 99.
(2) المرجع نفسه، ص 100.
(3) المرجع نفسه، ص 101.
(4) المرجع نفسه، ص 102.

الفصل الثاني

صورة عن الحياة السياسية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية

1- بنية القبيلة الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية:

تتألف القبيلة من جماعة من الناس ينتمون في الأغلب إلى نسب (أصل) واحد، يرجع إلى جد أعلى، أو اسم حلف قبلي يعتبر بمثابة جد، كما تتكون من عدة بطون، وعشائر غالبا ما يسكن أفراد القبيلة إقليما مشتركا يعدونه وطنا لهم، يتكلمون لهجة مميزة لهم، كما يمتلكون ثقافة متجانسة أو التضامن المشترك (الشعور بالانتماء المشترك أو العصبية) ضد العناصر الخارجية على الأقل.

تكون العصبية بين أهل النسب الواضح (القرابة الظاهرة) ومن صاهرهم، أي تزوج من نساء منهم أو تزوجوا هم من نسائه، أو ينتسب إليهم بالولاء بمعنى أنه دخل في حمايتهم أو حالفهم (العشائر الطوطمية).

لقد كان المجتمع الأفريقي ينقسم إلى قبائل متعددة ومختلفة، حيث أن هذا الأخير ينقسم إلى وحدات قائمة بذاتها تمثلها القبائل المختلفة، وتعتبر العصبية القبلية من بين الأسباب التي قضت على فكرة الترابط السياسي، بالإضافة إلى اتساع المساحة، وقسوة الطبيعة وصعوبة التنقل (أدغال)، حيث منعت من ظهور دولة موحدة يحكمها نظام سياسي واحد، فقد كان وعيهم السياسي ضعيفا، ومحدودا لا يتعدى حدود القبيلة أو القبائل المنتمية إلى الجد المشترك فالقبيلة هي أساس المجتمع الأفريقي بدلا من الدولة، والأسرة هي نواة القبيلة.

أ - العائلة: نواة التنظيم القبلي:

تشكل العائلة نواة التنظيم القبلي في المجتمع الأفريقي، فحياة الناس تتمحور بها وحولها بانتماءاتهم الطبقية والإقليمية والقبلية، وبكل أبعادهم السياسية والثقافية... حيث أنها (العائلة) تنقل لأفرادها ثقافة المجتمع، وقد يظهر التناقض بين الولاء العائلي والولاء الاجتماعي أو الولاء السياسي (القومي)، ولهذا نجد أن هناك من يرى بأن << الولاء العائلي ... لا يتوافق مع الولاء الاجتماعي بل يرفضه ويناقضه >>.[1]

(1) هشام شرابي << مقدمات لدراسة المجتمع العربي >>، منشورات صلاح الدين، القدس، 1975، ص 117.

إن الترابط السياسي وليد عملية تطورية طويلة طرأت على العلاقات الاجتماعية التي تربط أواصر مجتمع معين، ويتضح جليا أن الحقيقة الأساسية في الفكر السياسي في المجتمعات القبلية هي العصبية القائمة على أواصر الدم، أو اللحمة النسبية أو قرابة الدم، وهي الأساس الوحيد للأمة في تلك المجتمعات. فالفرد في القبيلة يتقمص شخصية الجماعة (القبيلة) عن طريق النسب أو قرابة الدم، وقد يرتبط بها في إطار الحيز الجغرافي فتكون شخصيته تدور في فلك الارتباط بالأرض، ويبقى الانتماء للقبيلة في إطار النسب والقرابة أقوى الروابط وأمتنها.

ولأن كل تنظيم سياسي هو تنظيم تفرضه طبيعة المرحلة التي يمر بها المجتمع، فقد وجب علينا أن نعرج على أسطورة **جبال كيرنياغا** من كينيا أو ما تعرف بجبال كليمانجارو. فالأسطورة تقول أن الإله الأعظم اختار ثلاثة من أبنائه بقصد تعمير الأرض - بعدما خلق جبالا شاهقة - [1] والتي ترمز إلى الارتقائية << فالعروج إلى مقام الإلهة يتم رمزيا عبر الجبال المقدسة >>. [2]

يعتبر هؤلاء الثلاثة السلف الأول الذي تعود إليه أصول القبائل الكينية، وقد كانوا ثلاثة وهي ترمز كما سبق وأشرنا إلى الكمال والتناسق، وبهذا اعتبر هؤلاء الثلاثة شخصيات مقدسة ذوات امتيازات استثنائية، وتخصيص اسم معين لكل واحد من هذه الشخصيات الثلاثة يرتبط غالبا بالمقدس << وقد كان اسم الشخص... بالنسبة للثقافات القديمة جوهر هذا الشخص... فمعرفة اسمه أو التلفظ به يضفي بعض القوة عليه >> [3]، كما نجد في الثقافات الأفريقية أن المراهق الذي يخضع لعملية التكريس، غالبا ما يتلقى اسما جديدا، ويلقن باسم الإله الأكبر وهو اسم محرم عليه أن يذكره إلا في ظروف استثنائية جدا.

لقد أصبح كل شخص منهم إلها بعدما منحه الإله الأعظم ما يعينه على مصاعب الحياة فكان من نصيب **" ماساي "** الرمح، وكلف برعاية الماشية بعد أن صار إله المراعي، وقد

(1) ينظر حسن عبد الغفار << الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث والحكايات الشعبية >>، ص 67، 68.
(2) بسام الجمل << من الرمز إلى الرمز الديني >>، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2011، ص 47.
(3) فليب سيرنج << الرموز في الفن – الأديان – الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس)، ص 435.

ذكرت الأساطير الأفريقية عن الرماح، حيث ترمز رماح الصيد إلى الكهنوت، ومن تلك الأساطير أسطورة ابن النهر أو ما يعرف بزعماء الرماح، التي تناولتها بالدراسة في الفصل السابق.

واختار **كامبا** قوسا وكنانة فصار إله الصيد، في حين كان الفأس من نصيب **كيكويو** الذي أصبح إله التناسل «وبهذا المعنى تلتقي الأسلحة القاطعة أو المدببة الرأس مع أدوات الحراثة في نوع من التقنية الجنسية... والعلائية هي مسلحة دائما... وصولجان العدالة يستدعي وميض البرق وأعمال السيف أو الفأس »[1]، فالأسلحة ترمز إلى القوة الروحانية والعلائية.

عزّ على كيكويو الذي أنجب تسع بنات أن ينجب ولدا، والعدد تسعة يرمز كما ذكرنا آنفا للكلية والكمال و« هو عدد كوني ويعبر عن اجتماع الأرباب التسعة التي يعتبر جمعها لكل القوى البدئية الفاعلة في الكون »[2]. وهناك إشارة إلى أن المنطقة التي تمضي إليها أرواح الأجداد بعد الموت الينابيع التسعة، وقد اختار الإله الأعظم منطقة خصبة ملئ بالأشجار والينابيع.

لم يكن إنجاب تسع بنات في بداية الأمر دون الأولاد محض صدفة، وتعتبر القرابين المقدمة لشجرة التين المقدسة بمثابة الحل الأمثل الذي اهتدى إليه كيكويو، حيث استجابت السماء وقبلت قرابينه، ويتجلى هذا من خلال إهدائه تسعة فتية كانوا بمثابة أزواج لبناته التسعة، وقد شكلت لحمة دموية واحدة ترزخ تحت مصير مشترك، يكون فيه الفرد عضوا يقاسم الأعضاء الآخرين فرحهم وحزنهم وألمهم وأملهم.

لقد تشكلت من هذه المصاهرة قبيلة بكل المقاييس تمثلت فيها صلة الدم، والمصاهرة فكان شعور بالانتماء إلى القبيلة (السلف) ماثلا بقوة. هذه القبيلة التي تفرعت إلى زمر حملت أسماء بنات كيكويو، كما كان لهن ولنسلهن المكانة العالية ، وامتلكن الحق لتعدد الأزواج أو ما يعرف

(1) المرجع السابق، ص 137.
(2) المرجع نفسه، ص 466.

بنظام الزواج الجماعي، حيث يمكن للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل، وبالتالي يكرس النظام الأمومي(Matriarchy/ Matriarchat) .

أين كانت الأم تمثل الدور المسيطر في الاقتصاد الاجتماعي، وكانت العلاقات تعاونية ولم يكن معروفا من هو أبو الأطفال، وكانت الأم وحدها تعرف لهذا لم يكن من الممكن أن ينسب النسل إلا إلى جانب المرأة، وكان يعترف فقط بالصلة الأنثوية وتركز الاقتصاد القبلي كله في أيدي النساء، حين كانت النساء تقمن بأعمال الزراعة إلى جانب تربية الأولاد وتوفير الزاد وقد ذكر زهير حطب أن << المرأة... كانت المرجع الوحيد والحقيقي لمعرفة نسب الأبناء المولودين من أزواج متعددين فنسبوا إليها، وظفرت بالاحترام والطاعة وأصبحت صاحبة السلطة في العشيرة >>.(1)

في مرحلة لاحقة، وبعد تمكن الرجال من مسك زمام الاقتصاد من خلال تطور الرعي إلى جنب الزراعة، فظهرت قبائل جديدة وظهر معها النظام الأبوي، حيث حل الزواج الثنائي محل الجماعي (زواج الزمرة) وصار الزوج يعترف به كأب للأطفال، والزوجة والأطفال ينتمون إليه بحق الملكية، فكانت بذلك العائلة الأبوية وحدة اقتصادية، ثم أدى المزيد من تطور القوى الإنتاجية والملكية الخاصة والتبادل إلى انقسام العائلة الأبوية إلى عائلات صغيرة تقوم على الزواج الواحدي.

يرى **مورغان** في كتابه المجتمع القديم أن التنظيم الاجتماعي أو المجتمع موجود لدى كافة الجماعات البشرية، لكن أسسه تختلف من جماعة إلى أخرى حسب درجة تطورها ماديا واجتماعيا. فعند الجماعات البربرية والبدوية يقوم هذا التنظيم على أساسا من البطون والعشائر والسلطة في هذا النظام تتعامل مع الناس على اعتبارهم أعضاء ينتمون إلى نسب أو قرابة واحدة، أما في الجماعات المتحضرة فإن التنظيم الاجتماعي يرتكز على نظام عام هو التنظيم السياسي أو الدولة.(2)

(1) زهير حطب << تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية الاجتماعية لقضاياها المعاصرة >>، معهد الإنماء العربي لبنان، 1976، ص 17.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 35.

إنه في مرحلة من مراحل التطور التاريخي اقتضت أن تكون القبيلة وحدة التنظيم السياسي والاجتماعي في العصر البدائي لدى الأفارقة، وعلى هذا الأساس لم يكن معقولا اجتماعيا بقاء الفرد دون انتماء قبلي، وإذا كانت كل قبيلة تقوم على أساس اشتراك أبنائها في الأصل الواحد والموطن الواحد، فإن الرباط الأقوى في القبيلة هو العصبية القبلية وهي << شعور التماسك والتضامن والاندماج فيما بينهم وهي على هذا النحو مصدر القوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة >>[1].

أفراد القبيلة متضامنون كلهم في كل الظروف والأحوال، سواء في الأفراح أو المسرات وقد نشأ النظام القبلي المبني على العصبية كضرورة اجتماعية وحيوية تمكن أفرادها من الحماية والأمن. لقد آمنت القبيلة بوحدتها وجعلت ذلك أمرا مقدسا، ترتب عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية. والعصبية تقتضي أن ينصر الفرد من قبل أفراد قبيلته ظالما أو مظلوما كما تدافع القبيلة عن كيانها لتضمن لنفسها البقاء، لأن حياتهم قائمة على الصراع الدائم، لهذا تطلب الدخول في أحلاف مع القبائل الأخرى (الطوطمية)، فقانون القبائل هو قانون الغاب الذي يقوم على البقاء للأقوى.

والعصبية نوعان:

1-أ عصبية الدم: وهي أساس القرابة في البيت الواحد، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانت أسرة واحدة.

2-أ عصبية الانتماء إلى جد مشترك: من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه كما هو الحال مع أحفاد كيكويو بقبائل كينيا (أسطورة جبال كيرنغايا). وعلى هذا النحو لم تكن لبعض أفراد المجتمع الأفريقي البدائي نزعة قومية شاملة، لأن الوعي السياسي فيه كان ضيقا ومحدودا لا يتجاوز حدود القبيلة، أو حدود القبائل المنتمية إلى جد واحد، ويمكن أن يندرج الانتماء إلى طوطم واحد أيضا داخل هذا النوع من الانتماء، ولهذا سأخصص له مطلبا لوحده.

(1) السيد عبد العزيز السالم، << تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام >>، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1999 ص359.

ب - العشائر الطوطمية:

اختلفت وجهات النظر والآراء حول المفهوم الحقيقي للطوطمية، فمنهم من نظر إليها من وجهة دينية، ومنهم من نظر إليها من وجهة اجتماعية، ومنهم من جمع بينهما ما أدى إلى ظهور مدرستين:

الأولى من أساتذتها بربرت أستيد حيث يرى أن الطوطمية تظهر من خلال تسمية البدائيين لأنفسهم بالأشياء الطبيعية التي اختلطت بأسماء الأسلاف، ثم تقدست تلك الأشياء مع تقديس الآباء بمرور الزمن.[1] ويرى جيمس فريزر أنها << نظام قائم على قواعد السحر والطلسم يريد به أهل الطوتم استكثار المواد لسد الحاجة >>.[2]

من الوجهة الدينية يسمي أفراد القبائل أنفسهم بأسماء الطوطم، ويعتقدون أنه أب للقبيلة وأنهم من نسله. أما الطوطمية من الوجهة الاجتماعية << فمظهرها تعاقد أهل القبيلة فيما بينهم باعتبار علاقتها بالقبائل الأخرى >>.[3] وتقوم الطوطمية عند فرويد على النظامين الديني والاجتماعي << إن قرائن عديدة اجتمعت لفرويد - بعد دراسته للطوطمية -... أقامت له الدليل على أن الطوطمية صيغة أولى للدين في تاريخ البشرية >>.[4]

كما لاحظ فرويد - استنادا إلى أطروحة جيمس فريزر- وجود ثلاثة أنواع من الطوطم وهي: << طوطم العشيرة وهو ينتقل وراثيا بين الأجيال المتعاقبة، وطوطم خاص بجنس معين يتعلق إما بالذكور فقط أو بالإناث ممن تشدهم رابطة الانتماء إلى العشيرة، وطوطم فردي مقتصر على صاحبه ولا ينتقل إلى أعقابه >>.[5] يتبين لنا أن الصنف الأول يعتبره فرويد حسب نظره أهم أصناف الطوطم، الذي يستوجب الاهتمام والدراسة.

وللطوطمية من وجهتها الاجتماعية ثلاثة مظاهر:

---

(1) ينظر محمد عبد المعيد خان << الأساطير والخرافات عند العرب >>، ص65.
(2) المرجع نفسه، ص 65.
(3) المرجع نفسه، ص 97.
(4) فرويد << موسى والتوحيد >>، تر (جورج طرابيشي)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1986، ص 115.
(5) فرويد << الطوطم والتابو >>، تر (بوعلي ياسين)، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1983، ص126،127.

- التعاون المتبادل - الزواج الخارجي - الأمومة.

بالنسبة للتعاون المتبادل فقد عرف عن القبائل الأفريقية تفرعها إلى عشائر وبطون ونحو ذلك، وأن لكل قبيلة بئرها ووادیها ومرعاها الخاصين بها، وكانت تحميه بكل ما تملك. ورغم كون أفراد القبيلة الواحدة يعتبرون كما سلف الذكر إخوة في كل الظروف، فقد كانت تنشب الحروب الضارية بين بطون القبيلة الواحدة إذا كانت متفرعة إلى بطون متعددة، كما كانت تنشب حروبا بين القبيلة وقبائل أخرى، ولهذا فالقانون الطوطمي يستدعي تدخل أصحاب الطوطم الواحد وحتى من قبائل أخرى ليكونوا عونا على العدو.

فلو نشبت حرب ضد قبيلة التمساح على سبيل المثال وجب على قبيلة التمساح الأخرى (أي التي تتخذ من التمساح طوطما لها) أن تهب لنصرتها، ودعمها ولا يجوز لها أن تتخاذل، أو تغض الطرف، لأن كلتا القبيلتين يعتبر أفرادها إخوة لجد مشترك (الأسلاف)، ناهيك عن العشائر من قبيلة واحدة، ولهذا كثيرا ما تجد بعض القبائل نفسها مرغمة على خوض حرب لم تكن طرفا فيها لأي شكل من الأشكال.

1-ب الزواج الخارجي:

كانت شريعة الطوطم تلزم أصحابه بأن لا يتزوجوا من داخل القبيلة، بمعنى أن قبيلة التمساح مثلا لا يمكن أبناؤها أن يتزوجوا من أبناء قبيلة التمساح، فهذا أمر غير مرغوب فيه وترفضه القوانين الطوطمية، لكن مع هذا فإن الإنسان الأفريقي لم يكن يلتزم بهذا القانون التزاما تاما.

فقد كان الزواج الداخلي والخارجي متداولا على حد سواء، فالزواج الداخلي Endogamy كان يفضل للحفاظ على أواصر القرابة بين أفراد القبيلة، وحتى يضمن بقاء القبيلة متماسكة ومتآلفة. ومع هذا فالزواج الخارجي Exogamy كان يتم رغبة من << بعض القبائل لتجديد قواتها، وتعزيز نفوذها عن طريق توثيق علاقاتها مع الخارج >>[1].

(1) حليم بركات << المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي>>، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 3 1986، ص201.

إن الملاحظ أن إلزام صاحب الطوطم بالزواج الخارجي كان غرضه الأول تعزيز العلاقة مع القبائل الأخرى، وتبادل التعاون معها في جميع المجالات كالتجارة، والتعاون الأمني هذا الأخير لعله أهمها على الإطلاق، الذي يطغى على اهتمامات الإفريقية ومن أولوياته الكبرى التي لا تقل أهمية عن توفير الطعام والماء.

2-ب الأمومة:

يرى خان أن الأمومة عند القبائل الطوطمية تختلف في مظاهرها باختلاف القبائل، فقد نجد في بعض القبائل أن الابن قد يرث طوطم أبيه، والأمر نفسه بالنسبة للفتاة التي ترث طوطم أهمها، فتكون بذلك القبيلة إما منتمي للأم وإما منتمي للأب، فتكون قبيلة أمومية أو أبوية وليس من الضروري أن تنتسب القبيلة الطوطمية إلى الأمومة في كل الأحوال[1]. يمكن أن تبتدئ إحدى القبائل بالأبوة أو بالأمومة، ولا يوجد مانع لذلك.

ج - زعماء وشيوخ القبائل والسحرة الملوك:

تتجلى وحدة القبيلة في وجود شخصية مميزة يطلق عليها أسماء عديدة تختلف من قبيلة لأخرى، فهو سيد القبيلة أو الشيخ أو الأمير أو الزعيم أو حتى الملك، وقد جرت العادة أن يكون زعيم القبيلة شيخا طاعنا في السن مجربا، صاحب حكمة ونظرة ثاقبة، ورأي سديد وثروة واسعة. هذه الزعامة غالبا ما ورثت من الآباء إلى الأبناء، وقد تكون هذه الزعامة رمزية أحيانا، فلا ينال منها إلا التوقير.

كان المجتمع الأفريقي البدائي في أول سلم تحضر يحكمهم لجان الشيوخ << وهم لجنة من الشيوخ طاعنون في السن، ولهم نفوذ عظيم على كل أفراد القبيلة. لجنة الشيوخ هذه هي التي تحدد كل القرارات المهمة التي تتخذ في كل الأمور ذات الأهمية لحياة القبيلة، ولا يسمح لشباب صغار السن بالانضمام لها... في الإمكان أن نطلق على هذا النظام السياسي، اسم

(1) ينظر محمد عبد المعيد خان << الأساطير والخرافات عند العرب >>، ص 73.

حكومة كبار السن، أو حكومة الشيوخ، أو لجنة الشيوخ، وتتكون اللجنة من رؤساء العشائر الطوطمية المكونة للقبيلة، وتشرف على إدارة كل شؤون القبيلة >>.[1]

لقد ارتبط اسم زعماء القبائل بالسحر وصناعة المطر، فهم في الأصل الغالب كانوا سحرة مهرة وصناع مطر، فشهرتهم الواسعة انبنت على قدرتهم على صناعة المطر في الأوقات المناسبة للزراعة، وتقع على عاتق رؤساء العشائر الطوطمية مسؤولية كبيرة تفرضها علاقتهم بالسحر، فهم مكلفون من طرف أفراد القبيلة باستخدام الممارسات السحرية من أجل رفاهية أبناء القبيلة، وزيادة عدد الساكن فيها مع زيادة المحاصيل الزراعية، وهي كما يرى فريزر مفخرة الرؤساء والزعماء << وغالبا ما يكون هذا المجد هو المنبع لنظام الزعامة والملوكية في المجتمع البدائي، والساحر صانع المطر عادة يصبح مالكا أو زعيما على قبيلته >>.[2]

والخرافة الأفريقية **الطفل الملك** تعطينا صورة حية عن مكانة السحر والتنبؤات في حياة الإنسان الأفريقي، وعلاقاتهما بارتقاء مكانة صاحبهما، أو الممارس لهما باعتلاء سدة الحكم في البلاد.[3]

تربى **بوبا** يتيم الأبويين، بعد أن قتل والده بصاعقة ولحقت به والدته، ولم يجد سوى جده ليتولى رعايته، لكنه اختفى في سن الخامسة من تحت شجرة التمر الهندي المقدسة لدى الأفارقة، والعدد خمسة يرمز لألوهة السماء الكبرى، ومنذ زمن مبكر جدا كان لها... سلطة واقية ضد الشياطين.[4] وبهذا يكون الطفل بوبا قد وصل بسنه هذا ليكسب سلطة واقية ضد الشياطين، الذين اختطفوه ليعلموه أسرار الطبيعة ليؤذي أهل القرية بعد عودته.

كان الفتى قبل اختطافه يرتدي جوهرة حمراء لحمايته من العيون والأرواح الشريرة واللون الأحمر يرمز للحياة والعشق الإلهي، والحب البشري المعد لإعطاء دمه وحياته من أجل المحبوب،[5] فالأم كانت تأمل أن تحمي صغيرها من كل ما يؤذيه أو يضره ، وأملت أيضا في

(1) محمد عبد الحميد محمد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر >>، ج1، ص 98.
(2) المرجع نفسه، ص 101.
(3) ينظر سليمان جيغوديوب << حكايات وأساطير أفريقية (1) >>، تر (محمد الدنيا)، ص 1-53.
(4) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر(عبد الهادي عباس)، ص 454.
(5) ينظر المرجع نفسه، ص 425.

إعطائه الحياة المكللة بالتوفيق والعشق الإلهي، وهذه الاعتقادات سادت لدى الإنسان الأفريقي الذي تعود حماية نفسه ومن يحب بمثل هذه التعويذات.

بعد ثلاث سنوات عاد الفتى إلى جده **والي**، وهنا يكون قد بلغ من العمر ثمان سنوات والعدد ثمانية يرمز << للخلاص[1] >>، أي الخلاص مما كان فيه من غربة الديار والسكن حيث عاد من المكان الذي أخذته إليه العفاريت، وأفرح بذلك قلب جده الذي ما فتأ يذكره فيذرف دمعا حارا، لكن عودته لم تمر على أهل القرية مرور الكرام، فقد أخذ كل فرد يفسرها بالطريقة التي ترضيه، ومنهم من اعتبرها مجرد حيلة من الجد ليحميه ربما من لعنة قد تصيبه كما أصابت والديه. وهنا يتبين الإيمان العميق للإنسان الأفريقي بوجود اللعنات التي قد تصيب أفراد العائلة تباعا، وقد تنتقل إلى أفراد القبيلة بأكملها، ولهذا فهم يعملون كل جهدهم لتجنب مثل هذه اللعنات، التي يرجعون مصدرها لقوى خفية مؤذية.

أخبر الولد جده بما حصل معه مع الكائنات الشيطانية القبيحة، التي علمته منطق الطير وسر الأعشاب والنباتات الطبية المفيدة والضارة، وهذا من أجل تسخيرها ليضر بها أهل قريته فيكون له سلطان عليهم، وكأنهم أرادوا منه أن يكونا مشروع ساحر مؤذ يتحكم بمصائر الناس وأرواحهم، فيكون خير معين لهم على نشر الفساد والظلم في الأرض.

لكن يبدو أن السريرة الطيبة، والتنشأة الصالحة التي تميز بها الفتى كانت أقوى من كيد الشياطين، لأنه جعل ما تعلمه من أسرار الطبيعة في خدمة أهل قريته بدون أي مقابل مادي وكان له أيضا ميزة التنبؤ بما سيحدث من أخطار وكوارث قد تحل بالقرية وأهلها - وهي شروط تتطلب في الزعيم - وقد يعرف هذه الأخطار من خلال طائر الغراب الذي يرمز لدى أهل القرية خاصة والأفارقة عامة للشؤم ، كما أصبح يعرف أسرار الحيوانات المختلفة كالتيس الذي << يعتبر الحيوان الشبق رمز القذارة ورمز الشيطان[2] >>. ولهذا فقد لاحظ أن العفاريت (الشياطين) تفضلها على باقي الحيوانات.

(1) المرجع السابق، ص 465.
(2) المرجع نفسه، ص 76.

لقد علم الفتى من خلال حديث الغرابين أن الجراد سيجتاح القرية وسيقضي على الأخضر واليابس - والجراد في العادة يرمز للقحط والجوع - فهو يسبب للناس الجوع من خلال قضائه على المزروعات والمحاصيل، التي تمثل مصدر عيش كثيرين منهم، وهذا ما دفعه لمحادثة الجرادة القائدة وحثها على ترك محاصيل الزرع، لأن أهل القرية لم يفعلوا شيئا سيئا ليعاقبوا عليه. وفعلا كان موفقا في ذلك حيث سمعت منه الجرادة القائدة وغادرت بجيش الجراد. وكان بهذا قد أنقذ أهل قريته من الهلاك المحتوم، وهي أيضا صفة من صفات السيد الزعيم.

زار العجوز والفتى " **كيافي** " مبعوث الشيطان منتقما لمخالفة الفتى أوامرهم، وصب جام غضبه على الجد الضعيف من خلال تلاوة تعويذة سحرية أراد بها قتل العجوز، الذي سقط على الأرض وهو يصارع الموت، لكن فطنة الفتى هدته لرد السحر بالسحر ذاته. فقام بتلاوة التعويذة مقلوبة فانقلب السحر على الساحر، وتأذى المبعوث الشيطاني وغادر المكان فعادت العافية للجد.

توالت النبوءات والمساعدات الإنسانية التي قدمها الفتى لأهل القرية، وحتى لأناس خارج القرية من أمثال الملك الذي لجأ إليه ليساعده على الشفاء من المرض الجلدي الذي ألمّ به. وكان آخر ما قام به هو تنبؤه بما سيحل من جفاف يدوم سنة بتمامها، وأن الأمطار تسقط بغزارة غير معهودة لفترة معينة، تم تمسك السماء لمدة سنة بعدها، هذا جعله يخبر به الملك وأهل القرية والقرى المجاورة ليأخذوا حذرهم ويتجنبوا الجفاف المهلك.

لقد كان نتيجة هذه التنبؤات والأعمال الإنسانية الخيرة التي قام بها الفتى تجاه أفراد قبليته والقبائل المجاورة، أن ذاع صيته وعرفته كل البلاد خاصة النبوءة الأخيرة المتعلقة بسقوط المطر، حيث اكتسب سمعة طيبة أهلته لأن يكون خليفة للملك المتوفى بلدغة أفعى - كان الفتى قد نبأه بأنها ستكون سبب هلاكه - وبذلك كانت كل تلك المقدمات سببا في ارتقائه وعلو مكانته.

يذهب **ك. "مادهوبانيكار"** من خلال كتابه **الثعبان والهلال** The Serpent And The Cresent إلى أن شخصية الملك ارتبطت ارتباطا وثيقا بالسحر، كما ارتبطت الخصوبة والأمطار بالملك، ولهذا فقد كان للحكام في أفريقيا قدسيتهم ، وهذا ما يترجمه بقاؤهم فترة سبعة سنوات بعد موته بدون ملك - في بعض القبائل - حيث يقوم المطالبون بالعرش خلالها

بإطلاق نبوءاتهم ، فإذا صدقت نبوءة أحدهم انتخبوه ملكا عليهم. وكان هذا بالأخص لدى شعب الايبو، حيث كان لزاما عليه قبل أن يتوج ملكا أن يمر بطقوس الولادة من جديد ليظهر ككائن مقدس، لأنه لم يكن نائبا لإله فحسب بل كان نفسه مقدسا.(1)

يحاط الساحر (الرجل ـ الطبيب) بهالة من الغموض والتقديس، وله شخصية قوية ونفوذ كبير في القبيلة، وقد تطورت وظيفة الساحر إلى وظيفة الملك. فالساحر (الرجل - الطبيب) له قيمة كبيرة في المجتمع، ويحترمه ويقدسه الجميع ليس فقط لمهارته في استخدام العقاقير لعلاج المرض، ولكن أيضا لمهارته في فن السحر والأسرار الغامضة << ووظيفة الملك الذي يشغلها الساحر، علاوة على كونه الكاهن الأعلى، هو الذي يشرف على كل الطقوس الدينية وتعتبره القبيلة هو الذي يهبط عليه الوحي الإلهي. وله الرأي الحاسم في كل الأمور الهامة في الحرب وفي السلم، وفي أي قرار هام يتعلق بشؤون القبيلة وحياة أبنائها >>.(2)

كما عرف عن زعماء بلدة واتوربا بجنوب أفريقيا أنه لم يكن لهم أي نشاط سياسي غير النشاط السحري، على عكس زعماء وملوك قبائل واجوجو، الذين استمدوا نفوذهم السياسي من قدراتهم السحرية لصنع المطر. فهذا الأخير أمر في غاية الأهمية والخطورة بالنسبة للأهالي الذين تتوقف حياتهم عليه. فإذا لم يسقط المطر في الوقت المناسب فإنه ستحل الكارثة (المجاعة)، وبالتالي لا نستغرب المكانة الرفيعة التي يحتلها هؤلاء السحرة، الذين يعرفون كيفية السيطرة على عقول هؤلاء الأهالي السذج من أبناء القبائل الأفريقية.(3)

ونجد كذلك لدى قبائل ألفان الأفريقية << أنه لا تمييز بين الملك (الزعيم ورجل الطب) فالزعيم أيضا رجل الطب الساحر والزعيم. في قبيلة ألفان نجد أن رجل الطب هو ساحر عمومي علاوة على كونه حدادا>>.(4) إذ أن حرفة الحدادة تعتبر مقدسة، ولا يسمح لغير الرؤساء بمزاولتها وإن كان الساحر صانع المطر هو الأكثر شهرة ، وهو الآمر الناهي و لا ترد

(1) ينظر سردار كافالام مادهوبانيكار << الوثنية والإسلام - تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقية>>، تر(أحمد فؤاد بلبع)، المجلس الأعلى للثقافة، ط2 ، ص 465.
(2) محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1، ص 104.
(3) ينظر المرجع نفسه، ص 100.
(4) المرجع نفسه، ص 101.

وإن كان الساحر صانع المطر هو الأكثر شهرة، وهو الآمر الناهي ولا ترد قراراته في القبيلة، ولا يسمح لأي ساحر آخر بالتنافس معه للتحكم في المطر، فهو يسيطر على أبناء القبيلة لأبعد الحدود، وحتى إن لم يرق إلى مرتبة الملك (الزعيم) فهو مرتبط أشد ارتباط بحكام القبيلة، وقد جرت العادة أن يكون صانع المطر هو الملك الزعيم حيث تضع القبيلة السلطة الكبرى بيده.

لقد ذكرت الروايات أنه عند قبائل الزولو بجنوب أفريقيا كان زعيما يدعى **تشاكا**، الذي اعتبر نفسه المتنبئ والعراف الوحيد في القبيلة، وصرح بأنه لن يسمح لأي عراف آخر بمنافسته، ولهذا فالملك في القبيلة لا يقوم بأي فعل دون استشارته والملك الساحر كائن مقدس يعامل باحترام شديد، كما كان << الملك في العصور المبكرة كاهنا في الأساس >>.[1]

يعتبر الملك مصدر كل السلطة في القبائل الأفريقية و<< قد جمع الملك فعلا السلطان الكهنوتي بالسلطان الدنيوي، ومن هنا نستطيع أن نفهم فكرة الملك الكاهن المتطبب، والملك الساحر المعبود، وباندثار هذه الفكرة استبدل بها الكاهن مستشار الملك ووزيره >>.[2]

يرى أحمد كمال زكي أن السحر هو نتاج لعجز إنسان الأساطير، وضعفه أمام ما يعترضه من صعوبات، ولهذا فقد ضل السحر الكهنوتي شرط الزعامة المطلقة، فقد عرفت عدة مدن حكمها سحرة ملوك، وتسلط عليها سحرة كهان على اعتبار أنهم مستشارين للملوك، فلما نفصل سحر الكهانة عن السلطة الدنيوية يحتل الكاهن المستشار مكانة لا تقل عن مكانة الملك نفسه. كما يتمتع كاهن القبيلة بكل ما يعين على فهم فكرة الإنسان الإله القادر على كل شيء.[3]

وبالنظر لهذه المرحلة المهمة في تطور المهام المتعلقة بالحكم في أفريقيا فقد ثبت في بعض المناطق بها وجود ملكين يحكمان، ملك ديني كهنوتي يتعلق حكمه بالجانب الديني وأمور الحياة الأخرى، وملك آخر دنيوي أنيطت به أمور الدنيا (السياسة والإدارة) ، غير أن الملك الأول

(1) ك.مادهوبانيكار<< الوثنية والإسلام >>، تر(أحمد بلبع)، ص 466 .
(2) أحمد كمال زكي << الأساطير دراسة حضارية مقارنة >>، ص 94.
(3) ينظر المرجع نفسه، ص 95.

السابق الذكر هو الذي يحظى بالقداسة والتبجيل، ويطلق عليه الملك المعبود أو الملك الصنم وهو الذي يتحكم بسقوط المطر وباقي الأمراض والأوبئة والكوارث.

يظهر هذا جليا في وسط أفريقيا وجنوبها، حيث يوجد << الملك الكهنوتي الذي يشرف على الشؤون الروحية لأبناء قبيلته، وهو الذي يرث عرشه عن سلالة آبائه وأجداده، قائد عسكري يرأس البلاد وهو يشرف على المجالات المدنية الدنيوية >>[1]، ولهذا عندما يموت الملك فإن مجلس العائلة ينعقد سرا من أجل تحديد من سيرث العرش، ومن يقع عليه الاختيار ثم يقومون بأخذه بالقوة ليتم تقييده بالحبال، ويضعونه في بيت يدعى بيت الأصنام، حتى تتم موافقته على الجلوس على العرش، وقد كان المختار ليجلس على العرش (الملك الكهنوتي) يتعرض لمخاطر جمة منها الجلد بالسوط من قبل شيوخ القبلية ليلية جلوسه على العرش، على أساس اختبار صبره وتحمله، وهذا حسب ما جاء في دستور البلاد.[2]

تصور الإنسان الأفريقي البدائي أن سيطرة الملك لا تقتصر على الطبيعة فحسب، بل تتعداها إلى السيطرة على الرعايا، ما جعله يعتقد أنها تمارس من خلال أفعال محددة للإرادة فإذا ما وقع جفاف أو مجاعة، أو كارثة معينة فإنهم يرجعونها لتقصير الملك في شأن معين فيقومون بمعاقبته وقد تصل لحد القتل، ومن هنا حددوا أفعاله كي لا تقع مثل هذه الكوارث وذلك من خلال بعض المحرمات التي ألزموه بالتقيد بها.

في المجتمع البدائي الأفريقي على الشاطئ الغربي لأفريقيا، وبالضبط في منطقة التمساح في رأس بادرون في جينيا السفلى، يعيش الملك **كاكولا** معزولا في الغابة وعليه عدم مغادرة المنزل، وقد حرم عليه لمس أي امرأة أو مغادرة مقعده، ولابد عليه من النوم جالسا على المقعد حتى لا يرتبك نظام الكون، لأن نومه على الفراش ممددا يجعل الرياح تتوقف، فيسبب ذلك توقف الملاحة في النهر.[3]

أما في منطقة جبل **أجو** في توغو فيوجد صنم معبود أو ما يدعى فتش يطلق عليه اسم **باجيا**

(1) محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر >>، ج1، ص 204.
(2) ينظر المصدر نفسه، ص 205.
(3) ينظر المصدر نفسه، ص 196.

حيث يتمتع بأهمية كبرى في كل المنطقة، وحتى في المناطق المجاورة، فهو بالنسبة لأفراد القبيلة السبب في سقوط الأمطار وهبوب الرياح، ويعيش هو وكهنته في منزل على قمة الجبل وهو بالنسبة لهم الرئيس الأعلى للبلاد، لكن دوره كصنم معبود تمنعه من مغادرة الجبل ولا يسمح له إلا مرة واحدة في السنة من أجل الذهاب للتسوق، ويجب أثناءها أن يتحرى عدم دخول أي كوخ من أكواخ القرية، فأعوانه هم من يقومون بتولي الشؤون الإدارية الحكومية.

فكلما زاد الملك قوة وجبروتا، كلما زادت المحرمات (التابو) المفروضة عليه، والتي يتوجب عليه التقيد بها بكل دقة وحرص، سواء في الأفعال المتعلقة بالوقوف أو الجلوس، أو السير وحتى الأكل والشرب... فكلها تخضع لتعليمات غاية في الدقة وجب عليه الالتزام بها حرفيا.

2 - ارتباط القبيلة بالأعراف:

العرف القبلي هو القانون الذي كان يسير أمور القبائل التي تحتكم جميعها إليه، وتعمل ببنوده وأحكامه، حيث كان بمثابة القانون النافذ الذي لا يجوز لأي قبيلة، أو أي فرد مخالفته بأي حال من الأحول. ويعتبر العرف والتقاليد والقوانين السائدة في المجتمع الأفريقي نتاج تأثر هذا الأخير بوظيفة السحر، حيث ترتكز السلطة السياسية القبلية في أيدي قلة من الرجال الأقوياء من أبناء القبيلة، والذين يتصفون بالحكمة والقوة والذكاء والمهارة، وهم لجان من شيوخ القبيلة المهرة الأقوياء.

يرى جيمس فريزر أن المفاهيم القديمة التي تعتبر الإنسان البدائي أكثر تحررا، وانطلاق من غيره، مفاهيم تجانب الصحة. فإذا كان الإنسان في مجتمعات أكثر تحضرا عبدا لسيد ظاهر فإنه في المجتمعات البدائية وخاصة الأفريقية عبدا للماضي ماثلا في أرواح الأجداد (الأسلاف)، وآباء القبيلة الذين يضربون حصارا صارما على خطواته منذ المهد وحتى اللحد يحد من حرياته وسلوكياته من خلال التقاليد القديمة البالية، التي تقيده بسلاسل من حديد.[1]

---

(1) ينظر المصدر السابق، ص 57.

إن القوانين القبلية قوانين غير مدونة، قام بصياغتها أجداد القبيلة الأولون، وخضع لها الفرد بدون أدنى تفكير أو نقد، فلا يمكن حتى مجرد التفكير في الخروج عن هذه التقاليد المتوارثة لأنه أمر غاية في الخطورة، قد يؤدي إلى الموت قتلا. فعلى الفرد في القبيلة إطاعتها طاعة عمياء، فلا مجال للتردد أو النقد، أو حتى التساؤل حول الهدف أو المغزى من العمل بهذا القانون أو العرف.

أ - مكانة العرف في القبيلة:

تحتل القوانين العرفية مكانة غاية في الأهمية لدى المجتمعات القبلية بصفة عامة، فهى ليست حكرا على قبلية أو أخرى، خاصة أنه لا توجد عشيرة أو مكون قبلي يعيش بمفرده (أي بمعزل عن العشائر والقبائل الأخرى) وهذا يعود طبعا للتقارب الكبير في ظروف الحياة والمعيشة والبيئة، وكذلك نتاج الاحتكاك الدائم بين تلك العشائر والقبائل، التي دفعتها متطلبات العيش - كالماء والكلأ - لذلك. بالإضافة إلى وجود تقارب وشبه كبيرين في العادات والتقاليد بين مختلف القبائل الأفريقية.

ويعرف بعض الباحثين القانون القبلي والقضاء العرفي بأنه تنظيم اجتماعي فرضته ظروف سياسية وإدارية معينة، وفي ظل غياب سلطة تنفيذية رادعة تضمن للناس الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية. ومما يجدر الإشارة إليه أن التنظيم العرفي نشأ نتيجة لهذه المقدمات وهذا التنظيم هو عبارة عن قوانين نقلية متوارثة أبا عن جد.

تختلف الأساطير الأفريقية والخرافات التي تتعرض للقوانين والعادات والأعراف، ومن تلك أسطورة **الملك المبتكر** لدى قبائل بوشونغو Bushoungo بالكونغو، وإن كانت لا تستثني السلف الأوائل الذين كانوا السبب في وجود القبائل والأعراف طبعا.

فهي تذهب إلى أن البشر الأول (السلف الأوائل) لم يكن سوى رجل مسن وامرأة لا ولد

لهما لكن أبواب السماء والرحمة فتحت لهما عن الخالق **بومازي**[1] Bomazi بلونه الأبيض الذي يرمز للطهارة والفرح[2]، كيف لا وهو الخالق الأعظم الذي يحمل الفرح لخلقه جميعا فقد بشر الزوجين بميلاد طفل لهما، لكنهما استهجنا ما سمعاه (وهنا تشابه مع قصة زكرياء النبي عندما بشرهما الخالق بميلاد ابن لهما، أين ضحكت الزوجة واستغربت الأمر لكبر سنها).

لكن لا شيء يعلو فوق مشيئة الخالق الأعظم، فقد رزقا بطفلة اقترن بها الخالق الأعظم بعدما كبرت، وأنجبا خمسة أطفال ذكور صاروا فيما بعد زعماء قبائل مختلفة، والعدد خمسة يرمز لألوهة السماء الكبرى[3]، فهو يمثل كل ما له علاقة بالمؤله والسماوي، كما يعبر عن الجسم البشري كذلك، فقد قدم **هيلويفارد برامين** على ارتباطها بالجسم البشري من خلال الحواس الخمسة، والنهايات الخمسة للجسم. فكان العدد خمسة العدد المثالي الذي يجمع بين الألوهي والبشري، كون هؤلاء الذكور نتاج اقتران بين الألوهي (الإله بومازي) والبشري (ابنة العجوز وزوجته).

ميلاد توأم من هذا الاقتران المقدس يرمز للتناسق والتكامل، وقد ارتبطت البنوة غالبا بالذكورة: ابن = ذكر، فمن خلال << صورة الابن تتمظهر توجهات السيطرة على الزمن من خلال رغبة الأهل في استمرارية النسل، ومن وجهة نظر تطورية يعتبر كل عنصر ثانوي ابنا للذي يسبقه، فالابن هو تكرار للأهل في الزمن أكثر من كونه مجرد مضاعفة إحصائية ومن المؤكد حسب نظرية رانك، أنه يوجد في كثير من الأساطير مضاعفة أبوية: مضاعفة الأب الحقيقي بالأب الأسطوري، حيث يكون الأول من أصل متواضع والآخر من أصل إلهي نبيل>>[4].

اقترن **وتو** Woto بثلاث زوجات، وغالبا ما نجد هذا العدد يتكرر في الأساطير والخرافات الأفريقية ، وهذا التكرار مرتبط بالزوجات، وهذا يدل على رمزية غاية في الدلالة

(1) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 157.
(2) ينظر جيلبير دوران << الأنثرو بولوجيا - رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر(مصباح الصمد)، ص 428.
(3) ينظر المرجع نفسه، ص 454.
(4) المرجع نفسه، ص 283،284.

والمعنى فالزواج تكامل وتناسق بين الطرفيين، وعندما يكون بين ثلاث زوجات وزوج فهذا يدل على ذروة التكامل والتناسق.

وتأتي جرأة ابن أخ **مولو** على زوجات هذا الأخير ربما عن عرف منتشر بين أفراد قبيلتهما، حيث لا ترى في هذه الفعلة الشيء المشين الذي تردعه الأعراف، والدليل على ذلك أنه صفح عن ابن أخيه بعدما توسل إليه، ثم قيامه بنفس الفعلة التي قام بها ابن أخيه، فهناك بعض القبائل الأفريقية التي تقرّ بالاختلاط الجنسي، ولا ترى فيه عيبا أو إثما، كما ترى بعض القبائل بتعدد الأزواج بالنسبة للمرأة، وقد كان متعارف عليه قبل تعدد الزوجات فيما بعد.

كما سبق ذكره فقد كان صاحب الذكاء والدهاء، والممسك بناصية القوة السحرية أولى من غيره في الحكم والزعامة، ولأن وتو كان يتمتع بهذه الصفات فقد نصبه الأقزام الذين ظهروا من تفتح أشجار الغابة زعيما عليهم وعلى قبيلتهم، وفي هذا إشارة إلى مصدر خلق الأقزام حيث تنظر إليهم القبائل ذات القامة الطويلة بأنهم خلق غير عادي، تسببت في ظهورهم الأعمال السحرية الخارقة.

ويعتبر الزعيم وتو بالنسبة لـ Shamba Bolo Ngongo زعيم القبيلة الجديد، السلف وقد نحى هذا الزعيم منحى جديدا نسب إليه، حيث عرف عنه رغبته الشديدة في السفر والترحال فهو يرى فيه الإلمام بالمعرفة والحكمة، وبمجرد عودته لقبيلته باشر تعليمه حرفا ما كانوا ليسمعوا بها ويدركوها لولا سفر زعيمهم، كما أدخل تعديلات في المعاملات بين أفراد القبيلة وسن أعرافا، منها حضر استخدام القوس والنشاب في الحروب رأفة منه بأبناء الإله - على حد تعبيره -

كما ثبت عنه سنه لقانون عرفي يؤسس لنصرة الحليف وأبناء القبيلة، الذين يتعرضون للظلم أو الاعتداء، حيث يعلن الحرب بدون أي تردد أو تخاذل، وقد منع قتل العدو إلا في حالة مقاومته، وجرم قتل النساء والأطفال أو إلحاق الأذى بهم في حالة الحرب. بالإضافة إلى قوانين عرفية أخرى تتعلق بعضها بالقضايا والمحاكمات وشهادة الزور... إلخ.

وكان يلجأ إلى الروايات من أجل فض النزاعات القائمة بين أفراد القبيلة ، وهذا الفعل أيضا

(فض النزاعات) من أعمال زعيم القبيلة، وأحيانا نجده منوطا برجل آخر يتسم بالحكمة والمعرفة. وبهذا يصبح كل ما دعى إليه الزعيم عرفا وجب على كل فرد من أفراد القبيلة الاحتكام إليه، واتباعه وعدم الإخلال به مهما كان وإلا كلفه ذلك حياته.

وعلى العموم تبقى الأعراف عند القبائل الأفريقية هي أساس الحياة داخل هذا المجتمع البدائي، ويعود ذلك إلى طبيعة حياتهم، التي قد تتسم في غالب الأحيان بالتنقل والترحال ما يجعلهم يلجئون إلى أعرافهم وعادتهم، حيث أن مجال العرف يتسع لكي يشمل كل مناحي الحياة البدائية، التي عرفت بها هذه القبائل. وقد حافظ هذا المجتمع القبلي على تركيبته وأعرافه نتيجة لعوامل عدة لا يتسع المجال لسردها، ولهذا فقد دأب أفراد القبيلة على تنظيم أعرافهم حسب تنظيمهم القبلي.

فنجد أن القبيلة تخضع لقوانين صارمة نظمتها التقاليد والأعراف، ويلجأ أفراد القبيلة في حال وقوع خلافات بينهم إلى محاكم قبلية خاصة لها قوانينها المتوارثة عن الأسلاف. فكل عرف رادع يهدف إلى حفظ أهم مقومات القبيلة، وبالتالي علو مكانة القاضي في القبيلة ليس بشيء عجيب، ولم يأت محض صدفه، فهو يتمتع بالثقة العالية التي لا تتزعزع كون أحكامه نابعة من أعراف العشائر وتقاليدها. وتتراوح الأحكام التي يصدرها قضاة القبيلة بين العقوبات المادية كالتعويضات، أو البدنية كالضرب أو القتل، وعقوبات معنوية كالإبعاد عن القبيلة.

ب - عادات وأعراف القبيلة:

تختلف العادات والأعراف القبلية في المجتمع الأفريقي من قبيلة إلى أخرى وحتى من عشيرة إلى أخرى، لكن هناك بعض العادات والأعراف ثبت وجودها في معظم القبائل والعشائر، أصبحت جزء لا يتجزأ من هويتها ومنها:

1-ب المثارات (الأخذ بالثأر):

إن الثأر هو« أخذ الرجل وقرابته بالثأر لقريبه، أو جاره، أو أخيه، أو ضيفه، أو إن الثأر

هو<< أخذ الرجل وقرابته بالثأر لقريبه، أو جاره، أو أخيه، أو ضيفه، أو جيرته >> [1] أو أي فرد من حلفه، << ويكون المثار بسفك الدم أو أخذ مقابل مال يدفع للمعتدي عليه >> [2] وهذه الأخيرة عقوبة عاجلة، وقد سمي بالمثار لأن فعل الثائر يشبه ثوران النار والمتفجرات. وللمثارات أنواع عدة منها:

2-ب مثار العاني: أي القريب الذي يكون من جهة الأم كما هو الحال بالنسبة للخال وأبنائه والخالات وأبنائهن فالفرد من قبيلة ما إذا اعتدى أحدهم من قبيلته على أفراد خؤولته فلابد من أخذ الثأر لهم، من خلال دم ينثر نصرة لهذه الخؤولة، أو مال يعطى كرد اعتبار للمجني عليه. [3]

3-ب مثار الجار: ويكون في حال الاعتداء على الجار في المسكن أو في القبيلة، فلابد من الأخذ بالثأر من خلال سفك الدم بيد جاره.

4-ب مثار الحليف: ويظهر من خلال استجارة قبيلة بقبيلة حليفة، أي بينهما حلف معين. وتبقى المثارات عديدة ومتعددة ولا يمكن حصرها في صفحات.

5-ب الجيرة:

وتكون بتوفير الأمن والحماية من القبيلة المجوّرة للجاني وقرابته، من خلال تهديد وتوبيخ المجني عليه وقرابته، فتقوم قرابة الجاني بطلب الجيرة والمنع من قبيلة أخرى تربطها بقبيلة الجاني، وقبيلة المجني عليه قرابة محددة، [4] وتكون لهذه الجيرة مدة محددة حسب الجناية وقد تكون المدة مفتوحة، وإذ اعتدت قرابة المجني عليه على أحد من قرابة الجاني، فإن القبيلة المجوّرة تقوم بأخذ المثار من قرابة المجني عليه، ومن أي فرد من أفرادها لاعتدائها على جيرتها، ثم تقوم بطلب حكم قبلي يرد اعتبارها.

---

(1) سعيد بن علي بن وهف القحطاني<< مجلة العادات والأعراف القبلية المخالفة للشريعة الإسلامية >>،1433 هـ ، ص 7.
(2) المرجع نفسه، ص 7.
(3) ينظر المرجع نفسه، ص 7،8.
(4) ينظر المرجع نفسه، ص 12.

6-ب الإرث في العرف القبلي:

لم يكن في البلاد الأفريقية قديما (أي أفريقيا البدائية) كما هو معروف نظام سياسي بمعنى الكلمة، وإنما كان يسود النظام القبلي والأعراف القبلية التي بموجبها يقسم الإرث، كون الأفارقة كانوا يعيشون في بيئة غاية في الصعوبة والتعقيد، ما جعل الحروب والمنازعات تتفشى في المجتمع بطريقة رهيبة. فكانت بذلك الغنائم أساس معيشتهم وإرثهم، كما كانت معيشتهم تعتمد على الصيد، ولهذا فإن التركات والإرث توزع وفق عاداتهم وتقاليدهم وأعرافه.

ولما كان المجتمع الإفريقي القبلي له أعرافه وتقاليده، التي ورثها والتي يسير بموجبها ولما كانت القوة في العرف القبلي تكاد تكون الوسيلة الوحيدة، التي تضمن سلامة القبيلة وساكنيها من الاعتداءات والإغارات، فإنه من أجل تحقيق ذلك يتوجب كثرة الفرسان المحاربين بقوتهم وقدرتهم على التصدي للأعداء، والدود عن حمى القبيلة، فإنه وحسب العرف والعادات القبلية الأفريقية يكون الحق في الإرث للرجال من الفرسان، ويراعى طبعا في ذلك النسب (أي درجة القرابة ومقدار قربها من المتوفي، بنوة أو أبوة).

أما المرأة حسب العرف القبلي، فهي ضمن التركة وهي في العديد من القبائل الأفريقية لا ترث بل تورث، خاصة إذا كانت ليست لها ولد فيقوم الأحق بالميراث من الأشخاص الأقرب للمتوفي بأخذ كل شيء بما فيهم المرأة، فهي تعتبر جزء من التركة.[1] لكن هذا ليس سائدا في كل القبائل الأفريقية، بل هو أمر يتفاوت بين قبيلة وأخرى، فمنها من تنصفها حقها ومنها من تحرمها إياه. وقد ذكرت أسطورة جبال كليمنجارو أنه << عندما توفي الوالدان تم تقسيم التركة بين البنات بالتساوي >>،[2] ومعنى هذا أنه قد ترث المرأة لدى بعض القبائل.

كما شاع بين القبائل الأفريقية << الزواج بالميراث >>،[3] فإذا ما توفي الرجل وترك زوجة أو زوجات، ورث أخوه أرملته، وفي حال ما لم يكن للزوج أخ ورثها أقرب الرجال إلى الزوج

(1) ينظر إبراهيم محمد علي << مجلة كلية العلوم الإسلامية >> مج6، العدد 12، 1433 هـ -2012 م.
(2) جيلبير دوران << الأنثروبولوحيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 154.
(3) جمعة محمد محمود << النظم الاجتماعية عند قدماء العرب السامين >>، القاهرة، 1949، ص 59.

نسبا ويرجع الدّارسون هذا إلى المحافظة على أموال المتوفي ضمن الأسرة ومنع ذهابها إلى الغير، كما يقصد به حماية اسم المتوفي وبقاء نسله مستمرا، لأنهم يقومون بنسب الأولاد من أخ المتوفي إلى هذا الأخير.

ج - الوشم لدى بعض قبائل أفريقيا:

إن أغلب القبائل الأفريقية - وخاصة البدائية منها - منغلقة على نفسها نتيجة عوامل (ليست هي مجال بحثنا)، فأفرادها يتحدون قسوة الطبيعة وجبروت الحيوانات المفترسة التي لا ترحم. ولهذه القبائل طقوسها الخاصة المختلفة والتي تمارس في أوقاتها ومناسباتها التي تستدعيها. هذه الطقوس القبلية تشكل وتنظم وتقنن حياة الفرد والجماعة، وترسخ مورث التقاليد الأفريقية.

ومن هذه التقاليد التي تميز بها الفرد الأفريقي في قبيلته: الوشم (علامات ونقوش على جلده)، فالإنسان البدائي الأفريقي حوّل عدة معايير وقوانين وسلوكيات إلى قيود تكبله وتميز انتمائه، وأجبر ذاته وغيره على احترامها والالتزام بها، فتحولت بذلك من سلوكيات عادية إلى قوانين، وأعراف وجب اتباعها والتسليم بها. فقد ألزم نفسه بعمليات الوشم (جرح الجسم وتشريح الجلد).

هناك أساطير وخرافات تروي أصل هذا العرف ، وجذوره في المجتمع الأفريقي والمصادر الأصلية لها، ومنها ما يذكر عن **جمعية بورو Poro** المتواجدة بغينيا والبلدان المجاورة لها، والتي تقول أن المجاعة في زمن قديم عمّت وانتشرت بشكل مخيف، فقلّت موارد الرزق، وتضاءلت. وفي وقت كانت النسوة من يتحكم بزمام الأمور في القبيلة، احتكرن هذه البضائع ورفعن الأسعار، فلم يعد بإمكان الرجال اقتناءها، وكرد فعل على هذه التصرفات المرفوضة جملة وتفصيلا، قرر الرجال قلب الموازين واسترجاع مكانتهم في القبيلة - بعد اجتماع سري - يكون تجسيد هذا القرار من خلال نحت أقنعة بشرية من قطع الخشب[1]، ومثبت

(1) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 137،138.

عليها قرون حيوانية و<< كل نحت هو تمثيل مادي ورمزي لشخصية، وجزء لا يتجزأ من الكون لكن فوق كل شيء كل نحت يناسب فترة من وعي الفرد، وتعبير عن حياته الداخلية >>[1]. وكان اختيارهم للقرون محاكاة لحيوانات أفريقيا، خاصة الثور الذي يرمز للألوهة والقوة والخصب و<< القرن رمز الطاقة وشعاع مرئي للقوة الخالقة >>[2].

لقد كانت هذه الأقنعة في بداية الأمر مجرد وسيلة ابتكرها الرجل الأفريقي؛ ليعيد هيبته ومكانته عند النساء وبين أفراد القبيلة في فترة خاصة وفي ظروف معينة، حيث ارتدوها وبثوا الرعب في نفوس النساء، وفرضوا وجودهم، خاصة وقد أحدثوا إلى جانب هذا الرعب من الأقنعة جروحا، وخدوشا على أجسام المتواجدين في السوق الذي هجموا عليه مدعين أن هذه الخدوش والجروح تمثل لهم عنصر حماية من الأرواح الشريرة.

في حين أصبحت هذه الأقنعة ضمن تقاليد القبائل الأفريقية، وعرفا من أعرافها التي لا يمكن التخلي عنها خاصة وهي إرث من الأسلاف الذين لا يخالف لهم عرف أو تقليد، حيث باتت احتفالاتهم لا تخلو من ارتداء هذه الأقنعة على اختلاف أشكالها، وألوانها وتعابيرها خاصة وأن زعيم الجمعية السرية المدعو **غبني** Gbeni يرتدي قناعا، ولا يظهر إلا في مناسبات معينة،[3] وهذا ما جعل هذه الأقنعة ترمز لأرواح الأسلاف وسلطتهم على أفراد القبيلة.

وتوجد روايات كثيرة تثبت انتشار هذا العرف بين القبائل الأفريقية، ومعظمها يكرس أحقية الرجال بارتداء الأقنعة من النساء، خاصة وأن الرجال أكثر جرأة وشجاعة من النساء وقد جاء هذا الطرح في دراسات **جيوفري بارينذر** حول الأسلاف والأعراف.

أما فيما يخص الجروح التي كانوا يحدثونها في أجسامهم فهي أخذت بعدا آخر، فقد أصبحت عملية تشريح الجسم (الوشم) - إن صح التعبير- واجبا وعرفا لا مناص من اتباعه فكل فرد ينتمي إلى القبيلة لابد له من القيام بهذه العملية التي ترسخ انتماءه إلى القبيلة وتنفيه.

---

(1) فيليب سيرنج << الرموز في الفن الأديان الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس)، ص 418،419.
(2) لوك بنوا << إشارات رموز وأساطير >>، تر (فايز كم نقش)، دارعويدات للنشر والطباعة، لبنان ط1، 2001، ص 46.
(3) ينظر جيوفري بارينذر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 138.

إن عملية الخدش أو الوشم تعزى لدى الباحثين بالأساس إلى طريقة عيش الإنسان الأفريقي القاسية والبدائية، فكونه على احتكاك دائم بالحيوانات البرية المتوحشة، التي تترك أثارا وعلامات على جسمه، هذا ما حدى به إلى البحث عن طرق مثلى تمكنه من ستر تلك العيوب والتشوهات التي لا مفر منها، حيث أصبحت غائرة راسخة في جلده وجسمه، فلم يجد أمامه من بد سوى تجميل تلك الندوب والجروح عن طريق التحكم فيها وجعلها وشما خاصا ومنظما.

يعتبر جسد الإنسان الأفريقي من أهم رموزه وعلاماته، التي يتم التعرف بها على شخصيته وطبيعته، وعواطفه، وميولاته، فهو يحاول أن يبرز جسمه في أبهى ما يكون وبالطريقة التي ترضيه وتريحه، ولأن الإنسان الأفريقي قليلا ما يرتدي اللباس فإنه يجعل لباسه الذي يتباهى به جلده. وإذا كان قد استعمل فراء الحيوانات للتنكر أو لتقليد الحيوان الطوطمي للقبيلة، أو من أجل بث الرعب في نفوس أعدائه، فإنه استعمل الخدوش والوشم ليشمل كل ما تقدم ذكره.

إضافة إلى ارتباط الوشم في بداية الأمر بالديانات القديمة، حيث كان تعبر كل ديانة بوشم معين يميزها عن غيرها ويرمز لآلهتها، كما كان وسيلة من الوسائل المتبعة في محاربة الشيطان، والسيطرة على الأرواح الشريرة، وإبطال السحر الذي يؤذي الإنسان الأفريقي. ويبقى لكل قبيلة تعبيرها الخاص بها، فمنها ما يعتبر تمييزا خاصا للقبيلة، حيث تعرف من خلاله فهو بمثابة العلامة أو الرمز الذي يشير إلى قبيلة بعينها.

الوشم ظاهرة ضاربة في القدم في كل المجتمعات البشرية، وقد عرفت في أفريقيا بشكل ملفت للانتباه، فقد كان الوشم تعويذة ضد الأرواح الشريرة، ووقاية من أذى السحر، وقد كانت القبائل الأفريقية تتخذ من بعض الحيوانات التي تعيش في جوارها حاميا وأمانا لها، كيف لا وهي تتخذ من أعضاء أجسامها طوطما تضعه على مداخل البيوت، أو يرسمه وشما على جسده،[1] ولهذا كانت عملية الوشم عملية غاية في الدقة، ويتبين ذلك من خلال الطقوس المتبعة في هذه العملية.

(1) ينظر محمد محي الدين صابر<< التغيير الحضاري في مجتمع أفريقي>>: دراسة أنثروبولوجية لقبائل الأزندي (نيام نيام) ومشروعات توطينها، دار عزة للنشر، السودان، ص 310.

أما الخدش فقد ارتبط ارتباطا وثيقا بطقس العبور الذي تمارسه القبائل الأفريقية للذكور الذين هم على وشك البلوغ، كما ارتبط بالانتماء القبلي، حيث اعتبر تدفق الدماء من جلد الإنسان الأفريقي ذو طاقة روحية عظيمة يكتسبها الفرد. ولهذا تجدهم يقدمون على شرب دماء القرابين كما هو الحال لدى قبيلة الماساي بتنزانيا، الذين يعيشون على دماء ولبن الأبقار.

وللوشم دوافع جمالية واجتماعية << فالتزيين هو تخط وسبق للجمال القائم في الطبيعة وابتداع لصور أخرى منه، وقد بدأ الإنسان يمارس التزيين على ذاته المادية، التي لم يكن يملك سواها فعكف عليها فصدا ووشما وكيا، فنقش بدنه بأشكال هندسة ورمزية مختلفة، حتى إذا بدأ ينفصل عن ذاته ويضيف إليها عناصر خارجية بدأ يتجه إلى تزيينها هي كذلك، فاحتفل بملابسه وحليه >>[1]. فتكون بهذا عملية الوشم والخدش عملية تزينية بالدرجة الأولى غرضها جمالي مثلها مثل القلائد والأساور والأقراط... التي يتزين بها أفراد القبيلة الأفريقية، وهي حمائل أي << كل ما يحمل ويعلق أو يوضع على شيء لحمايته >>[2].

بالتالي يكون الخدش أو الوشم عامل حماية من الأذى، وسببا لمنح القوة والخصب، وكل ما من شأنه جلب الراحة النفسية للفرد الأفريقي، والملاحظ أن عملية الخدش تمارس عادة في مرحلة مبكرة. كما اعتبر الخدش عملية تداوي وعلاج يقدمه سيد القبيلة أو طبيب القبيلة لأفراد قبيلته، لقناعتهم بفوائده العلاجية بعيدة المدى، ويقول **ميس بلاكمان**:<< أنه قد يكون للوشم فعالية في القضاء على وجع الرأس، وسعار الأسنان، والضعف البصري ومس الجن والأرواح>>[3].

يعتبر الخدش والوشم لدى المجتمعات البدائية الأفريقية ممارسة سحرية في الجسم، وهو بهذا يكون قد اكتسب طبيعية سحرية روحانية عقائدية، حيث ارتبطت هذه الممارسة بمعتقد ديني، وهو الاعتقاد الراسخ بعالم الأرواح واسترضاء القوى الغيبية المتعالية، وهذا ما يثبته ممارسة الخدش في << طقوس احتفالية روحانية تضفي قدسية على القبيلة ، فهم يعيشون من

(1) المرجع السابق، ص 310.
(2) المرجع نفسه، ص 309.
(3) المرجع نفسه، ص 310.

خلالها لحظات ينفصلون فيها عن وجودهم الدنيوي ليلتحقوا بالوجود المقدس، يمنحهم القوى السحرية مقابل أن يمنح الإنسان بدوره الألم >>[1]، فهذه العملية هي ظاهرة اجتماعية في القبيلة الأفريقية تقوم بإنماء الشعور الاجتماعي للقبلية والانتماء.

يعد سيد القبيلة المسؤول المباشر عن ازدهار القبيلـة، وحمايتها في حال تعرضها للأمراض، والكوارث، لذلك عادة ما تكون له علاقة وطيدة بساحر القبيلة وبأسياد النار <<الذين يكونون شخصيات ذوات عاهات أو ساق واحدة... ولكون سيد النار يتحمل الألم ويقوم بأعمال مناقضة لذلك، فإنه غالبا ما يكون ممتلكا القدرة على الشفاء ودمل الجراح وإعادة التشكيل بالنار >>[2].

إن الخدش أو الوشم يتم غالب الأحيان باستعمال الكي بالنار، ناهيك عن استعمال الآلات الحادة الأخرى، لكن تبقى النار محط افتتان الإنسان << فالنار هي أكثر الأشياء حيوية، وهي من بين كل الظواهر الظاهرة الوحيدة التي بإمكانها تقبل بنفس الوضوح القيمتين المتضادتين: الخير والشر >>[3].

وتبقى أهم الأسباب التي تجعل الفرد الأفريقي يميل إلى الوشم والخدش هو الهروب من السحر، لأنهم يتصورون أن الساحر بإمكانه إلحاق الأذى به عن طريق سحر المحاكاة، والتي يعتقد أنه بإمكان الساحر تعذيب الشخص الهدف أو حتى قتله من خلال قوته الروحية، والوشم في معتقدهم تغيير في الجسم يجعلهم في حماية دائمة، لأنهم سيختلفون في ملامحهم عن الأصل، فهذه الخدوش والندوب بمثابة تعاويذ ضد السحر.

3 - ارتباط القبيلة بالسلف:

تعتبر أفريقيا ما وراء الصحراء من أغنى البلدان بالديانات والعقائد المتنوعة والمختلفة في مظاهرها، والمتشابهة في بعض الأحيان في جذورها وأصولها، كما تتسم الأعراق بسلطة قبلية

(1) المرجع السابق، ص 115.
(2) جوزيف كيزيربو << تاريخ أفريقيا السوداء >>، تر (يوسف شلب الشام)، دار علاء الدين، سوريا، ص 505.
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 286.

غاية في الشدة والصرامة نادرا ما ينعتق الفرد من سطوتها. كما يتميز الفرد الأفريقي في قبيلته بالبساطة والعفوية التي تصل أحيانا إلى حد السذاجة، نتيجة عدة عوامل جعلت من القبائل الأفريقية تظل على ارتباطها العبادي الوثيق بالطبيعة وأرواح الأجداد (السلف). حيث أن الإنسان كان مفطورا على توجهه نحو وجهة عليا تفوقه قوة وقدرة، نتيجة إحساسه الدائم لافتقاره لقوة تحميه من سطوة الطبيعة، فقد لجأ إلى ما يعرف بالأرواح أو الوسائط أو السحر(الفتش) كبدائل للدين.

وعلى هذا الأساس يذهب **سيفج** Savage إلى أن أول مظهر من مظاهر الدين << عبادة القبيلة الرب والأمير >>[1]، حيث اعتبر عبادة الرب من أساسيات المعتقد لدى الشعوب، وهي الإيمان بالإله الخالق لهذا الكون، وهو إله غير مشخص، في حين عبادة الأمير تلي عبادة الرب، وهي بداية عبادة للإنسان مثله، لكنه أكثر منه درجة وعظمة، حيث يرى أنه نصف إله وهو خليفة الإله.

ويذهب **هاربرت سبنسر** Herbert Spencer إلى كون عبادة السلف أساس الأديان جميعا، وهي العقيدة التي نجدها سائدة لدى الشعوب الأفريقية - طبعا ليست الوحيدة - وكان سبنسر أول من أطلق مصطلح عبادة الأسلاف ancestor worship بعد أن تضاربت المصطلحات التي تصف دين الأفارقة وتنوعت. ومن الباحثين من يعترض على مصطلح دين الأفارقة في حد ذاته، فهناك من يرى أن الأمر ليس عبادة بالمعنى المعروف.

فللأسلاف دور كبير في المعتقدات التقليدية الأفريقية، ولكن تسمية الديانات الأفريقية بهذا الاسم يعد إفراطا في التبسيط للمصطلح... ويرى كثير من الباحثين أنه للأجداد احترام خاص فالأبناء يحرصون على إطعامهم واستشارة أرواحهم لأغراض علاجية روحية، ولكن ليس الأمر عبادة محضة كما اصطلح عليه.

(1) محمد عبد المعيد خان << الأساطير والخرافات عند العرب >>، ص 95.

أ - جذور عبادة الأسلاف:

تضاربت الآراء ووجهات النظر حول الأصول المتعلقة بظهور عبادة الأسلاف، لدرجة جعلت فيها منامات وأحلام الإنسان الأفريقي البدائي وراء هذه العبادة، حيث يعتقد أنه كان يرى في أحلامه أن الموتى قد عادوا، وهو يراهم ويكلمهم ويتعامل معهم، فكان يخلط بين الحقيقة والأحلام، ويعتبر أن أرواحهم عادت فعلا لتعيش بينهم، وأنها لا تترك دنياها بل تجيء بين الفينة والأخرى لتزور الأحياء وهم نيام...

لكن الأمر الثابت أن العبادة المتعلقة بعلم الأموات هي أكثر تعقيدا من التفسيرات المتقدمة وقد عكست لحد ماء الفوارق الطبقية والسياسية في المجتمع الأفريقي، ويتجلى من خلال طقوس الدفن التي كانت تقام للزعماء والملوك، فقد كانت تتميز بالفخامة والمهابة بدليل ما كان يوضع معهم من أشياء ثمينة، تعكس مكانتهم الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية.

وتؤكد الأبحاث والدراسات أن الزعماء والملوك الموتى كانوا مادة لعبادة القبائل الأفريقية البدائية، خاصة الذين مر على وفاتهم فترة طويلة من الزمن، حيث يعتبرون السلف الأول لهذه القبائل، وتكاد تكون هذه العبادة الأهم بين العبادات، كونها ارتبطت ارتباطا وثيقا بعبادة الأسلاف العشائرية، والأسلاف العائلية. هذه العبادة التي ثبت عدم انفصالها عن عبادة زعماء القبائل والعشائر من الأحياء، والأساطير التي تؤكد هذا الطرح كثيرة ومنها أسطورة جبال كيرنغايا التي تناولتها بالدراسة في المبحث السابق، حيث تؤكد أن السلف الأول أحق بالعبادة والإتباع، لأنهم الخلق الأول الذي خلقه الإله الأعظم، ومنحهم الحكمة والمعرفة والسبق.

فيعود لهم الفضل في تواجد القبائل والعشائر الأفريقية، التي انبثقت من ذريتهم (البنات التسع)، وبفضل صلواتهم وقرابينهم وصلاحهم، فقد قدموا للآلهة فروض الطاعة والولاء، فما كان منها إلا أن كافأتهم عن صلاحهم، فأعطتهم (الفتية التسعة) الذين اقترنوا ببناتهم فكانت البذرة التي تكاثرت منها القبائل وانتشرت، وتفرعت إلى بطون. ولهذا كان هؤلاء الرجال الثلاثة السلف الصالح لهذه القبائل، فكانوا أحق بالعبادة والاستشارة والتبجيل.

وتذهب المعتقدات الأفريقية القديمة إلى أن أرواح الأجداد (الأسلاف) لا تبتعد كثيرا عن الأماكن السكينة، فهي لا تغادر القبيلة ولا تحبذ التواجد في الأماكن المنخفضة بقدر ما تفضل الأماكن المرتفعة، لتكون على اطلاع بكل ما يجري بوضوح تام. ولأن الجبال والمرتفعات قريبة من السماء فقد كانت مقدسة، كونها قريبة من الخلق الأعظم، وبالتالي تكون على اتصال دائم به، وقريبا من هذا المعتقد كان يترك الملك أو الزعيم الحي في أعلى الجبل في غابة منفردا ولا يسمح بمغادرته إلا نادرا.

ويعتبر سبنسر أن << المصدر الأول لكل الديانات هو عبادة الأسلاف، وقد اتجهت العبادة إلى الأموات قبل اتجاهها إلى الطبيعة، أما كيف تحققت النقلة من عبادة الأسلاف إلى عبادة الآلهة في صورة أشخاص فعن طريق الكلام الإنساني، فهو يمتاز بالمجاز ويغرق في التشبيهات والاستعارات ولما كان البدائي يعجز عن التفريق بين المجاز والحقيقة، فقد حدثت النقلة من عبادة الأسلاف إلى عبادة الكائنات الإنسانية...>>.[1]

كما توجد أساطير عدة تنتشر في أنحاء كثيرة من أفريقيا تتطرق للسلف الأول كما هو الحال مع أسطورة ابن النهر، التي اعتبرت **لونغار** الابن البكر للإلهة، وأن الإنسان الأول خرج من النهر، فهو إذن السلف الأول من الخلق، وكان يعتبر بمثابة روح الإله الخالدة في الجسد الفاني، (وقد سبق وتعرضت لها) إلى جانب أسطورة **كينتو Kinto وخلفه**.

يعتبر **كنيتو** السلف الأول لقبائل بوغندا Buganda، الذي يشاع أنه توفي في الغابة لكن شيوخ القبائل وزعمائها لم يعلنوا ذلك،[2] وقد دأبت بعض القبائل إلى اللجوء لهذه الحيلة حتى لا تشيع الفوضى بين أفراد القبيلة، وتجنبا لطمع الطامعين في الحكم، والأهم من ذلك هو أن يظل مرجع روحي لكل القبائل، كما اعتادت القبائل الأفريقية دفن موتاها قريبة من المساكن وخاصة الزعماء منهم والأجداد، حتى تبقى أرواحهم تحوم قريبة منهم لتستأنس بهم، وتكون مصدر خير وسكينة وحماية لأفراد القبيلة.

(1) أرنست كاسيرر<< الدولة والأسطورة >>، تر (أحمد حمدي محمود)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1957 ص 39، 40.

(2) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 160.

وهناك رواية في هذا الصدد تقول أن زعيم قرية أفريقية كان ذو نفوذ وقوة، وبعد وفاته أخفي الخبر خشية انتشار الفوضى في القرية وانقسام أهلها وحصول الخصومات، لذلك كلفوا شخصا بتقليد صوته، وأخذوا عليه ميثاقا بأن لا يفشي السر.(1)

كما كان ملوك وزعماء القبائل يقومون باستشارة أرواح سلفهم ، ويذكر أن ملك يوروبا << جرت عادته أن يستشير أسلافه بانتظام. وفي داهومي وبنين توفد رسل بانتظام إلى السماء لإطلاع الأسلاف على أحداث الأرض >>.(2) وعرف عن ملوك وزعماء عدة لم يعلن موتهم لشعبهم إلا بعد مدة طويلة << ولدى ملوك بنين وأشانتي فروض دينية كثيرة، أهمها تقديم القرابين للأسلاف، فالملوك لا يموتون، وإنما يقصدون العالم الأخر، ويظل موتهم سرا حتى يرتقي العرش ملك جديد >>.(3) ويلف الزعيم عند موته بجلد البقر المقدس، ويدفن ويقوم الكاهن أو أحد أقربائه بحراسة القبر.

يتم أخذ فكه - بعد تفسخ لحمه - إلى المعبد، حيث يعتبر فكه مقدسا لأنه جزء من المقدس (باعتبار هذا السلف مقدس)، وقد اختير الفك تحديدا لأنه الجزء المتعلق بالكلام، فإذا ما تم استشارة روح السلف (المتوفى)، فإنه يتمكن من الحديث بواسطة فكه الموجود في المعبد ويشير عليهم بما هو أصلح لهم وللقبيلة. وتعتقد القبائل أن الخلف يفعل تماما مثل سلفه، وأنه يحدث له نفس ما حدث له، فقد اختفى ابنه الذي اعتلى العرش تماما كما حدث لأبيه، ولأن العرش متوارث فقد ورثه الحفيد **كامارا**، الذي تركته أمه وتزوجت من أحد ملوك القبائل المجاورة.

وتبيح القوانين الطوطمية للمرأة الزواج من خارج القبيلة، كما يعفى عنها إذا زنت لكنها تطرد من القبيلة، ويلقى بولدها في حفرة. ومع أن الأسطورة تدعي هذا إلا أنه للأمانة العلمية لا يوجد بين يدي ما يثبت أو ينفي هذا، غير أن الثابت يبين أن بعض القبائل الأفريقية لا تعاقب على فعل الزنا عقوبة كبيرة ، وأحيانا لا تقع العقوبة إطلاقا لأن الفعل يدخل في تقاليد القبيلة

(1) ينظر المرجع السابق، ص 136.
(2) ك. مادهو بانيكار << الوثنية والإسلام >>، تر (أحمد فؤاد بلبع)، ص 465.
(3) المرجع نفسه، ص 465.

حيث تروي معظم الأساطير أن الإنسان الأول كان يعيش في حالة من الفوضى التناسلية (الزيجة المشاعية)، وكانت العلاقة مع المرأة لا تقوم على أساس الزواج الذي يعد بالنسبة للحياة الإنسانية نظاما حديثا شرعته القوانين أو وضعته الآلهة.

يبدو أن الحروب كانت لا تكاد تنطفئ في القبائل الأفريقية حتى تعود لتشتعل من جديد وكان قدر الأفارقة أن يكتووا بنارها، ويعايشوا دمارها، فقد خلف ابن كيمارا ولدا بعدما قضى في الحرب مع قبيلة مجاورة، وكان هذا الولد نذير شؤم على جده، فقد اغتاله غدرا وبذلك حطم علاقة القرابة (قرابة الدم)، وذلك بإيعاز من أمه التي ملأت قلبه سوادا وضغينة على جده، وقد تم وضع فك جده في معبد كما فعل مع جده الأول (السلف الأول).

وبهذا الفعل وهذه الطقوس (حفظ فك الجد) ظهرت عبادة الأسلاف واستشارتهم وتقديسهم وترجع عبادة الأسلاف من الزعماء الخلق الأول (السلف الأول) إلى تنظيمات قبيلة وعشائرية وعائلية بدائية، حيث كانت نتاج تراتيل وصلوات وابتهالات خصت بها أرواح الموتى، وفي كثير من الأحيان أعضاء من أجسادهم يعتقد أن الروح كامنة فيها، هذه الابتهالات غالبا ما كانت مصحوبة بتقديم قرابين.

عبادة الأسلاف (الزعماء) في معظم القبائل الأفريقية اتخذت طابعا خاصا من التبجيل والمهابة، ففي كثير من الأحيان تقدم ضحايا بشرية كقرابين أثناء دفن الزعيم، فتتم التضحية بهم من أجل إرضاء روح الزعيم. وفي حال ملك من ملوك أفريقيا فإن عبادة الملك تقتضي اتباع طقوس خاصة، وهي دفن بعض الخدم والعبيد وأحيانا بعض المقربين للملك إلى جانبه حتى يقوم على خدمته في الحياة الأخرى.

وتعتبر القرابين التي كانت تدفن مع الملك الزعيم بمثابة عملية تواصلية، تتكفل برفع الأخبار للحاكم أو الزعيم المتوفى، حيث تعرفه بأحوال القبيلة، وتطلعه على ما يقع وكيفية سير الأمور، بحيث تضمن هذه الطقوس استمرار سلطة الزعيم الذي فارق الدنيا وانفصل عن الجماعة، وانتقالها إلى سطوة من نوع آخر تكون فيه ذات قوة وقهر.

اعتقد الأفارقة أن الروح تتمثل على عدة أشكال مختلفة ومتنوعة، قد تتمثل على هيئة ذبابة أو خنفساء، أو نحلة، أو أي شكل من الحيوانات والحشرات، بشرط أن يسمع لها صوت صاخب أو طنين يشير إلى أصوات الأرواح، التي لا يفهمها إلا الكهنة والعرافون وما دورانها حول المنازل إلا دليل واضح على عودة الروح لتفقد أهلها وأحوال القبيلة، فتبارك من يستحق ذلك وتعاقب من يستحق العقاب.

في المعتقد الشعبي الأفريقي يظهر أن الأرواح بإمكانها أن تتحول حسب سلوك صاحبها أثناء تواجدها في عالم الأحياء، إما روحا طيبة أو شريرة. كما يعتقد الأفريقي أن الأرواح تكون حتى بعد الوفاة مرتبطة بجسم صاحبها أو عضو منه، وذلك ما اعتقدته أسطورة كينتو حيث قاموا بأخذ الفك ووضعه في المعبد.

ترتبط عبادة الأسلاف وتقديس الزعماء والملوك بشكل من الأشكال بمسألة التناسخ، حيث اعتقد الفكر الأفريقي أن الشخص عندما يتوفى تنتقل روحه إلى جسد آخر سواء كان إنسانا أو حيوانا، يسخر للقيام بأعمال معينة، فإذا كان هذا الشخص شريرا فإن روحه تنتقل إلى جسد حيوان متوحش يقوم بأذية الناس، أما إذا كان طيبا فإن روحه تنتقل إلى جسد إنسان طيب يسخر لفعل الخير، ويحي حياة طيبة نظيفة بعيدة عن الشرور، ويثبت ذلك من خلال الأساطير التي تروى عن التناسخ، والتي سبق تناولها بالدراسة في فصل سابق.

ب - أساسيات عبادة الأسلاف:

يرتكز المعتقد الأفريقي على أساسيات عدة لعلى أهمها على الإطلاق - وإن كانت كلها مهمة - الإيمان بالرب أو الإله الخالق الأعظم، فهو خالق هذا الكون - وهذا أمر راسخ وأساسي في هذا المعتقد - والذي أطلقوا عليه عدة تسميات مثل الرب، الرب الخالق، الرب الجد... وإلى جانب الإيمان بالرب يوجد الإيمان بالآلهة والأرواح، والتي يعتقد أن الإله الأعظم قد خلقها لغاية معينة، وهي عديدة ومختلفة ولا يكاد يحصيها المرء. إلى جانب الإيمان بالسدانة وهم وسطاء بين الآلهة وعابديهم والمترجمون لحاجياتهم، والقائمون على الطقوس والترانيم

الاحتفالية، فهم حكماء وأطباء شعبيون وقضاة، وهم أشخاص يرتبطون بالبشر والآلهة في آن واحد.[1]

وفي ظل هذا الزخم الكبير لا يمكننا أن نهمل، أو ننسى بأي حال من الأحوال الأسلاف حيث يكن الإنسان الأفريقي لأرواح السلف احتراما وتبجيلا عظيمين، حيث يصرح **فرانسوا لابلاتين** بأن << بانتيون الأجداد ليس نسخة طبق الأصل لعالم الأحياء على غرار ما نجده في نظرية أفلاطون... فالأجداد الذين يتم ذكرهم وتمجيدهم مرات عديدة في اليوم هم بالأحرى قوة حافظة تمنح الحيوية، وتقوي القرية، وتضمن تناغمها، وتتيح تحييد قوى أخرى وإبعادها >>.[2]

إن إيمان الشعوب الأفريقية واعتقادهم راسخ بتجول أرواح أجدادهم في الكون، وبوجودها في كل مكان، وخاصة الأماكن القريبة جدا منه، ويعتقدون بوجود علاقة متينة تربطهم بهم واستشعارهم الدائم بوجود رقابة مستمرة تخصهم بالإحاطة والرعاية، فالموت في نظرهم ليس كما هو شائع فهو خلود النفس أو الروح، وما خروجها إلا بداية حياة جديدة تكون خارج جسده الفاني، وبهذا فالموت لديهم لا يحمل المعنى المتعارف عليه، بل هو تحول من حالة الفناء إلا حالة الخلود، أي تحول من الحالة المادية الفانية إلى الحالة الروحية الخالدة.

ويعد استمرار الأسلاف في وجودهم الحي بين الأهل - رغم وفاتهم - أمر مفروغ منه فهذه قبائل اليوروبا تعتبر أمواتهم من السلف ما يزالون بينهم، يعيشون جنبا إلى جنب بينهم مع الأحياء في العائلة الكبيرة، حيث يظل الأب المتوفى الذي يدعونه باباسي Babasi، أبي أو الأم المتوفاة ماثلين في حياة الأبناء، ويعاملان وكأنهما لا يزالان على قيد الحياة، فالمفارق كان للجسد الفاني، بينما الروح الخالدة هي باقية بينهم.[3]

---

(1) ينظر عاصم محمد حسن محمد << الديانات التقليدية في غرب أفريقيا (مدخل دراسي) >>، مجلة قراءات أفريقية، العدد الثالث، ذوالحجة 1429 هـ / ديسمبر 2008، شبكة الألوكة www.alukah.net بتاريخ:2014/03/25.

(2) فرانسوا لابلاتين << أبحاث في السحر>>، مجموعة دراسات،تر(محمد أسليم)، مطبعة سندي، مكناس، 1995، ص 65.

(3) ينظر عاصم محمد حسن محمد، <<الديانات التقليدية في غرب إفريقيا >>، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

وقد تجلى هذا المعتقد في أساطيرهم كما في أشعارهم، فهذا الشاعر السنغالي **بيراجو ديوب** Birago Diop يعبر بإيمان دافق عن معتقده تجاه أسلافه فيقول:

الذين ماتوا لم يذهبوا أبدا...

إنهم هناك... في الظلال الكثيفة...

الموتى ليسوا تحت الأرض...

إنهم في الأشجار حين تصدر حفيفا...

إنهم في الأخشاب حين تصدر أنينا...

إنهم في تلك المياه الجارية...

إنهم في الأكواخ... إنهم وسط الحشود...[1]

إن المعتقد الأفريقي بنى لأسلافه أرضا خاصة بأرواحهم، لا يلجها إلا من تحققت فيه شروط ثابتة لا يحيدون عنها، لعل أبرزها أن يكون للسلف بعض المزايا في إطار أعماله السابقة فيتوجب عليه أن يكون قد قدم أعمالا ونجاحات معينة تؤهله أن يتبوأ درجة معينة في هيكل أسلاف، فالسمعة الطيبة والأخلاق الحسنة، والقدوة والشرف ليست الصفات الوحيدة التي يجب توفرها في الأسلاف، بل لابد من وفاته عن عمر ناهز الكبر وعن أحفاد جاوزوا التاسعة والثلاثين (39 حفيدا). ناهيك عمن توفي منتحرا أو كان موته متعلقا بحادث عنيف... أو بسبب الجنون... فإنه يستثنى من الانتساب لهيكل الأسلاف، فهو فاقد الأهلية للدخول في منظومة الأسلاف.[2]

وقد أصيب الملك **تيمبو** Tembo في أسطورة كينتو وخلفه بالجنون ولولا تقديم قرابين بشرية ليبقي على حالته ولاستبعد من هيكل الأسلاف، ولأن السمك كما سلف ذكره يرمز

(1) ينظر المرجع السابق،www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.
(2) ينظر المرجع نفسه، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

للابتلاع، فهي تدل <<على إرادة إعادة الاعتبار للغرائز الأساسية... ما تعبر عنها الصور التي يكمل فيها نصف السمكة حيوان آخر أو نصف إنسان >>[1]. فالملك تيمبو جعل خلخالا مصنوعا من أعصاب رجل من زمرة السمك - التي تعتبر جدها الأول طوطم السمك - وقد شفي لأنه يعتقد بفاعلية هذه التعويذة الطوطمية في حمايته من هذا المرض.

كما شاع لدى المجتمع الأفريقي تبجيلهم لكبار السن بطريقة خاصة جدا، حيث يولون لهم الاهتمام والرعاية، ويبدو هذا بوضوح لدى القبائل الأكثر اعتقادا بسلطة الأسلاف الروحية فعامل السن في نظرهم عامل جد هام، ولا يمكن إسقاطه أو تفاديه أو عدم الالتفات إليه خاصة وأن كبير السن قد مر بتجارب عديدة ومختلفة على مدى مراحل حياته، وبهذا يكون قد اكتسب خبرة وبعد نظر كبيرين لا نجدهما لدى الشخص الذي لم يبلغ من العمر عتيا.

فالخبرة والتجربة تجعل من الإنسان صاحب حكمة، وهذه الأخيرة صفة من الصفات التي تؤهله ليجاور بها الرب، الذي يتصف بكل صفات الكمال. ولهذا نجد أن الأفريقي يعتبر كبير السن الذي توفي وهو يتصف بهذه الصفة قد ذهب وانتقل ليستريح مع الرب، وهذا ما تذهب إليه قبائل الميندي Mende بسيراليون، أما قبائل الكونكومبا فيرون أن الأسلاف ذهبوا إلى بيت الرب. كما تعتقد قبيلة الآكان بغانا أن الأسلاف يعملون كوسائط بين البشر والكائن الأسمى، وتستجاب الصلوات المرفوعة للرب بسرعة إذا مرت عبر الأسلاف.[2]

يتبين لنا بأن القبائل الأفريقية تعتقد جازما بأن الأسلاف يمارسون حياتهم بشكل عادي في في عالمهم الخاص (أرض الأرواح)، ولكنهم بحاجة إلى ما يعينهم على استكمال هذه الحياة من ماء وطعام. ولهذا نجد الأفارقة يقدمون القرابين للأسلاف، والمتمثلة في أطعمة معينة ومشروبات خاصة، حتى يتمكن الأسلاف من سد جوعهم وعطشهم وترى مارغريث غريل Margaret Greel أن الأسلاف يحتفظون بانفعالاتهم، ورغباتهم كما كانوا من قبل، فهم يشعرون بالجوع والعطش، والغضب والسرور، وينتقمون ممن يقوم بإهمالهم، ويمنحون

(1) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص193
(2) ينظر المرجع نفسه، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

الرعاية والرضى لكل من يعاملهم باحترام. ووفاء الأبناء اتجاه الأسلاف هو الذي يقيهم من الجوع والعطش إذا قدمت القرابين بصورة منتظمة.[1]

وهذا ما يفسر تواصل الأفارقة مع الأسلاف كلما أحسوا برغبة الأسلاف في إبداء نوع من الاهتمام، وهذا ما يعرفونه من خلال الأحلام وتكهن العرافين. ومن أجل تحقيق وتجسيد هذه الاعتقادات الشائعة بين أبناء القبائل الأفريقية، فقد اتبعت طريقة خاصة تمكن هذا التواصل من خلال ما يعرف بطقس الإراقة * Libation، فهم يقومون بإطعام السلف قبل أن يطعموا أنفسهم، ولهذا ثبت عن قبيلة الآكان وضع الماء في متناول الأسلاف قبل النوم لأنهم أثناء تجوالهم في البيوت ليلا يشربون الماء.[2]

ج - طقوس الأسلاف:

من بين الطقوس التي تعرضنا لها طقوس الإراقة التي تختص بإطعام أرواح الأسلاف من خلال القرابين المقدمة، لكن هناك طقس غاية في الأهمية والتمييز ألا وهو طقس كرسي الأسلاف، الذي تتميز به معظم القبائل الأفريقية، لكنه لدى قبائل الإيفي والآكان، والآشانتي له تقدير ودلالة خاصين، فهو يرمز للأسلاف والرؤساء في القبيلة.

وأسطورة **العرش المقدس هبة السماء** تبدأ هذه الأسطورة بملمح سياسي قبلي، فقد بينت الحالة السياسية التي كانت سائدة في القبيلة، حيث كانت تابعة في الحكم إلى قبائل أخرى أكثر قوة منها، فقد كانت خاضعة لحاكم مستبد عاث في الأرض فسادا، وأنهك الرعية بظلمه وجبروته، ولم يجد من يقف حائلا بينه وبين أفعاله السلطوية سوى رجل يدعى أنوتشي، لكنه لم يكن رجلا عاديا بل كان الساحر.[3] والذي سبق وأشرنا إلى مكانته في القبيلة في مبحث السحر في المجتمع الإفريقي.

---

(1) ينظر المرجع السابق، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

* طقس الإراقة: طقس وثني يعتمد على إراقة بعض الخمور على الأرض استرضاء للأرواح والآلهة.

(2) ينظر المرجع نفسه، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

(3) ينظر حسن عبد الغفار << الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث >>، ص59.

إن الأسطورة تكرس تقديس العرش الملكي، وذلك من خلال سيطرة الرجل الساحر على عقول وقلوب أهل القبيلة، حيث أرسل تعاويذه السحرية وطمس بها أعين الملك وعائلته وبعدما أخد منهم قلامات أظافر وبعض الشعر قام بإعداد وصفة سحرية، تمكنه من السيطرة على عقول وقلوب الأهالي، ليحركهم نحو الهدف الذي يصبو إلى تحقيقه.

فكان له ذلك حيث ثارت القبيلة وانتفضت، لتستعيد العرش المقدس وتستولي على حلي الزوجة، وتصنع منها قربانا للكرسي المقدس، الذي يمثل لهذه القبائل رمز السيادة والاستمرار. وقد ثبت أن هذا الكرسي موجود فعلا ، حيث << يذكر أنه عندما غزا البريطانيون قبائل أشانتي وتمكنوا من الاستيلاء على الكرسي خضعت القبائل خوفا على تحطم الكرسي ولكن إلى حين، فعندما استولى البريطانيون على الكرسي وحاولوا الجلوس عليه، ثارت القبيلة وعادوا إلى محاربة البريطانيين واختفى العرش الذهبي المقدس >>.[1]

فالقبيلة لا تسمح بأن يأخذ منها كرسي العرش، أو يعتدى عليه بالجلوس، فمن أجله تقوم حروب وتزهق أرواح، وقد يقومون بدفنه مع صاحبه المتوفى ضمان لعدم جلوس أحد آخر غير مرغوب فيه. فغالبا ما يكون الملك الذي يحكم هذه القبائل قدس كذلك بالنسبة لهم، ولهذا فإن أي اعتداء على الكرسي (العرش) هو اعتداء على قداسة ملكهم.

عندما يحدث ويختفي هذا العرش فإنهم يرجعونه إلى أرواح السلف التي تقوم على حمايته من الأعداء. فكرسي (العرش) قبائل الأشانتي يروى أنه << أعيد إلى القصر الملكي في كوماسي رمز السلف المقدس عند قبائل الأشانتي، وإنه عندما اقترنت الأميرة البريطانية ماري عام 1922 أرسلت لها ملكة أشانتي كرسيا مصنوعا من الفضة ومعه رسالة جاء فيها أن حبهم مرتبط بالمقعد الذي تم طلاؤه بالفضة، تماما كما اعتدنا ربط أرواحنا في مقعدنا المقدس >>.[2]

ويذكر أنه لدى قبيلة الآكان مهرجانا خاصا بكرسي الأسلاف يوسم بـ Adae، في هذا المهرجان تحتفل بكراسي الأسلاف العظماء ، فالقبيلة تعتقد بعلو شأن الجد الذي توفي على هذا

(1) المرجع السابق، ص 60،61.
(2) المرجع نفسه، ص 61.

الكرسي المقدس إلى مرتبة مرموقة في هيكل الأسلاف، فموت الجد على هذا الكرسي يعتبر ضمن الشروط الخاصة بالانضمام إلى منظومة الأسلاف.

هذا الطقس يقوم على تسويد الكراسي (أي جعلها سوداء)، لتوضع في بيت خاص بكراسي رؤساء القبائل المتوفين، حيث كان كل رئيس قبيلة يقوم بنحت كرسيه الخاص وذلك من شجرة معينة، وهي شجرة Funtu miaafricana، أو شجرة Alstniabonei على وجه التحديد وحال وفاته فإنه يغسل وهو جالس على كرسيه المنحوت، ليحفظ الكرسي فيما بعد - أي بعد دفنه - في بيت الكراسي بعد أن يمر على طقس التسويد، الذي يذكر له موعد محدد.[1]

لقد اعتاد أفراد القبيلة غسل الكراسي القديمة بالماء في طست ليتم غسل الكرسي الجديد بنفس الماء الذي غسلت به الكراسي القديمة، ليضمنوا الاندماج الكلي للكرسي الجديد بسلفه الكراسي القديمة، ليكون بعد ذلك دور تسويده بمادة ذات لون أسود خلطت بمح البيض وبعدها يتم تلطيخه بدم شاة وقطعة من الشحم، وعند الانتهاء من الاحتفال تعاد الكراسي القديمة إلى بيتها ومعها الكرسي الجديد، وتقام هذه الطقوس ليلا ومرتان كل اثنان وأربعون يوما.[2]

يعتبر هذا الطقس من بين الطقوس المهمة التي تحتل مكانة عالية خاصة في الاحتفال الجنائزي لزعيم القبيلة السابق، فزعيم القبيلة الجديد هو المسؤول عن هذا العيد بكل طقوسه لأنه يعتبر الوريث الشرعي للأسلاف، حيث يرتبط روحيا مع أسلافه، وتكون العلاقة أوطد من خلال إبداء احترامه الكبير في أرواح الأسلاف، وإبراز وفائه.

أما على الخطوات الأساسية للطقوس فتتجلى في خروج زعيم القبيلة وشيوخها صباحا ليدخلوا بيت الكراسي فيدخل الزعيم والشيوخ وقد خلعوا نعالهم، وكشفوا صدورهم احتراما للأسلاف ويلقون التحية، ليتم طقس الإراقة، وينادى الأسلاف كل باسمه، لتذبح الشاة ويلطخ الكرسي الجديد بدمها، ويحضر طعام خاص بالاحتفال ويبايع الزعيم الجديد رسميا، ثم يقدم بعد

---

(1) ينظر عاصم محمد حسن محمد << الديانات التقليدية في غرب إفريقيا >>، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.
(2) ينظر المرجع نفسه، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

ذلك الطعام لأرواح الأسلاف، بعد أن يغسل الأسلاف أيديهم، ثم يتبعهم الزعيم ليكون خلفهم في كل شيء، حيث يتم تذوق الطعام من قبله ليترك المكان والشيوخ لأرواح الأسلاف.[1]

في نهاية هذا الاحتفال الطقسي يكون الزعيم الجديد قد ارتبط ارتباطا وثيقا بروح أسلافه وقد أرضاها غاية الرضى. إذا كان الكرسي لدى قبيلة الآكان ملطخ بالسواد ثم بدم شاة، فإنه عند قبائل الأشانتي يلطخ بدم بشري، فعندما يموت الملك تجتمع أخواته وأبناؤهن - وليس إخوته لأن نظام التوريث طوطمي، أي يتم بالخؤولة - فتقدم إحدى الأخوات دم أحد أبنائها المؤهل لخلافة الملك، وبهذا يعد هو كذلك من الأسلاف المبجلين.

د - الأسلاف عند بعض القبائل الأفريقية وطقوس تعظيمهم:

سنحاول الوقوف على الأسلاف عند بعض القبائل الأفريقية، وطقوس تعظيمهم نظرا للتنوع والزخم الكبير، الذي تتميز به القبائل الأفريقية على امتداد النطاق الجغرافي الواسع بغية اكتشاف هذه الثروة الخام.

1-د الأسلاف عند قبائل الفون Fon في بنين:

تميزت قبائل الفون بارتباطها الوثيق بالأنهار والمياه، وهذا لم يأت اعتباطا بل يرجع لاعتقادها بأن أرواح أجدادهم الأسلاف تعيش بالقرب من المياه والأنهار، أو داخلها ولهذا يذهب السدان في بداية شهر ماي إلى النهر حاملا معه القدر الحصير ويبدأ بدعائه المخصص للأسلاف، حتى يخرجوا من أعماق النهر ويدخلوا القدور، ويستمر في دعائه حتى يعتقد أن الأرواح استجابت لندائه ودخلت القدور، حينها فقط يقفل راجعا إلى القرية لإتمام ما تبقى من طقوس.[2]

توضع القدور في المذبح المخصص للقرابين داخل المعبد، ليقوم بعدها السدان بوظيفته المتمثلة في الوساطة بين أرواح الأسلاف وأبناء القبيلة، وترمز القدور إلى القداسة والحياة المتجددة والبعث.

---

(1) ينظر المرجع السابق، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

(2) ينظر عاصم محمد حسن محمد << الديانات التقليدية في غرب إفريقيا >>، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

2-د الأسلاف عند قبائل الإيفي Ewe بتوغو:

عرف عن قبائل الإيفي إيمانها المطلق بسلطة الأجداد التي لا حدود لها، وبأنها خير وسيط بينها وبين الرب كون أرواحهم قد انتقلت للسكن في بيت الرب، وبحكم جوارهم لهذا الأخير فهم أحق بالشفاعة من غيرهم، ولهذا فهم يقومون باستشارتهم في كل الأمور والقضايا وحتى الأحداث، فإذا ما قدر ووقعت كارثة معينة كالمرض أو القحط... فإنهم يتوجهون بصلواتهم لروح الأسلاف الأول فالأول، حتى يصلوا إلى الرب الذي يطلقون عليه اسم **ماوو**، كما يستشيرونه في أمور سعيدة كالزواج، حتى يباركه وينجح هذا الزواج.[1]

3-د الأسلاف عند قبائل المندي بسيراليون:

نتيجة للدور الهام والخطير الذي تلعبه أرواح الأسلاف في حياة أفراد قبيلة المندي باعتبارهم وسائط روحيين يشعرون بما سيحدث في المستقبل القريب، فإن أفراد القبيلة يقومون احتفالات طقوسية تتعلق بما سيحدث من أمور. ولعل أهم المواسم التي تستدعى فيها أرواح الأسلاف هو موسم الحصاد.

فيقام احتفال طقوسي يتكون من قسمين: الأول يكون في بداية الموسم خلال شهر سبتمبر والثاني حينما يحين الحصاد، الذي يختص بالأسلاف حيث تتم مناداة أرواحهم تباعا كل واحد باسمه مع وضع الحبوب في المكان المخصص للاحتفال، ليعودوا في اليوم الموالي وقد حمل المسؤول عن الطقس زهرة الأرز المصنوعة من أوراق الأرز المحصودة في ذلك الموسم موضوعة على ورقة الموز،ويخاطب أرواح الأسلاف طلبا من الحماية من الهوام والحيوانات.[1]

لينتهي الطقس بتوجه مجموعة من أفراد القبيلة لصيد بعض الحيوانات التي تقدم كقرابين لأرواح الأجداد (الأسلاف)، ليتم في اليوم التالي طبخ الأرز مع زيت النخيل المقدس ولحوم الحيوانات المصيدة، وطبعا يصاحبه طقس الإراقة مع وضع الطعام على ورقة الموز التي توضع على الحجر المقدس المخصص لهذه الطقوس.

(1) ينظر المرجع السابق، www.alukat.net بتاريخ:2014/03/25.

4-د الإسلاف عند الإيقوEgun بنين:

لقد ثبت عن هذه القبيلة طقوسا غاية في الغرابة، تختلف اختلافا كليا عن غيرها من القبائل التي سبق وأن تعرضت لها، فهم يلجؤون إلى نبش قبور أسلافهم بعد سبعة أو تسعة أشهر من الدفن ليخرجوا جماجمهم، فالنساء تنبش قبورهن بعد سبعة أشهر... في حين تنبش قبور الرجال بعد تسعة أشهر تغسل بعدها الجماجم غسلا جيدا، وترش بدماء الديوك الصغار وهذه العملية تتم تحضيرا ليوم الاحتفال، الذي سيقام تشريفا وتعظيما لروح الموتى الأسلاف.

5-د الأسلاف وطقوس الجمعيات السرية:

توجد بأفريقيا جمعيات سرية ارتبط وجودها بالسلف وهي تنتشر بشكل واسع النطاق بين القبائل الأفريقية، ومن أهم ما تقوم به تدشين الشباب وتمثيل الأموات من الأسلاف، وتعتمد طقوس دينية مميزة حيث يرتدي مسؤولوا تلك الجمعيات أقنعة وملابس زاهية مزركشة بألوان وأشكال أفريقية الروح، وتمتلك هذه الجمعيات أساطيرها الخاصة السرية، التي تحفظ وجودها واستمرارها. ومن أشهرها جمعية بورو لدى قبائل ميندي*، وهي نفسها مرتبطة بجمعيات سرية أخرى بغرب القارة.[1]

وتتعدد الروايات التي تؤرخ لهذه الجمعية منها ما يذكر أن زعيم القبيلة الشيخ كانت يمتلك أراضي واسعة لذلك اعتبره أهالي القرية زعيما عليهم، وهذه فعلا من الشروط الأساسية التي لا يتنازل عنها الأفارقة لإقرار أحدهم زعيما للقبيلة (المال والسن الكبيرة)، لكن الرواية تذكر أنه قدر وأصيب هذا الزعيم في أنفه بمرض نادر جعل من صوته مميزا ومخيفا فقرروا عزله في الغابة، ومنعوا عنه أفراد القبيلة إلا ابنته وزوجته، لكن تغير الحال حينما عزم شيوخ القبيلة وأهل القرار قتله - خاصة وأن لا أحد قابله منذ مدة - فقد حاولوا تقليد صوته من خلال آلة صنعوها من مواد بسيطة، ليعوضوا غيابه مدعين أنه تحول إلى روح.[2]

---

* وتعني بدون نهاية.

(1) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 135،136.

(2) ينظر المرجع السابق، ص 136.

لقد دأب أصحاب القرار في القبيلة على ادعائهم تحول الزعيم إلى روح، وعدم البوح بموته كما جرت العادة. وإشاعة تحوله إلى روح يكفل تعظيمه وتبجيله، وعلو مكانته بين أفراد القبيلة، خاصة وأنهم يعظمون السلف، وبالتالي يتحكمون في أمور القبيلة كيف ما شاؤوا.

الفصل الثالث

صورة عن الحياة الاجتماعية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية

1- الزواج والولادة في الأساطير والخرافات الأفريقية:

تعتبر قضية الزواج والولادة من القضايا الهامة التي لم يغفل فكر الإنسان الأفريقي البدائي عن الانشغال بها، وهذا يتبين جليا من خلال الأساطير والخرافات التي أنتجها خياله الواسع.

أ - غموض الزواج والولادة:

لقد تعرضت الكثير من الأساطير والخرافات الأفريقية إلى مسألة الغموض المتعلق بالزواج والولادة، فالولادة تشكل << التجربة الأولى للسقوط نحو الأسفل، وكما يبدو عند بعض الشعوب التي تمثل الولادة في طقوسها سقوطا للوليد على الأرض. فهي تشكل في خيال الطفل تأكيدا لصدمة رانك التي تعني عند قدماء المكسيكيين الهبوط من السماء >>.[1]

والروايات التي تسردها قبائل **الأشانتي Ashanti** المتواجدة بغانا تعكس ذلك فالأسطورة تبين عدول الرجل و المرأة عن الزواج والاقتران وانصرافهما عنه، السبب الذي جعلهما بدون أولاد، و قد لاحظت ذلك الأفعى (أفعى النهر) التي تحمل دلالة مثقلة، ومن بينها ارتباطها بالخصب والجنس ، والتي تقدم خدمات لباقي المخلوقات،[2] وقد تجلى هذا واضحا في الأسطورة، حيث دلت الرجل والمرأة على طريقة البناء معتمدة على طقوس معينة يعتقد أنها مازالت جارية المفعول من قبل أفراد القبيلة خلال طقوس الزواج.

يفسر هذا على أن الأفعى (أفعى النهر)- حسب الاعتقاد الأفريقي - هي سر تكاثر الإنسان على الأرض، بحيث ألقت الرغبة في نفسيهما (الرجل والمرأة) وسهلت لهما عملية الاقتران ثم نفخت في أولادهما من روح النهر الذي تأوي فيه، وكأنها نفخت فيهم من روحها فالأفعى هي رمز إله الينابيع والمياه التحت أرضية << وقد أسند إلى الثعابين ولادة عجيبة: وتلك هي حالة الاسكندر الكبير وسيبيون الأفريقي >>.[3]

لهذا فالاعتقاد لدى هذه القبائل يذهب إلى أن الأفعى هي الروح التي بعثت بجنسهم إلى الحياة والتكاثر على الأرض، وحسب اعتقاد قديم << فثعبان الجنة الأرضية قد أغوى حواء

(1) جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر(مصباح الصمد) ، ص86،87.
(2) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية>>، تر (حسن هيثم الطريحي) ، ص 68.
(3) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 144.

ليس بالمعنى المجازي أخلاقيا، إنما بالمعني الحقيقي طبيعيا >>[1]، وقد يفسر هذا الإحاطة التامة للأفعى بخبايا العلاقة الزوجية، وكشف أسرارها للإنسان الأفريقي الذي غابت عنه هذه الحقيقة وبالتالي قد حرموا قتل أفعى الماء وإذا صدف ووجدوها ميتة، فإنهم يقومون بدفنها في الطين الأبيض - الذي يرمز للنقاء والطهارة - تقديسا لها.

وإذا كانت هذه الأسطورة تكرس عدم رغبة ومعرفة الإنسان الأفريقي بالزواج والاقتران فإن أسطورة **أقزام أفريقيا** تنحو منحى آخر، حيث تبين أن الإنسان القزم -الذي هو ابن الإله حسب اعتقادهم - كان على علم مسبق بطريقة الاتحاد بين الرجل والمرأة، على غرار أخيه الزنجي الذي كان يجهل ذلك جهلا تاما[2].

الإشارة إلى القزم -الذي هو رمز جنسي مصغر- في هذه الأسطورة تبين وتؤكد وجود قبائل افريقية أهلها من الأقزام، ونظرا لجسمهم المتميز عن جسم الأفارقة الزنوج، فإنه ساد اعتقاد بينهم أن الأقزام هم أبناء الإله، ولهذا فهم يتميزون عن غيرهم بالمعرفة والاطلاع على الخبايا الإلهية، لأن بإمكانهم الاتصال بالسماء، ويظهر ذلك من خلال علمه المسبق بسبب نزيف أخته، في حين أخوه الزنجي يجهل السبب.

ينم اقتران القزم بأخته عن عادات اجتماعية تسود لدى قبائل أشانتي بغانا، تسمح باقتران الأخ بأخته، ولا ترى في ذلك تعديا على الطبيعة ومخالفة للفطرة، وقد ثبت وجود هذا العرف (التقليد) لدى بعض القبائل الأفريقية الأخرى. كم يتبين من خلال اقتران الأخ الزنجي هو كذلك بأخته بعدما وطأها أخوه القزم عادة أخرى تتبناها بعض القبائل الأفريقية، هذه الممارسات التي تعاكس الطبيعة، وتخالف ماهو متعارف عليه تعكس فكرا غائرا في البدائية ومع هذا فهو يمثل ثقافة شعب له طبوعه التي تميزه، وتجعله يتفرد عن غيره من الشعوب.

ونجد لدى **أقزام أفريقيا** أسطورة تكرس اقتران المرأة (الإنسان) بظاهرة من ظواهر الطبيعة أو بصيغة أخرى بإله البرق[3]، فغالبا ما تذكر الأساطير هذه الظواهر الطبيعية كآلهة

(1) المرجع السابق، ص 144.
(2) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 68، 69.
(3) ينظر المرجع نفسه، ص 69.

لكنها تتصف بصفة البشرية، فهي تتزوج ولها مشاعر إنسانية. لقد بينت الأسطورة أن البرق رغم كونه إله يملك قوى خارقة، إلا أنه ليس لديه علم بالطريقة التي تمكنه من إنجاب الأولاد.

يبدو أن القمر هذه المرة قد قام بدور الناصح والموجه، فقد نصح البرق بالاقتران بالمرأة بدل أن يعيش معها حياة بريئة، ويتضح أن القمر كان سببا في جعل المرأة تطمث شهريا لتسهل عملية جلب الأطفال، وهذا الدور الذي قام به القمر ينبع من صفاته ورمزيته فهو يولد، وينمو، ثم يتناقص ويموت (يختفي) خلال شهر واحد، ثم يعاود الولادة من جديد فقد ارتبط بالولادة والحياة والموت، ولهذا فرمزيته ارتبطت بالخصوبة ودورة الطمث النسوية فموت وبعث القمر يفسر الدور الكبير الذي يلعبه في الحفلات التكريسية للمجتمعات البدائية والمتعلقة ببلوغ وخصوبة الذكور.[1]

يظهر لنا هذا الدور الكبير الذي يلعبه القمر في شعائر الولادة والنمو، هذا ما جعل مرسيا الياد يقول بحق:<< إن حاولنا أن نلخص بعبارة واحدة تعدد الدلالات القمرية فإننا نستطيع القول أنها تعبر عن الحياة التي تتجدد على الدوام، القمر حي لا يفنى وفي حالة شباب دائم >>.[2] ولأجل ارتباط القمر بالحيض فإنه عند تناقصه يقولون عنه أنه قد جاءته العادة << فبالنسبة للإنسان البدائي، كما يلاحظ **هاردنغ** يبدو التزامن بين العادة الشهرية للمرأة ودورة القمر برهانا أكيدا على وجود ارتباط خفي بينهما، هذا التماثل بين القمر والحيض يظهر في كثير من الأساطير التي تجعل من القمر أو من حيوان قمري الزوج الأول لكل النساء >>[3]، لهذا في بعض الأساطير يظهر الثعبان وهو يضاجع النساء بصفته حيوانا قمريا (أسطورة عند قبائل غرب أفريقيا).

تعتقد القبائل الأفريقية (قبائل الأقزام) أن الجنس الأبيض هو من ظهر إلى الوجود أولا من خلال ، اتحاد البرق بالمرأة (السلف)، ولهذا كانوا سباقين للوجود في هذا العالم ، في حين يأتي

(1) ينظر فليب سيرنج << الرموز في الفن الأديان الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس)، ص 382، 383.
(2) المرجع نفسه، ص 272.
(3) جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 77.

الجنس الأسمر بعدهم (طبعا في الولادة)، معنى هذا أن الجنس الأبيض والجنس الأسمر أخوان من أب واحد وأم واحدة.

ويظهر لدى بعض القبائل الأفريقية نوع من الغموض حول الولادات غير الطبيعية، أي ولادة أطفال مشوهين غير طبيعيين، فهذه الولادات تدخل الرعب والخوف لدى القبائل ويخشونها عادة، حيث يعتبرونها فأل شر ولهذا فإنه إذا ولد لهم طفل مشوه الأعضاء، أو في يده أو رجله أصبع إضافي، فإنهم يقومون برميه على حافة النهر التي عادة ما تمتلئ بالتماسيح والوحوش.[1]

كما تعتقد بعض القبائل الأفريقية أن بعض الأطفال الذين يموتون في بطون أمهاتهم، أي يولدون أمواتا وتكون على أجسامهم علامة معينة، فإن هذه العلامة تظهر على الطفل الذي يظهر حديثا، وأن روح الطفل الميت تنتقل هي الأخرى إلى روح الطفل المولود،[2] ولهذا فهم ينظرون إلى الأمهات اللائي يلدن أطفالا مشوهين أو أمواتا نظرة خوف وشؤم.

وتعكس أسطورة **أغبوينبا** شغف المرأة بالولادة والإنجاب، وليس باستطاعتها أن تعيش دون إحساس الأمومة، فالأولاد نعمة لا يعرف قيمتها إلا من فقدها كأغبوينبا، المرأة التي اختارت في بداية الخلق أن تتمتع بقوة سحرية خارقة، ولم تختر أن تكون لها ذرية وأولاد كصديقتها التي عاشت معها في نفس المكان، حيث ضنت أن القوة السحرية ستتيح لها الحياة السعيدة، لكن نداء الأمومة كان أقوى من سحرها وطقوسها، فما كان منها إلا أن استجابت لهذا النداء، وراحت تبحث عن من يمنحها هذا الإحساس ويمكنها من الحصول على الأولاد.[3]

فبعد أن خلقت الآلهة **واينجي** (الأم الأولى) البشر من طين، وجعلت كل واحد منهم يختار جنسه، وقدره، والطريقة التي يريد أن يعيش بها، والميتة التي يشاء أن يموت بها واختار كل واحد منهم ما شاء، اختارت أغبوينيا القوى السحرية، بينما اختارت امرأة كانت تعيش معها في

---

(1) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 70.
(2) ينظر المصدر نفسه، ص 71.
(3) ينظر عدد من المؤلفين << مختارات من الأدب الأفريقي >>، تر (شوكت يوسف)، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1985، ص 386.

نفس القرية الأولاد الأصحاء السعداء، رضيت المرأة بما منحت وعاشت مع أولادها في سعادة، لكن أغبوينبا مع مرور الوقت خالجها شعور بالندم جعلها تدخل في حروب طاحنة مع أصحاب قوى آخرين وآلهة، وهي في طريقها إلى الأم الأولى لتطلب منها أولادا.

عندما خلقت واينجي البشر، وانتهت من خلق كل شيء أخذت الجميع إلى منبعين للمياه الجارية، أحدهما كان عكرا فألقت فيه الذين طلبوا الثروة والأطفال، والآخر نظيف صاف ألقت فيه الدين ترفعوا عن طلب متاع الدنيا الزائل، والماء الجارية تمثل دعوة لرحلة دون عودة كما تمثل صورة القدر، فالماء هنا تشير إلى بؤس الوقت، وساعة مائية تمثل المصير، وهذا المصير مليء بالرعب، بل هو الرعب بعينه،[1] وكأن بالأم الأولى أخذت ميثاقا غليظا على البشر بأن لا يعودوا في اختياراتهم، لأنها أصبحت أقدارهم، والقدر لا اعتراض عليه.

لقد قابلت أغبوينبا في طريقها إلى الأم واينجي - لتغير قدرها وتحصل على الأطفال - **إيزانبي** ملك الغابة ودخلت معه في صراع طاحن، وانتصرت عليه هو **وآجبي** قيصر المدينة وعلى البحر رمز الحياة والتطهير والولادة الجديدة ، كما جابهت أيضا السلحفاة رمز الصبر مفتاح أسرار العالم. وأخيرا الديك رمز النور المتولد والحيوية، حيث يعتقد أن هذا الأخير يمضي ليقود روح الميت نحو ولادة جديدة في عالم آخر.

وكان التقاؤها بهم بمثابة الضمير الصاحي، الموجه، والناصح لهذه المرأة التي أعماها طموحها، ورغبتها في الحصول على الأطفال ومنعها من التسليم لقدرها الذي اختارته بنفسها وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الرغبة الجامحة الكامنة لدى كل امرأة في أن تكون أما وتنعم بهذا الإحساس، الذي لا ينفصل عن حبها للحياة. هذا يعكس نظرة المجتمع الأفريقي تجاه المرأة العاقر، حيث يعد بقاء الزوجين (خاصة المرأة) بدون أولاد يحملون اسم العائلة ويحافظون على الأصل والسلالة، من إحدى المصائب العظمى، التي لا يتمنى أي فرد في هذا المجتمع أن تكون من نصيبه.

(1) ينظر جيلبيردوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، (مصباح عبد الصمد)، ص 71.

فالقبائل الأفريقية تعتقد أن المرأة العاقر هي رمز للشؤم، وتقضي على الخصب، ولهذا يمنعونها من الدخول إلى مزارعهم ... هذا ما يجعلها تحاول بكل الطرق والوسائل للحصول على أطفال، وتطلب المساعدة من السحرة والدجالين، وهذا ما يعكسه لجوء أغبوينبا كغيرها من النساء للسحر والقوى السحرية.

ب - طقوس الزواج والولادة:

ارتبط الزواج والولادة لدى الشعوب الأفريقية بطقوس معينة، لا يمكنها التخلي عنها مهما كلفها الأمر، ولا يتم الزواج أو الولادة إلا من خلالها، لأنهم يعتقدون أنها كفيلة بأن تضمن لهم السلامة من كل مكروه قد يتعرضون له، سواء المتزوج أو المولود أو الأم أو حتى القبيلة ككل.

لقد علم عن بعض القبائل الأفريقية ومنها قبائل النوير أنها تخضع الفتيان الذين يصلون سن المراهقة لطقس التكريس، الذي يهدف إلى اختبار مدى قوة وصمود الفتيان أمام تجارب الحياة القاسية، وإذا ما كانوا يستحقون لقب رجال، حيث يقومون بضرب مقدمة رأس الفتى بسيف حاد، حتى يبلغ الجرح عظم الجمجمة ليترك الواحد منهم في العراء لمواجهة قوى الطبيعة.[1]

وبعد هذا الطقس (التكريس) من يصمد منهم فإنه يعلن رجلا بمعنى الكلمة، يحق له المشاركة في الحروب ومغازلة الفتيات، ويحضر حفلات الرقص التي تقام من أجل اختيار الفتاة التي يريدها، وقبل هذا الطقس لا يفكر إطلاقا بأن يكون له زوجة وأولاد.

أما الفتاة التي تبلغ الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمرها، فإنها لا يمكنها أن تقترن إلا بأحد الفتيان الذين مروا بطقس التكريس، وعندما تبلغ سن السادسة عشر يكون لديها عشيقا واحد على الأقل، وتتصف هذه المرحلة بالاختلاط بين الجنسين.

(1) ينظر المرجع السابق، ص 285.

كما ثبت عن بعض القبائل إيمانهم بما يعرف بزواج الشبح Ghost-Marriage، فإذا ما توفي رجل من رجال القبيلة ولم يكن له وريث شرعي من الذكور، فإن أحد أقاربه كالأخ أو ابن الأخ ... يمثل دور المتوفي ويتزوج فتاة معينة باسم هذا المتوفي، اعتقادا منهم أنه إذا لم يفعل هذا أحد الأقارب فإن شبح المتوفي يسكن المنطقة، ويقوم بأذية أقاربه وكل أفراد القبيلة.(1)

وإذا ركزنا في بحثنا هذا على الزواج من أجل ولادة أبناء وتكاثر النسل، فهذا لا ينفي وجود نوع آخر من الزواج يهدف إلى تحقيق منافع أخرى، تتعلق بمقدرات الإنسان الأفريقي فنجد << القبائل البدائية في أفريقيا تستخدم العملية الجنسية بين الرجال والنساء كوسيلة لزيادة خصوبة الأرض >> .(2)

فبعض القبائل الأفريقية في كينيا تعبد الشمس باعتبارها إله العالم والكون وتقام حفلات تحت الأشجار المقدسة وتمارس النساء والرجال الجنس وذلك بعد طقوس العربدة واللهو ويؤمنون أن هذه الممارسة تنشط الشمس لتلقيح الأرض، وبالتالي تنشيط الزرع وزيادة المحاصيل وتنشيط خصوبة النساء والماشية.(3)

والحال نفسه نجده لدى قبائل باجندا وسط أفريقيا، حيث يعتقد الأهالي بقوة في أن الممارسة الجنسية - تحت أشجار الموز- على اعتبار أنه غذاؤهم وثروتهم الرئيسية - يضمن لهم زيادة في خصوبة أراضيهم ، ووفرة محاصيل الموز. وقد تعودت هذه القبائل أن تطرد المرأة العاقر وتبعدها عن القبيلة وعن الحقول الزراعية، والأشجار المثمرة، حتى لا تنقل لها العدوى وتصيبها كذلك بالعقم.(4)

---

(1) ينظر محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر >>، ج1،ص 155.
(2) المرجع نفسه ، ص 157.
(3) ينظر المرجع نفسه ، ص 159.
(4) ينظر المرجع نفسه ، ص 159.

أما إذا ثبت عن الزوجين خصوبتهما وذلك بإنجاب عدد كبير من الأولاد، أو أنجبا توأما فإن أهالي القرية يقومون باستئجارهما لمزاولة الجنس في مزارعهم مقابل أجر معين، واعتقادا منهم أنهم سينقلون الخصوبة للأشجار المثمرة والمحاصيل.

وإذا أمعنا النظر والتفكير فإنه يتبين لنا جليا أن الطقوس ذاتها قد تختلف المواقف منها باختلاف القبائل ، فإذا كانت مقدسة في اعتقاد بعضها ،فهي مدنسة في اعتقاد بعضها الآخر وإذا كانت الأولى ترى في هذه الممارسات مدعاة للخصوبة والثروة ، فإن تجنب ممارستها ـ لدى هذه الأخيرة ـ تجلب الخصوبة و زيادة المحاصيل .

النظرة ذاتها بالنسبة لولادة التوائم فهناك من القبائل من يعتقد فيهم الخير والخصب ـ كما سبق ذكره ـ فيستبشرون بقدومهم وهذا حال قبائل بوغندا الذين يعتقدون أنهم هبة من الإله Mukasa، حيث يقوم الساحر الطبيب بالطقوس اللازمة التي تضمن للتوأم الصحة الجيدة وفي داهومي ينظر إلى التوأم نظرة عليا، حيث يعتبرونهما بمثابة اللإله أو أبناء الإله، فتقام لهما الاحتفالات التي تتخللها طقوس دينية، وتقدم لهما القرابين تماما كما تقدم للآلهة والأرباب لكنها تكون في أوان مزدوجة.[1] هذه الأواني التي غالبا ما ترافق ذكرها مع التوأم والولادة ترمز للاحتواء وهي بمثابة الإناء المقدس[2] هذا الإناء الذي يتخذ رموزا مختلفة تتشكل باختلاف المواقف والطقوس.

يظهر أن قبائل النيجر وفي جنوب أفريقيا لا تختلف في اعتقادها عن سواها من القبائل السابقة الذكر، حيث تعتقد أن << التوأم عنده قدرات سحرية على التأثير على المطر، ويطلق على الأم التي تنجب توأما نعت **التيلو** أي السماء، وعلى التوأم نفسه أطفال السماء >>[3]، وإذا ما حدث جفاف في المنطقة لمدة طويلة، فإن النسوة يخرجن بدون لباسهن المعتاد ويرتدين لباسا من الحشائش، ويرددن الترانيم السحرية والتعاويذ ويقمن بصب الماء على الأم التي أنجبت توأما.

(1) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص 71.
(2) ينظر جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر(مصباح الصمد) ، ص 232.
(3) محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر>>ج1، ص 79.

وإذا كانت هذه القبائل تمجد التوأم وتستبشر بقدومهما، فإن قبائل شرق نيجيريا يستقبلون خبر ميلاد التوأم بمزيج من الخوف والفرح، ولهذا فهم يضعونهما في أوان كبيرة، ويتركون في أدغال الغابة. كذلك الحال لدى قبيلة تونغا Tonga التي تتواجد بموزمبيق التي تطلق اسم أطفال السماء، وتعتقد أن ولادتهما تجلب الحظ السيئ للقبيلة والنحس، لذلك يقومون بطقوس معينة تمكن من تطهير التوأم مع أمهما[1]، فيقومون بعزلهم في كوخ شيد خصيصا لهذا الغرض.

والملاحظ أن التوأم في هذه الحالة لا يحظيان بالقبول وسط أفراد القبيلة عندما يكبران وتبقى نظرة الرفض والاشمئزاز موجهة لهما، لكن في حال تعرض القبيلة إلى عاصفة فإنه يطلب منهما التدخل والوساطة لدى إله العاصفة ـ لأنهما أبناء السماء ـ والتضرع له ليبعد عنهم غضبه ومقته، والحال نفسه مع الأم التي ذهبت للسماء لتحمل بهما.

ج - تابو الزواج و الولادة:

تعتبر النساء في فترة الولادة وحتى الحيض من التابوهات (المحضورات)، وبعد الولادة بأسابيع عديدة وخاصة على الرجال، حيث يعتقد انتقال نجاستها وتلوثها إلى كل من حولها من مخلوقات وأشياء، ولهذا توضع أثناء الولادة وبعدها بعدة أسابيع في عزلة تامة عن الجميع حتى تستعيد عافيتها وطهارتها.

فنجد أنه في أوغندا بأفريقيا تعتبر المرأة تابو أثناء فترة الحيض وبعد الولادة، وتفرض عليها **العزلة** التامة عن الرجال، وتعتبر كل الأواني التي استخدمتها المرأة ملوثة، وأثناء حيضها إذا قامت بلمس السلة الخاصة بصيد السمك تحرق هذه السلة ولا تستخدم في الصيد إذ يعتقد أن التلوث والنجاسة الكامنة في المرأة الحائض قد انتقلت إلى سلة الصيد ما يعد كفيلا بتلويث كل منابع الصيد للقبيلة[2]. ويعتبر **ادغاربو** دم الحيض والنفاس نجسا لأن << دم العادة الشهرية هو ببساطة المياه السيئة والأنوثة المشؤومة التي ينبغي تجنبها والتخلص منها بكل الوسائل >>[3].

(1) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي) ، ص 71.
(2) ينظر محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1،ص 236.
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 83.

أما فيما يتعلق بالزواج فإنه عند القبائل بكينيا يمنع على المحارب قبل أن يشترك في المعركة الحربية أن يضاجع زوجته أو يلمس ثيابها، لأن ذلك ـ حسب اعتقادهم ـ كفيل بأن يفشل المقاتل، وهو الحال نفسه بالنسبة لصيادي السمك والحيوانات بجنوب أفريقيا، حيث يحرم عليهم الاتصال الجنسي لمدة ثلاثة أيام متتالية قبل القيام بعملية الصيد، وإلا تعرض الصياد للفشل الذريع.(1)

وعند ذات القبائل أثناء اختيار موقع قرية جديدة يراعي الأزواج عدم ممارسة الجنس أما إذا لم يلتزموا بهذا التابو واكتشف زعيم القبيلة الأمر، فإنه يأمر بإيقاف البناء ويقوم باختيار موقع آخر، اعتقادا منه أن عدم الالتزام بالامتناع عن الجنس من شأنه جلب العفاريت والجان وتنتشر الأمراض والأوبئة، ويصاب الزعيم ذاته بالأمراض والهزال وقد يتعرض للموت، أما الزوجان فإنهما يصابان بالعقم،(2) ولهذا يرون بضرورة التعفف التام.

من هنا نشأت الضرورة العكسية لتضحية دموية (بتر أو ختان)، والهدف منها تخليص الطفل من مبدأ الشر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن لهذا التحريم القاطع صفة نسائية أكثر منها جنسية، فليست العلاقات الجنسية وحدها الممنوعة في هذه الفترات، بل من الممنوعات أيضا البقاء في محيط المرأة الحائض والنفساء، ولهذا فهن يعزلن في أكواخ خاصة بهن، ولا يسمح للواحدة منهن حتى بلمس الطعام الذي تتناوله.

ولهذا يعتبر التحريم أساسيا ، ويلاحظ **هاردنغ** << أن العبارة البولينيزية (Tabu) أو (Tapu) قريبة جدا من (Tapa) التي تعني الحيض ، وأن لفظة التحريم (Wakan) في داقوتا تعني أيضا المرأة الحائض، كما أن السبت البابلي قد يكون له أيضا أصل حيضي فالسبت كان يطلق في فترة حيض الإلهة القمرية عشتار >>.(3)

لقد جمع **البامبارا** بين دم الحيض وسادية الأذى والشر في قوله: << لقد تدفق الدم من موسو - كوروني في الحظة التي كانت تختن بأظافرها وأسنانها ، ومنذ ذلك الحين أخذت تلوث

(1) ينظر المرجع السابق ، ص 240.
(2) ينظر المرجع نفسه ،ص 250 .
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد) ، ص 83 .

كل ما تلمسه وأدخلت الشر في العالم، هذا الشر المتمثل بالألم والموت >>[1]. وربما هذا ما يفسر الهلع الشديد لدى الشعوب الأفريقية من المرأة الحائض والنفساء.

2 - الموت والبعث في الأساطير والخرافات الأفريقية:

عندما كان علماء الآثار يحفرون قبور القدامى ، كانوا يعثرون على أسلحة وأدوات وعظام حيوانات وأواني ، تدل جمعيها على وجود معتقد - لدى هذه الشعوب - بعالم أخروي يتصورونه شبيها بعالمهم الدنيوي . يبدو من هذا أن البشر منذ زمن مبكر تميزوا بقدرتهم على حيازة أفكار تتجاوز تجاربهم اليومية ، ولأنك أينما تجول بنظرك تجد أن الحياة والموت لا يفترقان ، فقد كان الموت بالنسبة للإنسان الأفريقي مرعبا ومخيفا ، ولا يمكن تجنبه ، لهذا فقد دارت أسئلة في ذهنيه عكست هذه المخاوف.

أ - ظهور الموت:

لقد شغلت الروح الفكر الإنساني عامة ، والفكر الأفريقي على وجه التحديد ، فأثارت في نفسه القلق والخوف معا ، فهو في احتكاك دائم مع الحياة والموت من خلال ولادة وموت كائنات مختلفة من حوله (إنسان ، وحيوان ، ونبات) ، كما حار في أصل الموت ومنبع ظهوره ، والمكان الذي تذهب إليه الروح بعد الموت ، ولهذا نسج خياله أساطير عدة حول هذه الهواجس التي أرقته.

فأسطورة **الاتنغانا** لدى شعب كونو، التي دوّنها **ب . خولاس** تعكس اعتقاد الأفريقي حول الموت وأسباب ظهوره، حيث يعتقد أن للموت إله اسمه " سيا[2]"، هو أمر معتاد لدى الأفارقة الذين درجوا على جعل إله لكل ظاهرة، فلم يكن الموت استثناء . كان هذا الإله ينتقل في الظلام الذي << يلطف ... بصفة الإلهي >>[3].

---

(1) المرجع السابق ، ص 84.
(2) ينظرعدد من المؤلفين << مختارات من الأدب الأفريقي >>، تر(شوكت يوسف)، ص 403-406.
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر(مصباح الصمد) ، ص 195.

ويعتبر الليل لدى العديد من الشعوب والأمم بلد الأموات فكل شيء منعكس في الظلام - مملكة الليل - ويقول **لويتزكي** Lewitzky :<< إن عالم الأموات هو نقيض عالم الأحياء ، فما يلغى على الأرض يعود إلى الظهور في عالم الأموات... ولكن قيمة الأشياء تنعكس فيه، فما هو قديم ومتلف وفقير وميت على الأرض ، يصبح فيه جديدا وصلبا وغنيا وحيا >>[1]. هذه الظلمة كانت مقرونة ببحر مستنقعات، وإذا كان الليل والظلمة رمز الابتلاع، فإن البحر هو المبتلع الأقدم والأعظم، ورمز الماء العدائية،[2] وقد كان الأسلاف البدائيون يقرنون المستنقعات الموحلة بظلال الغابات المشؤومة.

إن لون الحبر يرتبط عند **ادغاربو** Edgar poe << بالمياه الجنائزية المشبعة برعب الليل والملأى بكل فولكلورالخوف... وكما يقول باشلار، فإن الماء عند ادغاربو هي جنائزية للغاية وهي المثال الجوهري للظلمات والمادة الرمزية للموت. هكذا تتوصل الماء لأن تصبح دعوة مباشرة للموت، فبعد أن كانت ظلامية فقط، تضحى مكانا للموت >>[3] أي الماء العكرة للمستنقعات.

من هذا البحر القذر وجدت الأرض، التي تمنح الولادة لكل العالم النباتي والحيواني والعرق البشري والعديد من الألوهات. إنها ألوهة أنثوية هذه الأرض التي ساعد على إعمارها ـ حسب الأسطورة ـ ألاتنغانا وسعد بها إله الموت **سيا**، ومع هذا فقد رفض تزويج ابنته الوحيدة لألاتنغانا رغم كل المحاولات، لكن هذا الأخير لم يبق مكتوف الأيدي بل اتفق مع الفتاة وتزوجا بدون علمه، وأنجبا أولادا (سبعة ذكور وسبع إناث). والعدد سبعة كما سبق ذكره عدد إلهي، وهو رمز سماوي مقدس.

كان في هذا تحديا لإله الموت الذي يصر على رفض الحياة، وإبعادها عن عالم الظلمات المشؤومة المشاكلة للموت، فلا يمكنك الصعود إلى الأعالي دون سقوط وانحدار إلى الظلمات

---

(1) المرجع السابق ، ص 195.
(2) ينظر المرجع نفسه ، ص202 .
(3) المرجع نفسه ، ص 70.

ولا حياة جديدة من دون مواجهة الموت والمجهول. وميلاد سبعة ذكور وسبع إناث له رمزية غامضة في المعتقدات الدينية.

لقد أشارت الأسطورة إلى أن من بين السبعتين أربعة ذكور وأربع إناث بيض، يمنحون الذكاء والعلم، ولغات مختلفة غير مفهومة لدى والدهم و هي تمثل (لغات العالم الأبيض المختلفة)، والرجل الأبيض الذي عرف تطورا في المعرفة ، فكان اعتماده على فكره سبيلا يسلكه في حياته ، فكانت معاناته أقل من أخيه الأسود الذي منح المطرقة و الفأس و السكين و فيها إشارة للأعمال اليدوية المتعبة التي تتطلب الجهد و القوة البدنية (ويقصد به عالم السود بكل معاناته).

وفي الحالتين كان هؤلاء الأولاد (بيض وسود) سببا في ظهور المجتمعات البشرية بكل تنوعها (البيضاء والسوداء) بمعنى أنهم بمثابة السلف، وفيه إشارة لأصل الأعراق. وبعد أن انزاحت الظلمات عن الأرض وحل النهار، كان ميلاد النور من رحم الظلمة <<وأفضل صور تعبر عنه هي الطباق ...الجناح والطائر يتعارضان مع حيوانية الزمن ... العمودية الحاسمة والذكرية تتناقض مع الأنوثة الزمنية السوداء وتسيطر عليها. فالارتفاع نقيض السقوط كما أن نور الشمس يتناقض مع المياه العكرة، ومع العمى الظلامي لقيود المصير>>[1] أو النظام النهاري.

رغم أن ألاتنغانا حصل على ما أراد من زوجة و ذرية ، وأزاح الظلمة عن الأرض وجلب النهار ...الخ ، إلا أن الإله سيا هزمه في آخر المطاف ، حيث فرض عليه عقوبة نظير ما فعله ـ حين أخذ منه ابنته الوحيدة - و تزوجها رغما عنه ، ودون أن يدفع مهرا للعروس ، وفي هذا مخالفة للأعراف السائدة ، ومعروف عن القبائل الأفريقية احترامها للأعراف و تقديسها لها وتعاقب كل مخالف لها .

على هذا الأساس كان على ألاتنغانا أن يعاقب لاقترافه هذا الخطأ الفادح، وتكون عقوبته بالاستجابة لطلب إله الموت وإعطائه ابنا من أبنائه كلما أراد ذلك، وبالتالي تسليمهم للموت

(1) المرجع السابق ، ص 157.

المحتوم الذي قدر من يومها على البشرية، ولهذا فإنك أينما تجول بناظرك تجد الموت والحياة لا يفترقان فالموت هو الوجه الآخر للولادة.

وإذا كانت قبائل كونو تعتقد أن الموت ظهر نتيجة عقوبة ترتبت عن خطأ في حق الأعراف فقبائل نيجيريا تعتقد من خلال أسطورة **السلاحف والبشر والأحجار**، أن الموت ظهر للوجود بعد إلحاح من السلاحف والبشر على أن يكون لديهم أطفالا. ورغم تحذير الإله لهم بأن الموت يأتي مع الأطفال، إلا أنهم أصروا على ذلك، ومن ذلك الحين والكائنات الحية والبشر يموتون فكان ذلك الموت عن اختيار ومسؤولية وليس عن عقوبة محتومة.(1)

في حين نجد قبائل **مينـد Mende** التي تقطن بسيراليون تحمل مسؤولية ظهور الموت للرسل الذين لم يقوموا بدورهم، ولم يكونوا عند مستوى الأمانة، حيث اعتقدوا أن الكلب ولضفدعة هما السبب فقد كانا رسولا الإله إلى الإنسان، فالكلب كلف بإبلاغ الإنسان بخلوده لكنه لم يؤد الأمانة، وتماطل من أجل الحصول على فتات الطعام، في الوقت الذي كانت فيه الضفدعة في طريقها إلى الإنسان لتبلغه رسالة الإله، بأنه سوف يموت في يوم من الأيام فكانت أسبق من الكلب ووصلت إلى الإنسان أولا.(2)

من يومها عرف الموت للإنسان طريقا ، وأصبح الكلب رمزا للموت << وهو يبجل أيضا على أنه إله الجحيم أو حارس الجحيم ، كما أن الكلاب ترمز أيضا إلى هيكاتي ، القمر الأسود،القمر المأكول . من وجهة نظر علم النفس ، فإن ماري بونابرت تبين العلاقة الوثيقة مابين الموت والذئب الجهنمي >>.(3) والدليل كذلك صورته المتكررة في الأساطير المتعلقة بالموت، حيث تواتر وجوده مرتبطا بالموت. أما الضفدعة فتظهر رمزا للموت لدى بعض القبائل، ويظهر وجودها في الأساطير مرتبطا بالسوء والشيطان، في حين هي لدى قبائل أخرى مقدسة لعلاقتها بنزول المطر.

---

(1) ينظر الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص 43.
(2) ينظر جيوفري بارينـدر<< الأساطير الأفريقية>>، تر (حسن هيثم الطريحي) ، ص 72، 73.
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 61.

وإذا كانت أسطورة قبائل ميند تحمل الكلب مسؤولية ظهور الموت، فإن أسطورة **أصل الموت** من هوتنوت تلقي باللوم على الأرنب الذي لم يوصل رسالة القمر كما يجب[1]. والقمر كما سلف ذكره هو رمز الولادة المتجددة، وهو كذلك رمز الموت والبعث، ولهذا له دور هام في الحفلات التكريسية للمجتمعات البدائية... وقد كان إله الموت شعاره على شكل أول هلال القمر، ولهذا نجد أنه في كثير من الثقافات ينسج وهو تحت شكل ألوهة، ورمز حيواني يمثل مصيرالبشر، وقد كان يعتقد قديما أن القمر كان محل إقامة الموتى، ومن هنا نجده رمز الموت والخصب، للنور والظلمة، وتعارض العالم العلوي والعالم السفلي[2].

لقد ارتبطت العديد من الحيوانات بالقمر، ولهذا فهي ذات رمزية قمرية كالحلزون والضفادع ، والثعبان ...وليس الأرنب استثناء فهو ذو << رمزية حيوانية تضفي طورا ليليا مشؤوما ...ففي الأيقونات تأخذ العلاقة بين الآلهة القمرية والحيوانات بعدا ثلاثيا : إما أن تكون الآلهة عدوا تمزقه الكواسر ، وإما أنها مروضة أو حاوية أو صائدة تواكبها الكلاب ...وإما أن يأخذ القمر نفسه مظهرا حيوانيا ناتجا عن استبدال المعنى السلبي بمعنى إيجابي ...وعلى العكس من ذلك فإن كل الحيوانات ...قابلة لأن ترمز إلى المأساة >>[3]. ونستطيع القول من خلال هذه الرمزية أن الحيوانات قد تتعدد رمزيتها بتعدد الثقافات الإنسانية.

كما يمكن أن نلمس رمزية الحشرات من خلال دورها في الأساطير وبالتحديد من خلال ارتباطها بالرمزية القمرية وتحولاتها المحددة في الشتاء ، فالصرار الصيني مثلا يرمز إلى أطوار القمر ، وقد كانت تصنع الصرارات من حجر معين وتوضع في فم الأموات ، والنغفة هي رمز التحول والبعث ، فهي بمثابة الثمرة الحيوانية الشبيهة بالمومياء ، التي تجتاز رحلة الموت الكبرى ، والضفدعة مثل الأرنب تسكن القمر وتلازمه[4].هذا وقد ربط الإنسان الأفريقي العلاقة وثيقة بين الأرنب والموت ، وبين القمر وشق شفة الأرنب .

---

(1) ينظر لانجستون هيوز<< من روائع الأدب الأفريقي >>، تر(ميشيل تكلا) ، القاهرة ، 1961 ، ص 89 .
(2) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن والأديان والحياة>>، تر عبد الهادي عباس ، ص283 .
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر مصباح الصمد ، ص 291،292 .
(4) ينظر المرجع نفسه،ص 294 .

كما جاءت عدد من الأساطير تتضمن إشارات للطريقة المتبعة في التعامل مع جثة الميت مثل أسطورة **الحرباء والسحلية**، حيث كانت الأسطورة تتعلق بالرسل كما سبق ذكره، وفي الوقت ذاته اتضحت من خلالها كيفية التعامل مع الجثة، فقد كان الدفن من الطرق التي يلجأ إليها في حالة وفاة شخص من أفراد القبيلة، كما قد تختلف طرق دفن الميت من قبيلة إلى أخرى وذلك حسب اعتقاد كل واحدة، فنجد بعض القبائل تؤمن بعودة الحياة للميت، ولهذا فهم يقومون بدفنه في وضعية جنينية على اعتبار أنه سيولد من جديد، أو يدفن على شكل يرقة على أساس أنه سيعود في شكل آخر أو في جسد إنسان أو كائن آخر.(1)

في حين نجد بعض القبائل تفضل حرق الجثة ونثر رمادها في النهر ، أو في الغابة لكنها تستثني من الحرق الأطفال اعتقادا منهم في اندماجهم بعد الموت في العالم الآخر ، وبشكل آخر وهنا يقول مارسيا الياد: << ليست الحياة سوى انسلاخ عن أحشاء الأرض ، بينما يمثل الموت عودة إلى المنزل ... والرغبة الشائعة في أن يدفن الإنسان في أرض وطنه ليست سوى المظهر الدنيوي للعودة الصوفية إلى الجذور، إلى الجوهر ، سوى رغبة في العودة إلى المنزل الأول >>.(2)

فطقوس الدفن هي التي تغير معنى الموت ، والطريقة التي يتعامل بها مع الجثة تعكس اعتقاد الشعوب ، وتعطى النظرة الحقيقية التي ينظر بها للموت ، ولهذا << فالقبر مكان مرتبط بالكوكبة الأرضية - القمرية للنظام الليلي للصور ، بينما تلتقي الطقوس السماوية والشمسية مع احتراق الموتى ، ففي طقوس الدفن ، أو حتى في الدفن المزدوج يظهر ميل للاحتفاظ بجسد الميت أطول مدة ممكنة ... إن اختلاف طقوس الدفن ينطوي ، كما يلاحظ بيغانيول على تباين عميق بين الثقافات >>.(3)

هذا الاختلاف لا يقف عند حد الثقافات ، بل يتعداه إلى تباين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد ، فخاصة القوم ليسوا كعامتهم ، والزعيم ليس كالفرد العادي ، و بالتالي طريقة

(1) ينظر جيوفري بارينذر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي) ، ص 42.
(2) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 214.
(3) المرجع نفسه ، ص 216.

دفن الزعيم المتوفى ، أو أحد أعيان أو أشراف القبيلة ، ليست ذاتها التي يدفن بها باقي أفراد القبيلة ، كما أن طريقة دفن جثة المرأة تختلف عما هي عليه عند دفن جثة الرجل.

على سبيل المثال ثبت عن سكان تيكوبيا أنهم يقومون بدفن موتاهم داخل الأكواخ لكنهم يخصصون ركنا معينا بداخلها ليتم فيه الدفن، يطلقون عليه اسم (ماتابايتو)، لكنهم لم يكونوا ليهجروا مساكنهم كما هو الحال عند قبائل الآزندي.[1]

إن عادات الدفن ترتبط بالاعتقاد بحياة أبدية خفية ، هذا ما جعل هذه الشعوب تلجأ لحماية تلك الحياة من خلال حماية الجثة والاعتناء بها ، وإحاطتها بالرعاية وتزويدها بالأطعمة والقرابين التي تدفن معها داخل الأكواخ والمنازل ، ذلك ما يبرر نظرة التحليل النفسي ، الذي يبرهن أن هناك مسارا متواصلا ما بين الحياة والموت ، ما بين الرحم والمنزل (الكوخ) ،فهي مسكن واحتواء ، وهي بذلك على ارتباط وثيق بالمدفن الأمومي ، فالكوخ رمز للجنة الأولى الذي يحوي الحياة الثانية .

فالاعتقاد ثابت أن المتوفى << بحاجة إلى مسكن صغير داخل المنزل لكي يستعيد طمأنينة الحياة الأولى الخالية من الهموم ، ذلك هو الدور الذي يلعبه الركن ، الزاوية الحميمية ، قدس الأقداس والغرفة الخاصة الهادئة ، والخلوة هي المكان المثالي لتحقيق هذا الدور>>[2] ، ولهذا فهم يذهبون بعد دفن المتوفى إلى مكان آخر ويبقون فيه لمدة معينة . فالمسكن كالجسد يمكن أن يصبح ممثلا للعش أو القوقعة أو حضن الأم . والقوقعة كما هو متعارف عليه << هي مخبأ ومأوى يوجه التخيلات نحو شكله الحلزوني أو نحو الظهور والاختفاء الدوريين للجسم الرخوي وحميمية المسكن ... تجعل من الصدفة رحما >>.[3]

ب - الصراع مع الموت:

بالرغم من إيمان الأفارقة بحتمية الموت، واعتقادهم بوجود حياة ثانية بعد الموت، فإننا نضع أيدينا على بعض الأساطير التي تعكس تعلقه بالحياة الدنيا ، وتمسكه بالوجود فيها ، فيما

(1) ينظر Raymond Firth we , The Tikopia , London ,1967,P76,77.
(2) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا ، رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 222.
(3) المرجع نفسه ، ص230.

يضطره للدخول في صراع شرس مع قوى الموت؛ رغبة منه في الانتصار عليها لعله يحظى بالخلود.

من هذه الأساطير ماجاء من شعب توغو Togo حول **صراع إله النهر تانو Tono مع الموت** . حين فر الضبي من الصياد ، لم يذهب إلى أي مكان بل دخل إلى أحد الكهوف وخرج منه وهو إله (Tono)[1] ، وهذا التحول المفاجئ للضبي داخل الكهف بالتحديد لم يكن اعتباطيا ؛ لأن الكهف في رمزيته المتعارف عليها بمثابة رحم الأم ، فالدخول إلى المغارة يناسب عودة لأحشاء الأرض ، أو الرحم الأمومي . و << ويعتبر الدوغون Le Dogon في مالي المغاور والملاجئ تحت الصخور كصورة للرحم الأمومي وللمشيمة... والتي استخدمها بعضهم لفترة طويلة كمسكن ...فالملقنون الذين يسكنوها مؤقتا يعتبرون كعائدين إلى مرحلة جنينية حية في الرحم الأمومي >>.[2]

كما نجد بين الكهف (المغارة) والمنزل نفس اختلاف الدرجة بين الأم البحرية والأم الأرضية ، وبالتالي تكون المغارة (الكهف) أكثر شمولية وعالمية رمزية من المنزل ، وقد جمع الكثير من الباحثين بين الكهف والرحم ، والمدفن واعتبروا الكهف رحم تستعاد فيه الولادة من جديد << فالكهف يمثل إذن الفجوة الجغرافية الكاملة ، الفجوة النموذجية التي هي عالم مغلق تسوده مادة الغسق ذاتها ، أي مكان سحري تستطيع فيه الظلمات أن تتحول إلى ليل >>.[3] ويؤكد المفكر والباحث **لوك بنوا** ذلك بقوله أن << الدخول إلى الكهف هو إذن العودة إلى الأصل >>.[4]

وإذا أمعنا التفكير فإننا لا نجد اختلافا كبيرا بين الكهف والمنزل أو بالأحرى المسكن؛ لأن هذا الأخير ما هو في أصوله إلا نموذجا محرفا عن الكهف (من حيث التجويف)، الذي يرى

(1) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص 83.
(2) فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس)، ص 369.
(3) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا ، رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 220.
(4) لوك بنوا << إشارات، ورموز و أساطير>>، تر(فايز كم نقش) ، ص 87.

فيه **بول كلوديل** (P. Claudel) أن هناك << تماثل صور الأم والقبر والتجويف بشكل عام والمسكن المسقوف >>.[1]

ومع مواجهة الموت كليهما وقطعه لطريقهما ، شرعا بترديد أغاني التحدي ، وكأنها ترانيم سحرية يحاول كل واحد منهما أن يتغلب بها على الآخر ،و يسيطر على قوته، لكن يبدو أن القوتين متكافئتان باعتبار أن كلاهما إله ، ويمتلك قدرات وقوى عظيمة فلا توجد إمكانية لانتصار أحدهما على الآخر ، وهذا يعكس تصور الأفارقة عن الآلهة الدنيا .

من خلال هذه الأسطورة نتوصل إلى كنه الاعتقاد لدى القبائل الأفريقية حول أسباب الموت ، التي تتعدد وتختلف . فهنا يتضح أنهم يقرنون الموت بالمرض ، فرغم محاولات إله النهر (رمز الحياة والخصب) لمساعدة الصياد بمنحه أسباب القوة و الحياة ؛ من خلال مواجهة إله الموت و الدخول معه في صراع دام أكثر من شهر ، لكن يبدو أن لا سبيل للوقوف في وجه الموت ، ولا توجد أية إمكانية لتحقيق نصر نهائي على الموت و على كور التناوب بين العالم الفوقي والعالم السفلي إلى الأبد .ولهذا نجد أنفسنا في وضعية المواجهة الدائمة مع المجهول .

إن مقابلة إله الموت للإنسان (الصياد) جعله يلقى مصيره من خلال مرضه ، لكن بالنسبة **لناغونزا** فإن وفات أخيه لم يكن سببه المرض ـ في اعتقاده ـ بل الموت بمكره وخداعه ، ولهذا راح يبحث عنه ليصرعه ، وعندما عثر عليه واصطاده ، أنكر الموت أن يكون السبب في موت أخيه ، بل الأخطاء والحماقات التي يقوم بها الناس هي التي أدت إلى موتهم ، وبعدما التقى ناغونزا بأخيه على أرض الموت ؛ أكد له أنه يعيش في سعادة لم يذق طعمها في حياته الدنيوية .

هذا كله يهدينا إلى أن الأفارقة يؤمنون بالحياة الثانية بعد الوفاة، وبوجود أرض الأموات وهي الأرض التي تعيش عليها الأموات بعدما يبعثون من جديد، ولهذا فقد شغلتهم مسألة

(1) جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها >>، تر (مصباح الصمد)، ص 221.

الموت، والأسباب الخفية التي تقف وراءها، والإنسان الأفريقي لا يعرف تأليف القضايا التي تتركب من الأسباب والعلل، ما دفعه إلى تفسير الأمور كما تبدو له طبيعية وبسيطة.

ولأن الموت تحيطه هالة من الغموض والخوف ، وتغوص حقائقه في عالم المجهول فقد اعتبر الموت شيء مفزع ورهيب ، ما جعلهم يحيطونه بطقوس خاصة ، ويفرضون على الأشخاص الذين هم في فترة الحداد تابوهات يفترض فيها أنها تحميهم من خطر الموت. حيث يعتبر الأفريقي أن الزعماء أو الملوك المقدسين مشحونين بطاقات وقوى روحية غامضة ، وقد تنفجر عند ملامستها لأي شخص عادي ، كما توجد ببعض الطبقات الأخرى دنس معين أو تابو ومحرمات.

من هذه الطبقة نجد الأشخاص الذين هم في فترة حداد لموت أحد من أقاربهم، ويعتبر تابو أي شخص لامس الميت أو أي شخص اشترك في دفن جثة المتوفى، وهكذا نرى عند قبائل وسط أفريقيا << أن أي شخص لامس الميت أو ساعد في دفنه، أو حمل الجثة أو لمس عظام رجل ميت، فإنه يعزل فورا عن أي اتصال إنساني، وتقطع عنه كل العلاقات الاجتماعية لمدة معينة تحددها العقائد الخرافية السائدة في المجتمع، فلا يستطيع الشخص المعزول الدخول إلى أي بيت في القرية، أو بعمل صلة اجتماعية بأي شخص، لأنها تؤمن بأن الشخص المعزول كامن فيه القدرة على عفرتة أي إنسان أو عفرتة أي شيء[1]>>، لأنهم يعتقدون أنه ينقل الجن والعفاريت الشريرة إلى البيت الذي يدخله.

كما لا يسمح لهذا الشخص أن يلامس الأطعمة بكل أنواعها ، وإلا أصبحت في حال ملامستها دنسة (نجسة) لا تصلح للأكل ، فترمى بعيدا أو تحرق لإبعاد الأذى عن أهل القرية ، وفي حال اضطرار هذا الشخص للأكل فإنه يقوم بتناول طعامه مباشرة من الأرض بواسطة فمه ويديه مربوطتان خلف ظهره .

وتتعدد الممنوعات (التابوهات) وتختلف من قبيلة إلى أخرى ، ومن جنس إلى آخر ، فقد

(1) محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1،ص 233.

يمنع على الشخص التابو الاشتراك في أي مناسبة اجتماعية ويفضل ابتعاده قدر الإمكان ، وقد تعزل النساء الأرامل في أكواخ خارج القرية طول فترة الحداد ، فعند قبائل شرق أفريقيا إذا أراد الأرمل أو الأرملة اللذان في فترة حداد الصيد في الغابة أو على النهر ، يشترط عليهما الانفراد ، وعدم الاشتراك مع أفراد القبيلة ، ولابد عليه أن يستحم ويتطهر ليتخلص من الجن والعفاريت ، التي لامسته ، بماء سحري أعده له ساحر القرية ، قبل أن يباشر عملية الصيد المنفرد ، وذلك تجنبا لتلويث مصادر الغذاء الخاصة بالقبيلة.[1]

إذا انقضت فترة الحداد على الشخص المقدس أو الشخص النجس ، أو الملوث بالأرواح الشريرة ، فإنه يتم تحطيم الأواني التي تناول فيها طعامه في فترة الحداد ، كما يجب عليه حرق الملابس التي كان يرتديها في تلك الفترة ، اتقاء لانتقال التلوث بالأرواح الشريرة والنجاسة الموجودة به إلى أفراد القبيلة ، بعدها يسمح له بالعودة إلى حياته الاجتماعية الاعتيادية .

ج - البعث والعالم الآخر:

إن قضية الروح و البعث والعالم الآخر من القضايا الشائكة التي أعيت كاهل الإنسان الأفريقي ، الذي صدمه الموت و أرق فكره وغير حياته ، فرغم كونه يؤمن بوجود الموت والروح والحياة الثانية ، إلا أن إيمانه لم يمنعه من محاولة الاستزادة من معارفه ، التي تتعلق بهذا الجانب المليء بالتابوهات والخبايا.

وقد قيل << أن الإنسان عرف الروح بعدما فكر في بعض التجارب مثل النوم والحلم والظل والسراب والنفس والموت. واتسعت هذه الفكرة عنده فهدته إلى معرفة الجن والروح ومازالت تتسع شيئا فشيئا حتى غشى الطبيعة بالأرواح >>.[2]

لقد اعتبر الأفريقي الإنسان كيانين، واحد مادي والآخر روحي، وقد صرح أحد زعماء القبائل الأفريقية بذلك، حيث قال: << أنا أخبركم بأنني لست كيانا واحدا، ولكنني كيانين في

(1) ينظر المرجع السابق ، ص 233.
(2) محمد عبد المعيد خان << الأساطير والخرافات عند العرب >>، ص 50.

كيان واحد فهذا الجسم الكبير الذي أملكه ترونه بأعينكم ، يوجد كيان آخر صغير داخلي غير مرئي ولا ترونه بالعين ، فجسمي الكبير الضخم يموت ويدفن في القبر ، ولكن الجسم الصغير داخلي يطير ويهرب عندما يموت السم الكبير >>[1]. لكن عندما سألوه أين يذهب هذا الجسم الصغير؟ أجاب بقوله لا أعرف، قد يطير خلف الغابة أو يذهب إلى البحر...!

يسود اعتقاد لدى بعض القبائل في وسط أفريقيا بأن << الروح لها رأس وجسد وأذرع >>[2] بمعنى أن الروح هي صورة مصغرة من الإنسان الجسد، وبإمكانها الهرب من الفتحات الطبيعية الموجودة في جسم الإنسان ، لهذا الاعتبار فإن << بعض القبائل في أفريقيا يثبتون سنانير سمك في أنف وفم المريض ، حتى إذا حاولت الروح الهروب من الجسم ، فإن سنانير السمك قد تمسك بها وتعوقها عن الهروب خارج الجسم >>[3].

على هذا الأساس ظهرت أساطير وخرافات تدور حول الروح، وعالم الأموات والعالم الآخر، منها أسطورة قبائل موبوندو Mbundu المتواجدة بأنغولا ، حول **الملك كيتامبا** Kitamba ، الذي أنهك شعبه بالحداد الذي فرضه بعد وفاة زوجته ، ولم يقبل برفعه إلا بعودة زوجته من مرقدها ، وقد تطوع الساحر ـ الطبيب الموجود بالقبيلة ليعيد له زوجته من عالم الأموات ، لأنه كما سلف ذكره يفترض فيه امتلاك قدرات خارقة تمكنه من زيارة العالم الآخر[4].

كما يعكس إيمان الفرد الأفريقي بإمكانية زيارة العالم الآخر، واعتقاده كذلك بإمكانية لقاء الأموات في عالمهم، والحديث إليهم واقتصار هذا الأمر على الساحر- الطبيب. وهكذا سكب الماء في القبر المؤدي إلى عالم الأموات ـ لأن الماء هنا يرمز للإحياء والتجديد ـ أملا في عودة الملكة المتوفاة إلى الحياة من جديد. كما لبست زوجته لباس الحداد، وهو طقس من طقوس الحزن على الميت، يبين من خلالها صاحبه أنه في فترة حداد. ويختلف لون اللباس من

(1) محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، ج1، ص 206.
(2) المرجع نفسه ، ص 207.
(3) المرجع نفسه ، ص 207.
(4) ينظر جيوفري باريندر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم طريحي)، ص83.

بلد لآخر، فمنهم من يرتدي اللون الأبيض كرمز للحداد ، ومنهم اللون الأسود ، وبالنسبة للشعوب الأفريقية لون لباس الحداد هو الأبيض خاصة في أفريقيا السوداء .

وعندما وجد الساحر- الطبيب الملكة طلب منها العودة لكنها رفضت متحججة بأن زوجها سيلقى نفس المصير بعد عدة سنوات ، وأن الذي يذهب إلى عالم الأموات لا يعود ، هذا إن عكس اعتقاد لدى شعب موبوندو فإنه ليس نفسه لدى القبائل الأخرى ، التي تعتقد بعودة الروح إلى الحياة العليا .

يبدو أن قبائل شاغا Chaga التي تقطن كينيا تحوي على العديد من الأساطير والخرافات التي تروى عن العالم الآخر، **فمروى** Marwa التي توجهت إلى حقل العائلة الذي يرمز للفردوس[1] هي وشقيقتها، أخذتها الأقدار لتلقي بنفسها في البحيرة ، حيث غاصت في أعماقها لتصل حيث كوخ العجوز وأبنائها ؛ بمعنى أن الفتاة فارقت الحياة العليا لتنقل إلى الحياة السفلى ، حيث الأموات . والكوخ هنا يرمز للرحم، رحم الأم التي تخرج أبناءها في ولادة جديدة، فالفتاة عندما غرقت انتقلت بروحها إلى العالم الآخر، لكن بمجرد دخولها بجسدها إلى الكوخ استعادت هذه الروح لتولد ولادة جديدة، تمنح من خلالها حياة جديدة.[2]

هكذا وجدت في ذلك الكوخ (المسكن) ، والملجأ ، ولكنها بعد فترة رغبت في العودة إلى العالم العلوي ، ولهذا استأذنت من المرأة العجوز التي أخضعتها لطقوس العبور إلى العالم العلوي ، ومغادرة عالم الأموات (العالم السفلي) ، وذلك بغمر يديها ورجليها في إناء يحتوي ماء باردا ، والإناء باعتباره رمز الاحتواء ، والقداسة لدى معظم الشعوب كالقدر المقدس (قدر التجديد) ، التي يعتقد أنها سلف الإناء ، وقد ثبت استخدام الساحرات على وجه الخصوص للإناء في طقوسهن السحرية ، وبالتالي يكون إناء تجديد يعيد الحياة لصاحبه .

من هنا يتأكد اعتقاد الشعوب الأفريقية بوجود طرق سحرية تسمح لساكن العالم السفلي بالعودة إلى الحياة العلوية، والاندماج مجددا فيه ، كما تبين إيمانهم بقدرات غريبة خارقة

(1) ينظر فيليب سيرنج << الرموز في الفن – الأديان – الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) ، ص 414 .
(2) ينظر جيوفري بارينذر << الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم طريحي)، ص 87 .

يمتلكها سكان العالم الآخر، بدليل أن المرأة العجوز أعلمت الفتاة بأنها ستتزوج شابا معينا يدعى ساوي، وقد كان فعلا ما قالت. كما اكتسبت الفتاة نفسها قدرات خارقة مكنتها من شفاء زوجها وإعادته إلى الحياة.

المرأة العجوز هنا تمثل المرأة الساحرة في العالم السفلي ، التي تقابل الرجل الساحر - الطبيب في العالم العلوي ، والمعروف بقيامه بطقوس سحرية معينة تمكنه من مساعدة الآخرين، وخاصة الأرواح العالقة في العالم الآخر، حيث بإمكانه الوصول إليها ومحاورتها وحتى العودة بها إلى العالم العلوي ، والمرأة العجوز (الساحرة) تقوم بنفس الدور الذي يقوم به هذا الأخير ، والفرق يكمن في اختلاف المكان ، والزمان والأشخاص ، حيث تأخذ بيد الفتاة عبر برزخ الموت نحو عالم آخر أكثر بهجة ، وسعادة من العالم السفلي ، حاملة معها الكنوز والثروة .

الراسخ والمؤكد هو إيمان الشعوب الأفريقية بعودة الروح إلى عالم الأحياء ، لكن الملفت للانتباه هو الاختلاف الذي حوته الأساطير والخرافات من حيث كيفية عودة الأرواح إلى الحياة ، فبعض القبائل تعتقد أن الروح تعود إلى صاحبها الأصلي أي تعود إلى نفس الجسد وهناك من ترى بأن الروح تعود لكن في شكل آخر ؛ أي تتقمص جسد إنسان آخر، أو حتى حيوان معين ، أو شجرة ... وهذا ما يعرف بالتناسخ (تناسخ الأرواح) . وقبائل شاغا ذاتها تمتلك أسطورة تؤكد اعتقادها بعودة الروح إلى العالم الأعلى، فقد عادت روح الفتاة الغارقة في الوحل إلى الحياة في شكل شجرة.

كما تعتقد اعتقادا راسخا بإمكانية حصول رحالات بين العالمين (العلوي والسفلي). ليس هذا فحسب بل إن هذه الأرواح العائدة باستطاعتها الاقتران بأشخاص من العالم العلوي والعيش معهم بصفة عادية، والأمر لم يتوقف هنا، بل يمكنها الإنجاب ووهب الحياة لأفراد جدد فيتحول الموت من مصير فردي مظلم إلى مرحلة تطهير وتجديد، يبلى معها الجسد الدنيوي ويستبدل بجسد نوراني قادر على البقاء والاستمرار في عالم الأحياء.

بالإضافة إلى كل هذا فهم يعتقدون بغضب الأرواح التي تجلب إلى جانب المرض سوء الحظ ... كما أن هذه الأرواح ، التي سعوا إلى إرضائها بالقرابين تكفل لهم الحماية من

الكوارث ، وتساعدهم في الأوقات العصيبة خاصة روح الأسلاف . إن مقابلة الموت هو شكل من أشكال تشذيب البشر يؤدي إلى بعث روحي جديد ، هذه المواجهة لا تجلب الخلود للإنسان - فالآلهة وحدها تعيش الخلود - ولكنها تمكن من العيش بدون خوف ، والنظر في وجه الموت بهدوء وثقة ، والتعامل مع الواقع بكل رضى وقبول .

في هذا المجال طرح مالينوفيسكي سؤالا << حول الأصل الذي نبعث منه كل العقائد الخاصة بالروح الإنسانية ، ويرى في إجابته عن ذلك ، أن الموت هو المصدر الذي نبعث منه كل الظواهر مثل : الإحيائية وعبادة الأسلاف و الاعتقاد في الأرواح والأشباح . ويرى أن حقيقة الموت ستبقى مقلقة و محيرة للإنسان إلى الأبد . هنا يأتي دور الدين الذي يؤكد الحياة بعد الموت ، والخلود وإمكانية الاتصال بين الحي والميت ، وبهذا يضفي معنى للحياة ، ويحل التناقضات و الصراعات المرتبطة ببقاء الإنسان العابر على الأرض >>.[1]

بهذا يكون مالينوفيسكي قد أعطى بعدا محوريا لظاهرة الموت ، التي ترتبط بشكل أو بآخر بأساسيات القضايا الكبرى ، التي يطرحها الفكر البدائي الأفريقي على مستوى الدين وعبادة الأسلاف ، والقضية اللغز التي أرقت فكره وأجهدته الروح ، ومدى إسهام كل هذا الزخم في تشكيل روح المعتقد الأفريقي .

3 – أخلاق وسلوكات الأفارقة في الأساطير والخرافات الأفريقية:

تعتبر قضية الأخلاق من أعقد القضايا وأعوصها، كونها تتصل بالدين اتصالا وثيقا فتعكسهما كوجهان لعملة واحدة ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال تداخل التعاليم الدينية بما يقابلها من أخلاقية ، ولهذا يصعب أن نفصل بين ما هو دين وما هو أخلاق ، أو نخرج الأخلاق من دائرة الدين ، فالترابط بينهما موغل في القدم ، ومع هذا فلكل مفهومه الخاص الجلي . بحيث أن الدين << عبارة عن معتقدات وممارسات تنظم موقف الإنسان وسلوكه اتجاه عالم المقدسات ، وتزوده برؤية شمولية للكون وموضع الإنسان فيه >>.[2]

(1) أرنست كاسيرر << الدولة والأسطورة >>، تر (أحمد حمدي محمود)، ص 74.
(2) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 219.

في حين نجد أن الأخلاق عبارة عن << قواعد وممارسات تنظم موقف الفرد من الآخرين وسلوك الأفراد تجاه بعضهم البعض وتجاه الجماعة التي ينتمون إليها >>[1]. لا يمكن الحديث عن المعتقد قبل الحديث عن الطقس ، كون الدين في أسسه النفسية المتجذرة لا يحيد عن اعتباره اختبار للقدسي ، الذي يعكس حالة انفعالية داخلية ، تنم عن تجربة دينية لا تتعلق بشخص معين منعزل عن المجتمع .

أ - الممارسات الطقسية الأفريقية:

لقد مارس الإنسان الأفريقي الطقوس الدينية كممارسته للحياة ، حيث تعتبر مركزا تمحور حوله كل الممارسات كون الطقس << هو مجموعة من الإجراءات والحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية ، وتهدف إلى عقد الصلة مع العوالم القدسية >>[2] ، ويجعل هذا الأخير من الرقص والغناء شكلا متفردا يعكس هذا السلوك الطقسي ، الذي اتخذ في بدايته صفة التلقائية ، لكن تحول في لحظة ما إلى سلوك مقنن لا يمكن للفرد أن يحيد عنه بأي حال من الأحوال.

ويكاد هذا التعريف يتطابق مع ما جاء به المفكر والباحث **لوك بنوا**، حيث اعتبر الطقس << سلسلة من الحركات تستجيب للاحتياجات الجوهرية، حركات يجب تنفيذها وفقا لتناسق معين، وتبعا لاشتقاق هذه الكلمة من السنسكريتية، فهي تعني ما هو مطابق للنظام >>[3] وهو التعريف ذاته الذي جاء به **ر. جينون** حين صرح بأن << الطقس يدل في الأصل على ما تم تحقيقه وفقا للنظام >>[4].

هذه الطقوس على اختلافها وتنوعها تعكس وتعبر عن اعتقاد راسخ لدى شعب معين أو فئة معينة. يبدو أن الحديث عن الطقوس يدفعنا إلى محاولة الوقوف على أشكالها المتعددة حيث

(1) المرجع السابق ، ص 219.
(2) المرجع نفسه ، 129.
(3) لوك بنوا << إشارات ، ورموز و أساطير>>، تر(فايز كم نقش) ، ص 89.
(4) المرجع نفسه ، ص 89.

تبرز بشكل لافت في المجتمع الأفريقي، ولعل أبرزها على الإطلاق هي الطقوس السحرية التي تنبني على إيمان مطلق بوجود قوة متغلغلة في كل مظاهر هذا الكون بكل زخمه.

هذه القوة غير المشخصة؛ أي أنه لا يعرف لها مصدر معين ، لكنها تمثل لدى الفرد الأفريقي قوة لها كل التأثير والفاعلية ، فهي حيادية وفوق الخير والشر بالمفهوم الأخلاقي المتعارف عليه ، ويعتبر << الاعتقاد بوجود هذه القوة السحرية هو شكل من أشكال الاعتقاد الديني >> [1] ، وهذا الاعتقاد القوي بالسحر والقوى السحرية كان سابق عن الاعتقاد بوجود الآلهة المشخصة .

لقد ثبت عن الأفارقة اعتقادهم الجازم ، وإيمانهم الراسخ بامتلاك الرجل (الساحر- الطبيب) قوة سحرية غير محدودة تمكنه من شفاء المرضى، وطرد الأرواح الشريرة ، وإعادة الحياة للموتى ، والسيطرة على ظواهر الطبيعة ... ومع هذا فقد جاءت حقبة زمنية برز فيها الاعتقاد بوجود إله أعظم يملك قدرة تفوق قدرة الساحر ـ الطبيب، أوجد من خلالها السماء والأرض وكل المخلوقات، وهذا الاعتقاد يسير جنبا إلى جنب مع الإيمان بالقوى السحرية.

وتؤكد لنا الأساطير الأفريقية والطقوس هذا الإيمان والمعتقد ، وذلك أن الآلهة نفسها تلجأ في كثير من الأحيان إلى السحر ، حتى تتمكن من الوصول إلى غايتها العليا في خلق العالم . وأسطورة ألاتنغانا (أسطورة حول خلق الأرض ،والناس لدى شعب كونو) احتوت على عبارة شديدة الوضوح << ومن أجل أن يجد مكانا لسكناه خلق بواسطة السحر بحرا هائلا من الأقذار...>> [2].

يقوم ألاتنغانا باللجوء إلى السحر ليساعده على خلق مكان ليعيش فيه، ورغم كون الأسطورة لم تتعرض للتعاويذ السحرية والطقوس التي اعتمدها ألاتانغانا، إلا أنه ـ كما سلف ذكره ـ لا تخلو أي عملية سحرية من طقوس وتعاويذ. وللتنويه فإنني من خلال بحثي المتواضع لبعض الأساطير الأفريقية لم أصادف وجود تراتيل (تعاويذ) سحرية مدونة ضمن

(1) المرجع السابق ، ص 130.
(2) عدد من المؤلفين << مختارات من الأدب الأفريقي >> ، تر (شوكت يوسف)، ص 403 .

الأسطورة، بل وجدت أن الأسطورة يكتفي كاتبها (مدونها) بالإشارة إلى استعمال السحر والقيام بطقوسه ، وتلاوة تعاويذه ، لكن لا يجرأ إطلاقا على تدوين هذه التعاويذ والتفصيل فيها. على عكس ما وجدته في الأساطير العالمية الأخرى (إغريقية ، وهندية ، ومصرية ...).

قد يعزى هذا الغموض، وهذه الهالة من الضبابية التي أحيط بها هذا الجانب، لأهميته البالغة وقيمته الجوهرية في الأفعال السحرية، وأنه محور العملية السحرية، التي لا تتم إلا بحضوره، ولا يكون للسحر معنى في غيابه، ما دفع بأصحابه والمتمرسين به إلى إخفائه والتكتم حوله، حتى لا يذيع بين الناس، فيصبح في متناول القاصي والداني، وبالتالي تضيع مكانة وهيبة ممارسيه.

رغم مكانة الطقوس السحرية، فهذا لا يقلل من مكانة الطقوس الدينية، التي لا تكاد تنفصل عنها لدرجة يصعب معها التمييز بينهما، وتبقى لنا الوسيلة الوحيدة لذلك هو تميز الطقوس السحرية بجعل القوة السحرية وسيطا بدل الآلهة في الطقوس الدينية. هذه الطقوس كانت تقام في معابد الآلهة التي خصصها الأفارقة لهذه الأخيرة من أجل عبادتها، والتقرب بواسطتها للإله الأعظم.

وإن كانت هذه الطقوس تختلف من معبد إلى آخر، ومن إله إلى آخر، فإنه كانت لدى الأفارقة طقوس تجرى في الهواء الطلق بالقرب من مصادر المياه... والأشجار المقدس واعتبرت هذه الأخيرة رمزا للآلهة، فكانوا يقومون بالقرب منها بطقوس دينية تكاد تندمج بالطقوس السحرية.

وإلى جانب الطقوس السحرية والطقوس الدينية، نجد الطقوس الدورية التي ترتبط بأساطير التكوين، حيث تتحول فيه الأسطورة إلى سلوك الغرض منه العودة إلى الزمن البدئي (الأول)، حين قامت الآلهة بخلق العالم في بداياته الأولى، ويرى فراس السواح من خلال دراسته الميثولوجية على الشعوب، أن الطقوس الدورية ترتبط بأساطير الخصب التي تقوم

الشعوب بممارسة طقوسها، وتكرار أفعالها التي تدل على تكوينها، وبالتالي استرجاع دورة حياة إلهها من خلال الزواج والولادة، ثم الموت والبعث من جديد.[1]

ب - المعتقد الأفريقي البدائي:

لقد تبين لنا من خلال دراستنا للطقوس الأفريقية الأهمية البالغة للطقس في الجانب العقدي أو الاعتقادي ، والذي يكرس اعتقاد الشعوب الأفريقية بوجود قوى غيبية (إلهية) ترعى الفرد والجماعة في جميع جوانب الوجود ، كما يؤمن ويعتقد بامتلاكه قدرة وطاقة تمكنه من تقديم العون والمساعدة لهذه القوى ، التي لا تنفك عن تقبل هذا العون ؛ نظرا لحاجتها إليه وذلك من خلال الطقوس بكل أنماطها .

إذن فالإنسان الأفريقي ارتبطت لديه الأسطورة << بالسحر والشعائر والطقوس مشكلة أداة من أدوات التأثير في الواقع الطبيعي بالكلام ، بينما كان السحر مع ما يرافقه من الطقوس يشكل جانب الفعل والممارسة ، أي بعبارة أخرى ، كانت الطقوس - على حد قول بعضهم - أساطيرهم خرجت إلى خير الفعل >>[2]. لقد تناولت في الفصول السالفة العديد من الأساطير في شتى المجالات والمواضيع، فتبين أن الأفارقة شعب لديهم اعتقاداتهم التي تطبع دينهم وإيمانهم.

فهم شعب يؤمن بالإله الأعظم ، رغم تعدد المسميات من إقليم إلى آخر ، و من قبيلة إلى أخرى ، فهو خالق الأرض والسماء ، وكل المخلوقات والموجودات ، ويتسم بقدرته اللامتناهية ومعرفته الواسعة ، وهو الخالد الأزلي الذي لا تدركه الأبصار ، فقد خلق الآلهة المساعدة والتي كان الأفريقي يتضرع إليها بالقرابين ، فهي المفوضة - حسب اعتقادهم - بالتكفل بشؤون البشر ، والكون ، وباقي المخلوقات ، ولهذا جعلت المعابد من أجل عبادتها والتقرب إليها ، ولم تجعل للإله الأعظم لأنهم يرونه أكبر وأعظم من أن تحتويه جدران المعابد.

إنه الروح العليا السامية، لهذا فقد بقي غير مشخص، << لا توجد له تجليات صورية مرئية، وهو المصدر الرئيس لكل قوة وطاقة في هذا الكون، وهو المعني أساسا بعملية الإماتة

(1) ينظر فراس السواح << الأسطورة والمعنى >> ، ص 142.
(2) محمد عجينة << موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها >> ، دار الفرابي ، لبنان ، ط 1 ، 1994 ،ص 33.

والإحياء >>.[1] في حين أن الآلهة الأخرى هي صور وتجليات لهذا الإله الأعظم الأعلى فهذه الآلهة كانت مشخصة في مظاهر الطبيعة بكل تجلياتها، وقد ارتقت إلى مراتب سامية مع مرور الزمن ، ما أهلهم لتجسيد الألوهة المطلقة كالإله الأعظم ،ويتبين من الأسماء والأوصاف التي تطلقها القبائل الأفريقية على الإله الأسمى ، المكانة التي تمنحها هذه القبائل له ، << إنه ذو فوقية وعلو على المحسوسات فلا يتجسد فيها ، ولا يمكن تصور هيئته بوصفه روح سامية وهذا يتضح جليا من تسمية يطلقها عليه أهل نيجيريا معناها (الذي لا يدرك كنهه احد) ويعبر ال Akan maxim عن هذا الأمر بقولهم إذا أردت أن تتحدث مع الرب فأخبر الريح - يعني تنقل حديثك - >>.[2]

تعتبر الآلهة الأدنى مخلوقات تبقى عرضة لعوادي الزمن، فهي تمرض وتموت، حالها حال الإنسان رغم كونها مختلفة في تكوينها عنه، وأكثر قوة منه، فالظاهر أنها تشبهه في ما يملكه من أحاسيس وأهواء وعواطف، وتخضع مثله لنفس القوانين الموجودة بهذا الكون. ويتضح هذا جليا في أسطورة **موت أوباتالا**، التي قام فيها الإنسان (العبد لأوباتالا) بقتل هذا الأخير بدفع صخرة هائلة عليه أردته قتيلا . وهذا نتيجة للغيرة والحسد، لكن إله الحكمة جمع أجزاءه المتبقية، وصنع منها جسما صغيرا دعاه **أوريشا** Orisha ومن حينها أصبح هناك أناس صغار الجسم أمثال أوريشا.[3]

في هذه الأسطورة نجد أن الآلهة تفنى مثلما يفنى الإنسان، وبقية الكائنات الحية الأخرى وقرن وجود صغار القامة بإعادة جمع وتركيب جسم الإله أوباتالا بعد موته، وفيها إشارة واضحة إلى أصل الأقزام ومنبت وجودهم. وعند قبائل اليوروبا تقول الأسطورة أن الإنسان السلف قام بتسميم ابنة الإله عندما قابله بالاحتقار، فمرضت الفتاة ولم يكتب لها الشفاء رغم التوسلات ، إلا بعدما غير نظرته للإنسان وأعلن احترامه له ،وهذا يبين أن الآلهة لديها أسرة وتمرض وتشفى حالها حال البشر حسب اعتقادهم دائما.[4]

---

(1) عاصم محمد حسن محمد << الديانات التقليدية في غرب إفريقيا >>، www.alukah.net بتاريخ:2014/03/25

(2) المرجع نفسه، www.alukah.net بتاريخ:2014/03/25

(3) ينظر الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص35.

(4) ينظر حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث والحكايات الشعبية >>، ص 26.

ويبدو أن تصور الأفارقة لألوهة الخالق الأعظم المطلقة، لم يسلم إلى حد ما من التشخيص هذا الأخير الذي يتجلى بإحساسهم الدائم بحضور الألوهة، وتفشيها بينهم وقربها منهم واعتقدوا أنها كانت حاضرة بينهم، في زمن سبق أفعال الإنسان التي أساءت إلى الآلهة حيث تقر بعض الأساطير بأن الإله الأعظم كان يسكن الأرض قبل أن يغادرها ويلتحق بالسماء؛ نتيجة أفعال البشر التي أساءت إليه من غير قصد، ومنها أسطورة **كيف ترك الإله الأرض،** فهي ترجع سبب ترك الإله للأرض إلى أفعال الإنسان، وإصراره على إلحاق الأذى بغيره من الكائنات[1] (كقتل الضباء والجواميس والفيلة... المقدسة ،لأنها تعتبر أبناء الإله).

ومن خلال أسطورة **الإله يغادر العالم** يظهر اعتقاد الشعوب الأفريقية بأن الإله عاش على الأرض في الزمن البدئي ، وبسبب الأخطاء الفادحة ، والشرور التي اقترفها البشر ، قرر مغادرة الأرض ليسكن السماء.[2] والروايات التي تثبت الانفصال كثيرة ومختلفة ، ومنها أن ما يروى عن (السماء التي كانت قريبة جدا من الأرض ،وكان بإمكانهم لمسها ، وقد أرق هذا النسوة على وجه التحديد ، حيث أعاق هذا الاقتراب خلطهن لعصيدة الدخن الغذاء الأساس لشعوب أفريقيا) ، فافتعلت حركة بالملعقة أثارت غضب السماء ، ما جعلها ترحل تاركة المكان للإنسان.[3]

كل هذه الأساطير وغيرها كثير، تبين الاعتقاد بأن الخالق والبشر كانا في مكان واحد معا ثم حدث أمر ما جعلهما يفترقان ، ولعل هذه الروايات ـ في جوهرها ـ تشي بوجود رابط ما بما حدث لآدم وحواء وابتعادهما عن الجنة التي كانا يعيشان بها ، وما يؤكد ربما هذا الطرح ما ترويه أسطورة **الفاكهة المحرمة** ، حيث تقول أن الإله الخالق وهب الإنسان(**باتسي)** الحياة والذرية وكل ما يشتهون مقابلها حرم عليهم أكل ثمرة معينة ، لكن الإنسان لم يمتثل للأوامر وعصاها وأكل منها ، فما كان إلا أن جاء الموت إلى الأرض.[4]

نتيجة هذا الاعتقاد نجد أن كل قبيلة لها إلهها الخاص بها ، الذي تحيطه بكل صفات الكمال

(1) ينظر الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص10.
(2) ينظر جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية>> ،تر(حسن هيثم الطريحي) ، ص50.
(3) ينظر المصدر نفسه ، ص 52.
(4) ينظر المرجع نفسه ، ص 46.

والألوهية التي تصبغ بصبغة الوحدانية ، رغم التعدد والتفرع ، ومعنى هذا أن الإله الأعظم هو نفسه المعبود في كل تلك القبائل على امتدادها ، ولكنه يتخذ أسماء متعددة تختلف باختلاف اللهجات والتجليات. فكان (Leve) بسيراليون بمعنى الخالق الأعظم العلي ، و(Ngewc) بالميندوMenda بمعنى الرب والروح العظيم ، و(Maada) بمعنى الجد ، و(Mahawa) التي تدل على الرئيس الأعظم ، و(Mahaa- yilei) بمعنى الرئيس الأوحد ، و(- Maha Ngewc) ويقصد بها الرئيس الرب ، عند قبائل الكونوkono ، وغينيا وتيندا Tenda و(Yataa) عند قبائل أكان ؛ وتعني الذي تجده في كل مكان ، و(Meketa) ويقصد بها الأزلي الذي لا يموت لدى نفس القبائل ...الخ.[1]

من هنا فإن صفة الوحدانية التي تطلق على الإله الواحد الأعظم ـ الذي قام بخلق نفسه بنفسه، ثم خلق السماوات والأرض، وكل الكائنات الموجودة بينهما ـ لا تفسر في ظل وجود معتقد توحيدي مشوب بالتعدد الإلهي. والأساطير التي وجدت في المجتمع الأفريقي، وهذه التسميات المنتشرة فيه تؤكد منذ البدايات معتقدا توحيديا ظاهرا ولا لبس فيه بالرغم من المعتقد التعددي البادي للعيان.

مع هذه الألوهة المطلقة ، لم تفقد الآلهة الأدنى الأخرى مكانتها ولا تأثيرها ، فقد كانت تعبد في كل مكان ومعبد ، جعلتها ترفع إلى مقام الإله الخالق الأعظم ، رغم ذلك فهي تبقى ظلالا للقوة الإلهية العظمى ، ووجوها متعددة للقدرة الإلهية الواحدة . فالإنسان الأفريقي آمن بألوهة مطلقة يتقرب إليها من خلال إله مشخص ، مخلوق له صفات روحانية خارقة وأوكلت له مهاما معينة .

ما يدعم هذا هو قول **جاك ماندلسون** << بأن فكرة الله الأعلى ، تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور، والذاتية الاكتفاء والشاملة القدرة نجده بين كثير من القبائل >> .[2] أما فكرة الألوهة لدى فراس السواح فقد ارتبطت << بالسماء

(1) ينظر عاصم محمد حسن محمد << الديانات التقليدية في غرب إفريقيا >>، www.alukah.net بتاريخ:2014/03/25
(2) المرجع نفسه ،www.alukah.net بتاريخ:2014/03/25

نظرا لما توحيه القبة الزرقاء من إحساس بالاتساع واللانهاية، وتجاوز الحدود والأطر ثم تجسدت في إله أعلى هو إله السماء ورئيس لمجمع الأرباب، إلا أنها بقيت في ضمير الإنسان بمثابة البعد غير المرئي للوجود، والقاع الكلي الذي يقوم عليه عالم المظاهر المرئية ويستمد منه كيانه وصيرورته >>.[1]

ج ـ الدين والأخلاق في المجتمع الأفريقي:

ليس الحديث عن الأخلاق والدين مجرد عملية اجترارية للخطاب الأخلاقي والديني، بل هي عملية غاية في الأهمية؛ لأنها تتصل بالجانب الروحي والفكري للإنسان. والفكر الأخلاقي هو أقدم الأفكار الإنسانية، ولا يسبقه في ذلك سوى الفكر الديني، الذي يعتبر وجوده من وجود الإنسان ذاته.

إن تاريخ علم الأخلاق بكل تفاصيله متصل بشكل تشابكي بالفكرالديني والأخلاقي ، ويرى معظم الباحثين أن الأخلاق ما هي إلا دين تحول إلى قواعد بالسلوك ؛ أي تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين ، هذه القواعد الأخلاقية نشأت من أجل فض النزاعات القائمة بين الأفراد في المجتمع ، وهذا ما يذهب إليه بيجوفيتش حيث أعتبر أن الفكرين (الديني والأخلاقي) قد التحما بشكل وثيق عبر التاريخ .

لقد أسالت قضية العلاقة القائمة بين الدين والأخلاق في المجتمعات عامة والبدائية خاصة الكثير من الحبر، فهذا فراس السواح من خلال دراساته الميثولوجية والديانات ، يؤكد أن العلاقة القائمة بين الدين والأخلاق في المجتمعات البدائية التي بقيت محافظة على بدائيتها وبساطتها الاجتماعية والسياسية ، تعطي خير دليل وبرهان على استقلالية الأخلاق عن الدين باعتبار الأخلاق شأن دنيوي تنظمه الأعراف السائدة ، بعيدة كل البعد عن أي موجه قدسي يمكنه أن يؤثر بقوته أو قدسيته.[2]

(1) فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 211.
(2) ينظر المرجع السابق، ص 221.

ويمكن الوقوف على هذه الظاهرة في الثقافة الأفريقية البدائية من خلال أسطورة **الفتاة المغرورة**، من خلالها نقف على الأهمية البالغة للطقوس الدينية ومفهوم الخطيئة. حيث طلب من الأخت الكبرى أن تذهب إلى البركة لتقدم قربانا للتمساح، الذي يعيش هناك حتى تشفى من الوباء الذي اجتاح البلاد[1]، وقد عرف عن العديد من القبائل الأفريقية تقديسهم للتماسيح باعتبارها على قدر من الحكمة ، ورمز الألوهة والسلف ؛ فهم يرون فيها أصلهم الذي يمتد إلى بداياتهم الأولى (الأجداد) .

كان أهل الفتاة يعتقدون بشفاء ابنتهم المريضة من خلال تقديمهم قربانا للتمساح ، الذي من شأنه أن يستجلب شفقته وعطفه فيمن عليها بالشفاء ، خاصة وأن الوباء كان ـ حسب اعتقادهم ـ بسبب ذنب اقترفوه ، هذا الذنب الذي لا يمحي إلا باسترضاء روح السلف المتمثل في التمساح. إنهم يعتبرون أنفسهم ملزمون على الدوام بتطبيق الأوامر، والنواهي المتعارف عليها منذ القدم وبما أنهم ارتكبوا خطيئة ما فلابد لهم من التكفير عنها من خلال تقديم القرابين لروح الأسلاف.

وكون الفتاة كانت تتصف بسلوك مذموم وهو الغيرة والتفاهة ، فقد تخلت نتيجة ذلك عن الذهاب للبركة وتقديم القربان للتمساح ، وراحت وصديقتها إلى سوق القرية للتبضع لتقايض سلة القرابين بمشط اشتهته ، متناسية بذلك ما طلب منها ، لتزيد فعلتها دناءة بكذبها على أمها وادعائها الذهاب للبركة ، ولأن المرض استشرى وأصبح أكثر فتكا من ذي قبل ، فقد تنبه أهل القرية إلى وجود تقصير من شخص ما ، وبه يكون أنزل بالقرية أشد العقاب .

إن اعتقادهم المتجذر بأن أي تقصير أو خطأ من أي فرد من القبيلة ، يؤدي لا محالة وبالضرورة إلى عقوبة جماعية تنزل بالقبيلة ،ولهذا فقد راحوا يوجهون الاتهام لجويل من خلال وشاية صديقتها (الحسودة) ، وأنزلوا بها عقوبة تقضي بإلقائها إلى التماسيح الجائعة حتى تنال جزاءها ويرفع عنهم البلاء والمرض ، فالالتزام بتقديم القرابين أمر لا مناص منه ولا يمكن للفرد بأي حال من الأحوال أن يحجم عن هذا الطقس الديني المتعارف عليه ، لأنه قد يعرض صاحبه لعقوبة قد تصل لحد الموت .

(1) ينظر الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص58-59.

إن قواعد السلوك الاجتماعي تنص عليها المواضعات الاجتماعية ، التي تدعمها وتباركها سلطة الأسلاف ، فأرواحهم بمثابة الراعي الذي لا يتوانى عن تطبيق ما تنص عليه من أوامر ونواهي ، كما يتضح هدف الإنسان الأفريقي من الطقوس الدينية ، المتمثل في الحصول على أفضل ما في هذا الكون ،من خلال تجنب الوقوع في الخطيئة ، على اعتبار أنها هتك لحرمة القوانين الإلهية المفروضة ، وحيث أن هذا المفهوم (مفهوم الخطيئة) ـ كما يرى فراس السواح ـ غير معروف لدى المجتمع البدائي ، فإن المعاصي في أعرافهم يمكن غسلها تماما عن طريق إتباع طقوس معينة .[1]

فيمكن للشخص الذي قام بارتكاب الخطيئة أن يغسل ذنبه ، ويبعد اللوم عن كاهله ، لأنه في نظرهم ليس إنسانا شريرا بطبعه ، وهذا يتضح في نهاية الأسطورة ، حيث تمكنت جويل من التخلص من ذنبها بعدما تعرضت لأنواع شتى من الرعب الفزع ، فقدت من خلالهم غرورها وكبرياءها ، وعاهدت التمساح على العودة إلى جادة الطريق ، فتندمج في مجتمعها بالمساهمة في أعمال الخير ، والأهم من ذلك التفاني في تقديم القرابين للتمساح الذي عفى عنها ، وأطلق سراحها .

تعد الأخلاق في المجتمع الأفريقي شأنا من شؤون التنظيم الاجتماعي ، وليست شانا من شؤون الدين ، وقد نفى كثير من الباحثين أن يكون هناك رابط بين الأخلاق والدين ـ في المجتمعات البدائية ـ فالأخلاق لا تلقى دعما من قبل الآلهة العليا ، بل على العكس فهم يرون أن سلطة الأسلاف هي مصدر الأخلاق وراعيها ، والإله الأعلى لا يعتبر منبع الخير مقابل الشر ، ولا يملك سلطة العقاب والثواب ، ولا مفاتيح الجنة والنار .

ومع هذا فالأفريقي طوق نفسه بما يشبه الأخلاق الدينية ، وذلك من خلال التزامه بما يعرف بالتابو ـ والذي سبق الإشارة إليه ـ **فالتابو** << هو مجموعة من التحريمات التي تسود لدى جماعة ما ، ولا يعرف لها مصدر . والبدائي يلتزم بهذه التحريمات دون أن يعرف غايتها الأخلاقية >>.[2] ولهذا يرى **أرنست كاسيرر** أن العقل البدائي قاصر عن تبرير ما يقوم به

(1) ينظر فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 220-221.
(2) المرجع نفسه ، ص 20.

و<< ذلك لأن عقل البدائي غيبي وغير منطقي فهو سابق للمنطقي ولهذا فهو يعيش في عالم خاص به >>.[1]

كما ذهب المفكر **كلود ليفي شتراوس** مذهبا خاصا به، حين اعتبر فكر البدائي فكر حكمته حاجات الحياة الأساسية، فهو رهن ضروريات العيش كمحاولة تأمين الطعام، وإشباع الغرائز الجنسية... ولهذا فإن بإمكان أي باحث متمعن أن يدرك كنه تفكيره من خلال تفسير مؤسساته الاجتماعية ومعتقداته وأساطيره....[2]

إن الفكر الأفريقي البدائي يؤمن بوجود قوة طبيعانية تؤيد هذه التحريمات وتدعمها ، هذه القوة لا يهم إن كانت مصدرا إلهيا ، أو مصدرا سحريا يتعلق بالقوى الغيبية غير المشخصة حيث تقوم هذه القوة بوضع المتعدي على حدود التابو تحت طائل الجزاء الفوري ، الذي لا يقبل تراخ أو تأجيل ،حيث يجد الفرد الذي انتهك الحدود نفسه معاقبا دون معرفة مسبقة بمن قام بمعاقبته ، سواء بالمرض أو بالموت ، وهو الطرح ذاته الذي أطلقه السواح في دراساته الميثولوجية ، الذي أكد أنه قد تقوم القبيلة أو القائم عليها (زعيمها) بفرض عقوبة من قبلهم، بدل وقوعها من طرف قوى غيبية ، تكون بالإبعاد أو النفي، وقد تصل إلى حد الموت من خلال عقوبة الإعدام.[3]

كانت ومازالت بعض القبائل في وسط أفريقيا تخضع خضوعا تاما لاستبداد التابو ، فعند قبائل ساكلفاس في غرب أفريقيا << عندما يموت الملك الإلهي يجتمع النبلاء والأمراء في مجلس حول جثة الملك الميت ، ويختارون اسما جديدا يطلق على الملك المتوفى ، وبعد اختيار الاسم يصبح الاسم القديم تابو (مقدسا أو محرما) ، ولا يسمح لأي شخص بالنطق به ، وإذا تجرأ أي شخص على النطق به بصوت مسموع ، يعاقب الشخص الحانث للتابو بأشد أنواع العقوبات ، التي تصل إلى الحكم بالإعدام >>.[4]

---

(1) ارنست كاسيرر << الدولة والأسطورة >>، تر (أحمد حمدي محمود)، ص 15.
(2) ينظر كلود ليفي شتراوس << الأسطورة والمعنى>>، تر(صبحي حديدي)، دار قرطبة للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1986 ص16.
(3) ينظر فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 222.
(4) محمد عبد الحميد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر >>، ج1، ص 283.

ومن العقائد الشائعة عن القبائل الأفريقية البدائية هي عدم السماح للدم الملكي بالسقوط مباشرة على الأرض، لأن روحه تكمن في دمه، كما لا يستخدم كهنة المعابد في وسط أفريقيا الآلات الحديدية ، لإجراء عملية الختان ، أما في جنوب أفريقيا فلا يستخدم الكهنة سكينا حديدية داخل المعابد، لكنهم يستخدمون سكينا من حجر الصوان،[1] هذا يعود لنظرة الشك والريبة والنفور من معدن الحديد ، لأنه شيء جديد ونادر وغير مألوف، فهو يثير الخوف لدى الإنسان الأفريقي البدائي، لأنه يربط العلاقة بين الشيء الجديد والكوارث التي تحدث.

إذا تمعنا في هذه الأمثلة القليلة يمكننا أن نتبين القاعدة المشتركة بين التابو، وقائمة الأخلاق الدينية، فكلاهما يستند إلى قوة غيبية أكبر من الفرد ومن النظم الاجتماعية معا، لكن الاختلاف الوحيد بينهما يرجع إلى أن ممنوعات (تحريمات) التابو تتطلب عدم انتهاك حدود قوى إلهية أو سحرية، بينما قائمة الأخلاق الدينية تتعدى ذلك لتتجاوزها إلى العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع.

يذهب في هذا فراس السواح مذهبا بعيدا، حيث يرى بأنه عند مرحلة معينة من تطور المجتمعات البدائية، اتسعت دائرة التابو لتشمل تدريجيا بعض القواعد الأخلاقية، التي كانت شأنا دنيويا تنظمه الأعراف والعادات المتبعة، في الوقت نفسه كانت تحريمات التابو القديمة تفقد سطوتها، ويتراجع جبروتها، خاصة مع تحول المفاهيم الدينية وتغيرها شيئا فشيئا.[2]

يعتقد ليفي شتراوس أن السر الكامن وراء كل الحضارات، ومنها البدائية هو النشاط اللاشعوري للنفس ، حيث أن هذه الصور من الحتميات ملازمة للنفس البشرية البدائية خاصة، ومن أجل هذا فإنه إذا أمكننا الوصول إلى البناء اللاشعوري المتخفي وراء التنظيمات الاجتماعية ، فبإمكاننا الحصول على مبدأ صالح لتفسير العادات والتنظيمات الأخرى.[3]

---

(1) ينظر المرجع السابق، ص 280 .
(2) ينظر فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، ص 222.
(3) ينظر Claude Levi Strauss, Anthropologie Structurale, Plon, 1958 ,p6

لقد تطرقت العديد من الأساطير والخرافات إلى مسألة الأخلاق، كخرافة **أشدو يا صرصور أشدو**، التي تعالج قضية البخل بنوع من الدعابة، فالقبائل الأفريقية (غرب أفريقيا بالتحديد) دأبت منذ الأزل على إقامة حفل لمن يتوفى يدوم عدة أيام، فيستأجر أهل المتوفى بعض المحترفين من النائحين ليقوموا بالغناء والنواح بصورة مبالغ فيها، حتى يشاع بين الناس أنهم أكرموا متوفاهم.

حدث وتوفيت حماة شان الذي يتصف بالإمساك، والحرص على عدم الإنفاق، فلم يدخر جهدا في القيام بمراسم الحداد بنفسه من خلال آلة وترية معروفة لدى الأفارقة، لكن وهو يجوب الغابة اهتدى إلى وجود حشرتان تصدران صوتا عاليا وهما زوجا من الصراصير التي ترمز إلى الضجة والإزعاج ، فعقد معهما صفقة تمثلت في غنائهما في حفل الجنازة متخفيان، ويدعي أنه هو من يقوم بالغناء مقابل منحهما الطعام ، فكان له ما أراد.[1]

غير أن بخله طغى على أخلاقه ، فأخلف وعده وحرمهما من الطعام ، فتركاه بعد حيلة منهما ، لأنهما لم يطيقا صبرا على بخله وكذبه المتواصل عليهما . وإذا كانت الأساطير والخرافات قد تطرقت لمسألة الأخلاق في الحياة الاجتماعية الأفريقية، فذلك يعود لعلو شأنه في الحياة الدينية، ما ترك أثره الواضح على مفهوم الإله ، وصورته وخصائصه لدى المجتمع، فإن دعى الإله إلى تحري الفضيلة، والابتعاد عن الرذيلة والأخلاق السيئة ، فهذا يعني أنه الخير لذاته، فيصبح رمز الخير المطلق ، وبالتالي وتلقائيا يظهر نقيضه الذي يمثل الشر المطلق، وهو الشيطان.

نجد هذا الطرح ماثلا في دراسات فراس السواح للميثولوجيا والديانات، فقد رأى أن صورة الشيطان تتوضح أكثر وتبرز، كلما كانت قيمة الأخلاق في ديانة ما أكثر علوا، ما يجعله – أي الشيطان – يصبح بعد الإله الأعلى الذي يمثل الخير، مرتبة، أو يكون في مرحلة لاحقة مساوية له، وبالعكس.[2] كما أن الأخلاق والدين إذا ما انفصلا عن بعضهما، واستقلا أحدهمـــا

(1) ينظر الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية >>، ص 92.
(2) ينظر فراس السواح << الأسطورة والمعنى>>، ص 223.

على الأخر، جعلا من تواجد الشيطان وحضوره أمر نسبي، حيث تضيع قوته وصلاحيته على عدد معين من الكائنات الماورائية الظلامية، التي لا مفعول لها يذكر وصارت أكثر دونية.

لكن على الأغلب أن الميثولوجيا الأفريقية لم تشر إلى شخصية ما ورائية بعينها أنها مسؤولة عن الأعمال الشريرة في الكون بالمعنى الأخلاقي ، كما لا نعثر كذلك على آلهة تمثل الخير في ذاته أو تحث عليه ، أما ما يظهر جليا من خلال هذه الدراسة المتواضعة، أن الإنسان الأفريقي ذو حساسية أخلاقية عالية ، فهو يعتقد بأن أي مكروه يصيبه هو نوع من العقاب على ذنب ما أو خطأ اقترفه بحق أحد من الآلهة، أو السلف، وما يدعم هذا الطرف هو غياب مفهوم العقاب في الحياة السفلى (العالم الآخر) في التصورات الدينية الأفريقية، هذا ما يجعله يتوجه للآلهة بالقرابين، والصلوات والتضرعات طمعا في الحصول على العفو.

على هذا الأساس يرى كثير من الباحثين أن الفكر الأخلاقي، هو أقدم الأفكار الإنسانية ولا يسبقه في هذا سوى الفكر الديني، فهو قديم قدم الإنسان. وقد اتحد الفكران معا عبر التاريخ فهما في تشابك (الفكر الديني والفكر الأخلاقي)، فأي بعث حقيقي تكون بدايته دائما بيقظة دينية، والأخلاق ما هي إلا دين تحول إلى قواعد للسلوك؛ أي تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين.

الخاتمة:

إن المتصفح لهذه الدراسة يكتشف بعض أهم وأدق الأسرار والمعلومات، التي بإمكان الأسطورة والخرافة الأفريقية البوح بها، والتي من المتوقع أن تعطينا صورة واضحة الملامح والمعالم للمجتمع الأفريقي في أهم مجالاته. فقد سعينا في هذا البحث إلى كشف اللثام عن خبايا المجتمع الأفريقي بكل تجلياته من خلال اقتحام عالم الأسطورة، والخرافة المليء بالإثارة والفضول.

فالأسطورة - رغم ما يعتري مفهومها من خلط بينه وبين غيره من المصطلحات الأخرى كالخرافة، والحكاية البطولية...- أثبتت استقلاليتها عن هذه المصطلحات؛ التي تقترب منها إلى حدّ بعيد، والحدّ الفاصل بينها لا يكاد يلمسه القارئ العابر، بقدر ما يقف على كنهه الباحث المتفحص المتمعن، وهذه تعتبر الخطوة الأولى في البحث حتى تستقيم الدراسة، وهي اللبنة التي يقام عليها البناء المتين.

لقد أثبتت هذه الدراسة أن الأسطورة تتجاذبها عدة مجالات ومعارف، حاول من خلالها باحثون كثيرون الوصول إلى الغاية والمقصد من وجودها في زمانها البدئي الذي ظهرت فيه والسفر عبرها إلى ذلك الزمان؛ بقصد استجلاء خبايا تلك الحقبة الغابرة في غياهب الزمن والتي خلفت أساطير ارتبطت بقضايا أساسية غاية في التعقيد، كمسألة خلق العالم (أسطورة خلق العالم)، وخلق الإنسان (أسطورة خلق الإنسان)، وخلق الموت...والأهم من هذا كله خلق الآلهة والأرباب.

كما اتضح لنا بعد صولات وجولات في ربوع المجتمع الأفريقي البدائي، ومن خلال امتطاء صهوة الأسطورة والخرافة، أنه مجتمع يتمتع بخصوصية إلى حدّ بعيد، هذه الخصوصية جعلته يتميز عن غيره من المجتمعات في ميادين شتى، فالمقولة التي تفترض أن بناء الفكر الإنساني عبر عدة مراحل كانت بدايتها وانطلاقاتها مع السحر حيث افترض **هيجل** أن عصرا ساد فيه السحر قد سبق عصر الدين في تاريخ الحضارة الإنسانية، وأيده في ذلك جيمس فريزر الذي ربط علاقة وطيدة بين السحر والدين، وأن السحر هو اللبنة الأساسية التي بني عليها الدين في مرحلة التحضر البشري، هذه المقولة تكاد تنطبق إلى حدّ بعيد على

المجتمع الأفريقي، الذي ثبت عنه بوضوح المكانة العالية للسحر والساحر، هذا الأخير الذي ارتقى بسحره وطقوسه إلى مرتبة الملك المؤله في كثير من الأحيان، في ظل عقلية بدائية تعتقد بجدية ممارسة الطقوس السحرية وفعاليتها.

لقد ظهر للعيان توغل المقدس في هذا المجتمع، وتجذره إلى حدّ تقدّس فيه كل ساكن ومتحرك، فقُدس الإنسان والحيوان، والنبات، والجبال، والأنهار، والأشجار...كما ارتقى هذا التقديس ليتحول إلى تأليه وعبادة، فقد قدم الإنسان الأفريقي فروض الطاعة والولاء لكل القوى الطبيعية التي كان يعتقد فيها القوة والسطوة، والقدرة على الخلق أو حتى الأذى، وبهذا كان المجتمع الأفريقي مجتمعا طقوسيا بالدرجة الأولى، حيث كان يمارس طقوسه الدورية واليومية انطلاقا من إيمانه المطلق بالمقدس والمؤله، هذه الطقوس التي رأى أنها كفيلة بتحقيق المبتغى والمقصد.

وليس بعيدا عن مرمى هذه الدراسة التي هدفنا من ورائها الولوج إلى أغوار المجتمع الأفريقي إلى حدّ ما، عبر اساطيره وخرافاته، فقد توصلنا إلى حقيقة، ألا وهي قيام المجتمع الأفريقي على لبنة في غاية التماسك والتميز، تمثلت في القبيلة بكل أنظمتها وأعرافها التي لا تقبل نقاشا ولا مراجعة، فالسلطة النابعة من الأسلاف تفرض على الفرد الأفريقي التسليم والخضوع لكل ما يطلب منه، وليس بإمكانه حتى مجرد التفكير في الخروج عن إرادة الأسلاف، الذين يملكون حاضره ومستقبله ويتحكمون في حياته ومماته.

كما توصلنا من خلال هذه الدراسة الإرساء على حقائق في غاية الأهمية والإثارة، تجلت واضحة في الفكر البدائي للإنسان الأفريقي، الذي كان يكتنفه الغموض والإبهام فيما يخص بعض القضايا الحساسة والتي تتعلق بشكل مباشر بوجوده في هذا الكون ورحيله عنه، وعلامات الاستفهام المطروحة عديدة ومختلفة. فهذا الإنسان على بساطته وعفويته وأحيانا سذاجته أعطى تفسيرات تترجم فكره وثقافته، فالأسطورة هنا تشكلت لتبين العلاقة القائمة بين الظروف والبنى الجسدية والأخلاقية، وضمان المحافظة على السلوك الطبيعي للإنسان.

ففيما تعلق بمسألة الزواج والولادة كان المجتمع الأفريقي يكتنفه غموض كبير ما جعله يكرس اقتران المرأة بظاهرة من ظواهر الطبيعة كالبرق... أو بحيوان مقدس كالأفعى مثلا، كما ربط العلاقة وثيقة بين بعض الولادات غير الطبيعية (أطفال مشوهين)، وبين اللعنة التي

يعتقدون بحلولها عليهم نتيجة تقصيرهم في أداء بعض الطقوس، أو بسبب ذنب اقترفوه والمجتمع الأفريقي يرى في المرأة العاقر رمزا للشؤم والقضاء على الخصب، كما يتملكه الرعب الشديد من المرأة الحائض والنفساء اعتقادا منه أنهما ملوثان بأرواح شريرة قد تنتقل إليه لتلوثه، فيصاب بأذى معين يلقى على أثره حتفه؛ الشيء الذي جعله يعزلهما أثناء تلك الفترة في أكواخ خاصة والحال نفسه مع من توفي له شخص معين، ولهذا فهو يبالغ في الحرص على سلامته بتقديم القرابين وأداء الطقوس.

ومن هذه الطقوس ما دأبت عليه بعض القبائل، فقد كانت تخضع الفتيان الذين يبلغون سن المراهقة لطقوس التكريس، بقصد اختبار مدى أهليتهم ليصبحوا رجالا بالغين، هذه الطقوس قد تعرض الفتى للموت من خلال شج رأسه بسيف حاد إضافة إلى هذا، فإن هذه القبائل تمتلك موروثا مثيرا للاهتمام تمثل في الوشم أو الخدش، وهي نقوش وعلامات ترسم على جلد الفرد تتم من خلال جرح الجلد وتشريحه، هذا الفعل تميز به الإنسان الأفريقي عن غيره من باقي الشعوب، ويعزى هذا الخدش إلى نمط معيشة الإنسان الأفريقي القاسية والبدائية، كونه على احتكاك دائم بحيوانات ضارية تترك على جسمه آثارا عميقة مما جعله يضطر لمحاكاة هذه الآثار ويوظفها لتكون له هيبة وقوة.

كما توصلنا من خلال هذا البحث إلى الكشف عن حقائق تعلقت بمسألة الأخلاق في المجتمعات الأفريقية البدائية، فهي شأن من شؤون التنظيم الاجتماعي وليست شأنا من شؤون الدين، فالإله الأعلى لا يعد راعيا للأخلاق لأن هذه الأخيرة تعلقت بالأعراف وسلطة الأسلاف فهما تعدان السلطة والمرجع المبجلان عن كل سلطة أخرى، وإن أردنا تقفي أثر هاته الأخلاق فإننا نلمسها في مؤسسة التابو، التي تفرض هيمنتها على ذهنية الإنسان الأفريقي البدائي.

فكثير من القبائل الأفريقية عندما يموت الملك الإلهي يجتمع النبلاء والأمراء ويختارون اسما جديدا للملك المتوفى، فيصبح الاسم القديم تابو لا يسمح إطلاقا بالنطق به، ومن انتهك هذا التابو يعاقب بأشد العقوبات التي قد تصل إلى حد الموت. فالقاعدة مشتركة بين التابو وقائمة الأخلاق الدينية، وكلاهما يستند إلى قوة غيبية أكبر من الفرد والنظم الاجتماعية معا، في حين يكمن الاختلاف بينهما في كون الممنوعات التابو تشترط عدم انتهاك حدود قوى إلهية أو سحرية، بينما لائحة الأخلاق الدينية تتعداها لتمتد إلى علاقة الفرد بالمجتمع.

كما توصلنا في هذه الدراسة إلى أن دور الأساطير لا يتركز بالضرورة في تفسير الظواهر الطبيعية بكل زخمها، بقدر ما كان يسعى إلى إرساء دعائم المعتقدات والممارسات التي تقوم عليها أسس التنظيم الاجتماعي.

إن الأسطورة ومعها الخرافة عكست بحق حياة الشعوب البدائية بصفة عامة، والمجتمع الأفريقي بصفة خاصة، حيث كانت له بمثابة التاريخ الشاهد على حقبة زمنية غاب فيها التاريخ، وفُقدت فيها الكتابة والتدوين، فكانت بذلك النواة الفعالة التي التف حولها البناء الاجتماعي والثقافي والسياسي، وحتى الديني لهذا المجتمع الغارق في بدائيته والمتمسك بعراقته حتى النخاع.

ولذلك نوصي بالاهتمام بمثل هذه الدراسات التي تفتح الباب على مصراعيه لثقافات شعوب كانت ولازالت إلى زمن قريب تعد من التابوهات، التي لم يتجرأ أحد على اقتحامها، فهو جانب معرفي زاخر وبكر، لكنه يقبع في غياهب الإهمال واللامبالاة.

ملحـــق

بعض الأساطير والخرافات الأفريقية

ملحق الأساطير والخرافات:

ملخصات الأساطير والخرافات:

- التوأمان:

تشير الأسطورة إلى أن أما بدائية تدعى نانا بولوكو خلقت التوأمين ماوو، وليزا، حيث يوصف ماوو بصفة الخنوثة، في حين ليزا تتصف بالذكورة، وقد كانا في البداية بدون أولاد بعدما التحما في الكسوف فانجبا سبعة توائم (آلهة)، وقد أوكلت لكل واحد منهم مهمة تتعلق بطبيعته.

- كيف خلق العالم من قطرة لبن:

ترى الأسطورة أن العالم خلق من قطرة لبن عظيمة، فقد خلق الإله الأعظم هذه المخلوقات تباعا، وكان كل منها يخلق الآخر، فخلق الحجر ثم الحديد ثم النار، فالماء والهواء، فالإنسان وبعدها العماء والنوم، وأخيرا الموت، ثم قهر جينو الخالد الموت.

- بداية الخلق:

كان العالم مغمورا بالمياه (مستنقعات) ولا تجد الآلهة مكانا للعب والاستمتاع، ما استدعى وجود يابسة تكفل بها إله السماء كبير الآلهة (أوريشا نلا)، وكانت عدة حيوانات مقدسة مساعدة له (دجاجة، حمامة، حرباء) فوجدت اليابسة، وظهرت الأشجار والنباتات بعدها خلق الإله أول - أوون الإنسان من صلصال، ثم نفخ فيه من روحه.

- خلق اليابسة (أصل العجز):

تولى الإله أوباتالا خلق اليابسة بتكليف من الإله الأكبر أولود ماري، وكان هذه المرة الديك هو المساعد، حينما نزل من السماء وبدأ بنثر التراب بمخالبه لتظهر اليابسة.

- خلق البشر:

خلق البشر من الأرض إناثا وذكورا أسوياء، ولكن عندما شرب أوباتالا نبيذ النخيل خلق الأعمى والأحدب والأعرج (أي أصحاب العاهات)، فأصبح بذلك إله مشوهي الخلقة المقدس ليتم بعدها تحريم شرب النبيذ.

- الاختبار سر الاختيار:

تروي هذه الأسطورة كيف تعرض السلف الأول إلى اختبارات عديدة، نتيجة رغبته في الزواج بابنة إله السماء، التي وقعت أسيرة حبه، في حين عارض أهلها هذا الزواج، وأمام إصرارها تقرر إخضاع (كنتو) إلى عدة اختبارات من خلال حرمانه من بقرته، وأخذها للسماء أين تعرض لمكر الإله، لكنه كان دائما يخرج منتصرا بفضل ذكائه وحنكته، ومساعدة بعض الحشرات كالنحلة له، فتزوج ابنة الإله ونتج عنه إعمار الأرض بالذرية، وانتشار كل الكائنات.

- لمن تشرق الشمس؟

يبدو أن الشمس كانت سببا في وجود الإنسان الأول (السلف) حينما سألت الإله عند خلقها عن سبب شروقها، فقد كان الإنسان الأول (ماوامبو) يعيش وزوجته (سيلا) وحيدين محرومين من أسباب الحياة، لكن تضرعهما للإله جعل حالهما يتحسن؛ من خلال نزول المطر وانتعاش الحال وقد منحا كذلك حيوانات عاشت إلى جانبهما، خاصة الأبقار التي أهديت لهما فكانت تمثل ثروة عظيمة، ولأجل هؤلاء أشرقت الشمس ليعمر الكون وتحيا الكائنات وكانت طريقة عيش (ماوامبو وسيلا) السلف نمطا متبعا لدى بعض القبائل الأفريقية.

-أربع عمليات خلق للإنسان (الصانع والثعبان المريش الخالقان):

كانت الكلمة في مكان يدعى كويتشي؛ وهو المكان الذي عاش فيه شعب كويتشي، وقام الخالقان (الصانع والثعبان المريش) بإخراجها، فولدت السماء والأرض وحدثت أربع عمليات خلق:

عملية الخلق الأولى: لم يكن يوجد أي شيء ماعدا البحر بظلمته، فجاء الصانع والثعبان المريش، وحضرت البروق الثلاثة: الإعصار البرقي والبرق الجديد والبرق الأخضر السماوي فخلقت الأرض والأشجار والحيوانات.

عملية الخلق الثانية: وفيها محاولة خلق الإنسان من الطين السيئ.

أما عملية الخلق الثالثة: فكانت لخلق الإنسان من الخشب، وفشلت.

في حين عملية الخلق الرابعة (الأخيرة): خلق فيها الإنسان من اللحم (المكون من الذرة الصفراء والبيضاء والماء)، فجاء السلف الأول المكون من أربعة رجال، ثم خلق النسوة الأربع؛ ليعمروا الأرض بقبائل عديدة ومنهم قبائل شعب كويتشي.

- كيف ترك الإله الأرض:

في غابر الأزمان عاش نيامبي مع زوجته ناسيليلي على الأرض بعدما خلق كل الكائنات ومنهم الإنسان كامونوا وزوجته، كان كامونوا يقلد نيامبي في كل شيئ يفعله، بعدها صنع رمحا وبدأ يقتل به الحيوانات ويأكلها، لكن نيامبي عنفه لأنه يقتل أبناءه الذين هم إخوته أيضا وطرده بعيدا، لكنه استمر في أفعاله ومع هذا سامحه نيامبي عدة مرات (حينما قتل الضبي والجاموس والفيل والكلب...)، واعتبره عطاء منه، لكنه في الأخير ضاق منه ذرعا وترك المكان على الأرض، وانتقل إلى العيش في السماء.

- الكلمة:

حيث كانت قوة الكلمة التي تخلق من الشيء شيئا آخر، وكانت السماء فارغة ولم يكن سوى شجرة فوقها نمل، وعندما عصفت الريح أخذت فرع شجرة فوقها نمل رمي في الفراغ حيث بدأ النمل يأكل منه ويرمي فضلاته التي تشكلت منها الأرض؛ ثم تصلبت الفضلات ووجدت الجبال الشاهقة، وبعدها الوديان والمياه، ومازالت الشجرة الأم شامخة، ثم وجدت الكائنات الأخرى شيئا فشيئا ومنها البشر، وكان الطعام على الأرض قليل فوقعت حروب طاحنة بين الحيوانات والبشر، وتوقدت الشمس والقمر وخلقت الآلهة الأخرى حيث طلب منهم البشر العون، ثم ظهر الإله الخروف الذي قتل الكلمة وحكم العالم وكان ينازل الأشجار إلى أن

كسرت غروره شجرة الملانجزي. استمرت حروب البشر مع الحيوانات، وطلبوا مساعدة إله الشجر فلامهم على ما فعلوه من عبادة للخروف، وكعقوبة لهم جعل قامتهم تبلغ نصف ما كانت عليه والنار تحرق عالمهم.

- الإله يغادر العالم:

كان الإله يعيش على الأرض لكنه قرر مغادرتها ليلتحق بالسماء، بسبب انزعاجه من طلبات الإنسان التي لا تنتهي، وجشعه الدائم.

- أغبوينبا:

عندما نزلت الأم الأولى واينجي إلى الأرض فوق حجر التكوين خلقت البشر وطلبت من كل واحد أن يختار قدره، وجنسه، والحياة التي يريدها، وطريقة الموت التي يشتهيها اختار الجميع أقدارهم فمنهم من اختار المال والبنون، ومنهم أغبوينبا التي اختارت القوى السحرية لكن الحال لم يطل حينما حنت المرأة إلى أن تكون أما، وتبعت رغبتها القوية لتدخل في حروب طاحنة من أجل ذلك مع العديد من أصحاب القوى السحرية، الذين حاولوا منعها من الوصول إلى الأم واينجي، حتى لا تلقى حتفها لأن من يعود عن اختياره يستحق العقاب الشديد.

مع هذا لم تتوان وواصلت رحلتها الشاقة، حتى وصلت إلى الأم واينجي التي نهرتها على ما تفعله، لأن الإنسان إذا اختار قدره فلا رجعة فيه، ومن ثمة اختبأت في عيون الحوامل.

- ألاتنغانا:

خلق إله الموت سيا في الظلام بحرا هائلا من الأقذار؛ ليسكن فيه رفقة زوجته وابنته، لكن عندما زاره الإله ألاتنغانا استنكر المكان المريع الذي يسكنه فحاول مساعدته، فتكونت الأرض من الأقذار المتصلبة، وخلق عليها النبات والحيوان، بعد فترة طلب ألاتنغانا يد ابنة سيا، لكنه رفض طلبه ما اضطرهما للزواج رغما عنه والذهاب بعيدا، وقد رزقا سبعة صبيان وسبع بنات، أربعة صبيان وأربع بنات منهم بيضوا البشرة والباقون سود، وقد تكلموا بلغات غير مفهومة وكانت هذه عقوبة سيا للوالدين. ومن هؤلاء الأبناء تكاثرت الذرية وعمرت الأرض

لكنها بقيت على ظلمتها فاقترح سيا على ألاتنغانا اللجوء لطقوس خاصة؛ حتى ينتشر النور وكعقوبة كبرى لألاتنغانا جعله سيا يفقد أبناءه كلما أراد هو ذلك من خلال مناداته لهم، وبالتالي ظهر الموت.

- الزوجة الساحرة والثقوب التسعة:

كان رجل يعيش مع زوجة تمتهن السحر، لكنه لا يعلم ذلك؛ ونتيجة لذلك ظهر على جسدها تسعة ثقوب تخرج منها روائح نتنة، فأبغضها زوجها لكنه صبر عليها؛ لأنها تتكفل بوالده المريض، غير أنها حاولت قتلهما من خلال الحساء المسحور- الذي نبههما لما تكيده - فانقلب عليها الزوج بعد أن كشف أمرها فقام بطردها إلى الغابة، وتمت فضيحتها بين الناس.

- ابنة زعيم القبيلة والأمير المسخ:

لقد ظهر الفتى في القبيلة فجأة دون أن يعرف عنه شيء، فأعجبت به الفتاة (ابنة الزعيم) التي رفضت كل من تقدم لها، فرح الوالدان بهذا العريس الذي تقدم لخطبتها ووافقت، ثم انتقلت معه لبيت الزوجية، وفي الطريق أبان العريس المرتقب عن شروره ونواياه في الاستفراد بالفتاة والفتك بها، وقد أوشك على تحقيق ذلك لولا التدخل القوي والمفاجئ من أخ الفتاة، الذي قضى عليه وخلص أخته وعاد بها إلى القبيلة سالمة.

- موريل والمقعد:

وبخ موريل من قبل أمه حين سرق مقعد والده، ما جعله يأخذه ويرحل إلى السماء أين وجد في طريقه عدة قبائل بأحوالها المختلفة، ومن بينها قبيلة لا تعرف النار، فدلها على كيفية الحصول عليها فكافأوه وقدسوه، وبعدما تحسنت أحواله جميعها أقفل عائدا إلى أهله ممتطيا ظهر ثور عاهده على الحماية وعدم الأذية، ورغم تحذيره لوالديه بعدم أذيته إلا أنهم ذبحوه وأطعموه لحمه، فاختفى الفتى في جوف الأرض لأنهم خانوا العهد.

- ابن التمساح:

تقول أن الأم السلف عاشت إلى جانب التمساح زوجها على ضفة النهر، لكن أحد الرجال غرر بها وتزوجها فأنجبت منه طفلين، بعدها عادت إلى زوجها التمساح ومن يومها اعتبر أحفادها التمساح جدهم السلف، الذي حرم قتله وأذيته.

- العرش المقدس – هبة السماء:

لقد كان كرسي العرش مقدسا لدرجة جعلت الساحر أنوتشي يحرض أفراد قبيلة أشانتي على الثورة ضد مغتصبه، وهو زعيم قبيلة مجاورة، وقد استعان بالسحر ليحقق مبتغاه، وكان له ذلك حين استجاب له الملك السابق والرعية، الذين انتفضوا حتى كان النصر.

- ابن النهر وكهنة المعابد:

كان أحد أفراد القبيلة يراقص أسدا، بعدما تزين بأساور ذات ألوان زاهية وصوت رنان نالت إعجاب الأسد، حيث أراد الحصول عليها لولا امتناع الرجل، فما كان من الأسد إلا أن نهش ذراعه وأخذها فأرداه صريعا، تاركا وراءه زوجة وابنتها عرضة للجوع والحرمان ولأن المرأة لم تجد من يعيلها وابنتها فقد لجأت إلى النهر، الذي جعلها تحمل منه بولد (آبول) كان لهذا الولد شأن عظيم في القبيلة، حيث حمل الرمح وهو صغير وعرف عنه العديد من المعجزات، وامتلاكه لقوى خارقة وقدرة على التنبؤ، عاش بالقرب من النهر رغد الحياة إلى أن توقفت الأمطار وحل القحط ، فهاجر أهل قريته إلى أماكن أخرى بحثا عن الخصب، غير أنه بقي بماشيته التي قاومت، لكن سره انفضح ودخل في حرب ضروس مع أفراد قبيلته من أجل الكلأ. بعدها قدم لزمرة من قبيلته رماحا للصيد وثورا مقدسا، تقام له المعابد، وزمرة أخرى قدم لها رماح الحرب، ثم تنسك وصار إلها تقدم له القرابين.

- الزنبور البناء:

لم يكن في البدء لدى الصقر والنسر الصياد والغراب نار؛ نظرا لانعدامها على الأرض فحاولوا أن يحصلوا عليها من الإله، فشدوا الرحال متجهين صوبه، لكن الرحلة كانت منهكة لقواهم، حيث كانت كل عشرة أيام تسقط عظام طير تباعا، بداية بالصقر ثم النسر الصياد

انتهاء بالغراب، ولم يبق إلا الزنبور الذي استقبله الإله وحيّ فيه شجاعته وإصراره، ومنحه النّار ومزية أخرى تمثلت في حصوله على الأبناء من خلال حشرة نغونغوا، التي تجعل من المواقد بيتا لها، ومن يومها كانت النّار في متناول الجميع.

- جبال كيرنياغا:

مفادها أن الإله خلق هذه الجبال ليرتاح عليها ويراقب خلقه، ولأجل تعمير الأرض اختار ثلاثة من أبنائه (كيكويو، وكامبا، وماساي) السلف الأول، وأعطى لكل واحد ما اختاره من سلاح يعينه على الحياة، وكلف كل واحد بمهمة، ومنح الإله كيكويو بقعة من الأرض وامرأة غاية في الجمال، وطلب منه أن يتزوجها ويعمر الأرض، لينجبا تسع بنات وحرم الولد ولكي يحصلا عليه ذهبا لسفح الجبل حيث الإله يراقب من فوق وتضرعا له، وقدما له القرابين ليجدا عند عودتهما تسعة فتية، فاقترن الفتية بالبنات لتظهر قبائل عديدة تحتل المرأة فيها مكانة عالية بحيث يمكنها أن تتزوج أكثر من رجل، وسميت القبائل بأسمائهن.

- الفتاة المغرورة:

كانت فتاة تدعى جويل (الجوهرة) تتميز بجمالها الفاتن، وهي أكبر أخواتها الثلاث ونتيجة غرورها بجمالها فقد كانت ذميمة الأخلاق متكبرة، وحصل يوما وأن حل الوباء بالقرية وأصاب أختها الصغرى، فطلبت منها والدتها أخذ القرابين لتمساح البركة لعل المرض يذهب عن أختها، وتنعم بالصحة والشفاء، لكنها قبلت عن مضض؛ ولأن الطبع غلب التطبع فقد أخذت السلة للسوق وقايضتها وصديقتها بمشط أعجبها، ولم تلتفت لواجبها، عندما لاحظ أهل القرية أن الوباء ازداد حدة وفتكا، تساءلوا عمن قصر في حق التمساح، فوشت بها صديقتها وفضح أمرها، وعوقبت بتركها فريسة لتماسيح البركة، لكن كبيرهم رق لحالها، وعاقبها بطريقته الخاصة وتركها لتعيش نادمة أسفة، وقد تغيرت أخلاقها للأحسن بعدما عرفت خطأها.

- موت أوباتالا:

كان الإله أوباتالا يتخذ من البشر عبدا وقد منحه حقلا ليزرعه، وأقام عليه كوخا أعجب به أوباتالا، فكان يتردد عليه ليرتاح، لكن العبد أنكر المعروف وأضمر له الشر، وترصد له ذات

يوم في الأعلى بصخرة دفع بها لترديه صريعا محطما أجزاء صغيرة، فنزل إله الحكمة وجمعه ليصنع منه جسدا صغيرا اسمه أوريشا، الذي كان منه صغار الجسم (الأقزام).

- أسطوة من قبائل أشانتي حول غموض الولادة:

حدث وأن هبط رجل وامرأة من السماء، وانبعث آخران من الأرض، وكانت هناك أفعى غير سامة تعيش في النهر، وكان كل من الرجلين والمرأتين لا يعرفان كيفية الاتحاد ولا يرغبان به، فدلتهما الأفعى على الطريقة وساعدتهما بقذف الماء على بطني المرأتين، وبعدما حملت كلاهما نفخت فيهما من روحها، فتكاثروا حتى صاروا قبيلة ومن يومها أصبح قتل الأفاعي محرما؛ لأنها غدت مقدسة.

- الأقزام وغموض الولادة:

في بداية الخليقة خلق للإله ولدين وبنتا، أحدهما قزم والآخر زنجي، وكان الزنجي لا يعرف سبب نزيف أخته رغم كل المحاولات لإيقافه، فأعلم بهذا الأخ القزم ووضح له السبب في ذلك؛ لأن الإله أطلعه على الأمر، فقام بالإضجاع وأخته، فحملت منه وأنجبت ولدا فأصيب الزنجي بالغيرة وقام بمثل ما فعله القزم.

- أصل الموت:

أرسل ذات يوم القمر حشرة إلى بني الإنسان؛ لتخبرهم بأنه عندما يموت القمر تموت الحياة وحتما أنهم يموتون لكن الأرنب اعترض طريق الحشرة، عارضا عليها أن يكون رسول القمر بدلا عنها، وراح الأرنب إلى بني الإنسان وأخبرهم بأن الموت نهاية كل مخلوق ولا مفر لهم منه، وأنهم ذائقوه وإلى التراب يعودون، وعندما علم القمر بذلك غضب غضبا شديدا وضرب الأرنب بلوح شق شفته.

- السلاحف والبشر والأحجار:

كانت الحياة لدى السلاحف والبشر تتجدد تلقائيا من دون ذرية، ولم يكن الموت موجودا لكن السلاحف والبشر رغبوا في أطفال لهم، فأعلمهم الإله أن الموت يأتي معهم، لكنهم أصروا فأعطاهم مبتغاهم، وحل معهم الموت وبقيت الأحجار فقط تعيش للأبد ولا تموت.

- الرسل:

كان الكلب والضفدعة رسولا الإله للإنسان؛ ليبلغه الكلب أنه لن يعرف الموت، وتبلغه الضفدعة أنه سيواجه الموت يوما، لكن في الطريق شاهد الكلب امرأة تهيئ الطعام لطفلها فتوقف من أجل الحصول على فتاته، في حين أكملت الضفدعة فكانت أسبق للإنسان وأبلغته بأن الموت قادم، من حينها حل الموت بالإنسان محل الخلود.

- صراع الإله تانو مع الموت:

عانى صياد لفترة طويلة من الفشل في الصيد، ويوما صادف ضبيا وحاول اصطياده لكنه أفلت منه ودخل إلى الكهف ليخرج على هيئة إله، فأرعبه لكنه وعده بالحماية، وفعلا كان عند وعده حيث واجه الموت الذي تحداهما وقطع طريقهما، ولأن قوة الإله وقوة الموت كانت متعادلة فقد اتفقا على حل وسط، مفاده أنه في حال مرض الصياد فإن الواصل أولا يكون مصير الصياد، لكن الموت وصل مع الإله تانو فكان الموت مصيره.

- الملك كيتامبا والعالم الآخر:

فقد الملك كيتامبا زوجته التي توفيت، ولشدة حزنه لم يتقبل ذلك، وأعلن الحداد العام لمدة طويلة ضاق منه الأهالي ذرعا، وطالبه الزعماء برفعه، لكنه رفض ذلك إلا بعد عودة زوجته للحياة، فكان استنجاد الزعماء بالساحر الطبيب، الذي عكف راحلا إلى العالم السفلي للعودة بزوجة الملك، لكن عندما وجدها طلبت منه العودة وحيدا لأن الذاهب إلى ذلك العالم لا يعود وأنبأته بأنه سوف يأتي إليها قريبا، وكانت الرحلة من خلال أداء طقوس معينة ساعدته في ذلك زوجته وابنه.

- كينتو وخلفه:

يعتبر كينتو السلف الأول لقبائل بوغندا - الذي كان لديه زوجة سماوية - فعندما بلغ من العمر عتيا قصد الغابة ليختفي هناك، حيث توفي سرا وقام على قبره كبير الكهنة إلى أن تفسخت جثته، فتم أخذ فكه المقدس ليوضع في المعبد المقدس، فخلفه ولده إلى العرش لكنه اختفى بعد زمن بنفس الطريقة وكان العرش من نصيب حفيده كيمارا، الذي أعادت أمه الزواج بملك دولة مجاورة لكنها زنت مع أمير غيره، فحاولوا قتلها لكن احد الكهنة أنقذها ورمى الطفل كيمارا فأخذه أحد صانعي الفخار، ثم سلمه لأحد النبلاء لترعاه زوجته ليصل إلى الحكم بطريقة غير مباشرة.

وشاءت الأقدار أن يقتل ابنه في الحرب بعدما ولد له ابن يدعى تينبو، الذي أوغلت أمه صدره ضد جده كيمارا بالأحقاد، فقد انتقم لأبيه من جده خلال رحلة صيد، وقد تم حفظ فكه في المعبد نفسه وخلفه تيمبو في الحكم، واستمرت الطقوس نفسها.

- زعيم القبيلة:

أخفى حكماء القبيلة نبأ وفاة زعيم القبيلة الذي اتصف بقوته خشية إشاعة الفوضى بين أفراد القبيلة، وعوضوه بشخص يقلد صوته متعهدا بعدم إفشاء السر.

- جمعية بورو:

انتشرت المجاعة وساد القحط، فاستغلت تاجرات السوق ذلك لترفعنا الأسعار على الرجال ما جعلهم ينتفضون مضمرين الانتقام من خلال صنع أقنعة بثوا الرعب بها في نفوس النسوة ما حذى بهن للهرب ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بإحداث جروح وسط المتواجدين بالسوق، ما أدى إلى علو مكانة هذه الجمعية السرية بين الأهالي.

- الملك المبتكر:

لم يكن في بداية الخلق بشر ماعدا رجل طاعن في السن وزوجته، ولم يكن لهما أولاد ولأن الخالق بومازي انتبه لذلك، فقد بشرهما بإنجاب ولد عن قريب، ما جعل الزوجان يضحكان من

دهشتهما، تحققت البشارة بعد فترة ورزقا بفتاة تزوجها الخالق عندما كبرت ورزق منها بخمسة أطفال ذكور أصبحوا لاحقا زعماء قبائل مختلفة، وقد تميز الولدان البكر بأنهما توأم (وتو ومولو).

تزوج وتو بثلاث نساء، لكن ابن أخيه مولو ضاجع إحدى زوجاته ما أثار غضبه، لكنه عفى عنه بعد توسلاته ومع هذا فقد استمرت الخيانة، فانعزل بنفسه في الغابة منشدا بحزن ما تسبب في تفتح الأشجار وظهور الأقزام، ولعظمته نصبوه عليهم زعيما.

- مروى:

ذهبت مروى وشقيقها لحراسة حقلهم من القردة النهمة، خوفا من أن تهلك حبوب الفول وذلك بناء على طلب من أهلها، وعندما شعر الشقيقان بالعطش ذهبا إلى البحيرة لشرب الماء لكن القردة استغلت ذلك وقضت على محصول الفول، وخوفا من العقاب رمت مروى بنفسها في البحيرة، حاول الأهل إنقاذها لكنها كانت قد غاصت في أعماق البحيرة، ووصلت إلى كوخ يقع في قاعها أين عاشت مع صاحبته العجوز وأبنائها، لكن الحال لم يطل وحنت لأهلها وأرادت العودة، فساعدتها العجوز من خلال طقوس معينة تمكنت بفضلها من العودة غانمة لتقترن فيما بعد بشاب يدعى ساوي، الذي شفي بعد الزواج من مرضه، ثارت غيرة الجيران فقتلوه لكن مروى أعادته للحياة بالسحر، وكان لها المدافع والسند.

- أشدو يا صرصور أشدو:

من عادة أهل أفريقيا أن يقام حفل للمتوفى تعزف فيه الأغاني، ويبالغ فيه بالعويل حتى تعلو مكانته بين الناس، وهذا ما قام به (شان) عندما توفيت حماته، لكنه لم يستقدم فرقة وإنما تكفل هو وصرصاران بذلك وهذا مقابل إطعامهما، لكن بعدما صدقا في وعدهما أخلفه هو فما كان منهما إلا أن تحايلا عليه وفرا هاربين تاركين إياه يندب حظه، وقد أوقع نفسه في ورطة حينما ادعى أنه من يقوم بالغناء، وانتقاما منهما كلف جماعة من الصراصير بالبحث عنهما وإلا انتقم منهم جميعا، لكنهم تحايلوا عليه إلى أن هرم وهلك.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر:

1- المصادر العربية:

- الحسيني الحسيني معدي << الأساطير الأفريقية، كنوز للنشر والتوزيع >>، القاهرة 2009.

- حسن عبد الغفار<< الأساطير الأفريقية وروائع الحواديث والحكايات الشعبية >> دار طيبة للطباعة، مصر، ط1، 2008.

2- المصادر المترجمة:

- جيمس فريزر << أساطير في أصل النار>>، تر (يوسف شلب الشام)، دار علاء الدين سوريا، ط2، 2008.

- جيوفري باريندر<< الأساطير الأفريقية >>، تر (حسن هيثم الطريحي)، دار نينوى سورية ،2007.

- سليمان جيغوديوب << حكايات وأساطير أفريقية (1) >>، تر (محمد الدنيا)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 2004.

- فيرجينيا هاملتون << أساطير الخلق>>، تر (أسامة إسبر)، دار التكوين، سورية، ط2، 2006.

-عدد من المؤلفين<< مختارات من الأدب الأفريقي >>، تر (شوكت يوسف) منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1985.

- لانجستون هيوز<< من روائع الأدب الأفريقي>>، تر (ميشيل تكلا)، القاهرة،1961. ط2 ،2006.

ب - المراجع:

1- المراجع العربية:

- أحمد كمال زكي << الأساطير دراسة حضارية مقارنة>>، دار العودة، لبنان، ط2، 1979.

- السيد عبد العزيز السالم << تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام>>، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1999.

- بسام الجمل << من الرّمز إلى الرّمز الديني>>، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر ط1، 2011.
- جمعة محمد محمود << النظم الاجتماعية عند قدماء العرب الساميين>>، القاهرة 1949.
- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية << الأسطورة توثيق حضاري>>، قسم الدراسات والبحوث، دار كيوان، سورية، ط1 ،2009.
- حسين الحاج حسن << الأسطورة عند العرب >>، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- حليم بركات << المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي>>، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط3، 1986.
- حميد الحمداني<<الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة>>، كلية الآداب ظهر المهراز فاس ط1، 2009.
- زهير حطب << تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية الاجتماعية لقضاياها المعاصرة >>، معهد الانماء العربي، لبنان، 1976.
- طلال حرب << أولية النص >> نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- عبد الحميد يونس<< معجم الفولكلور>>، مكتبة لبنان، ط1، 1983.
- مجمع اللغة العربية<< المجمع الوسيط >>، مصر، ط4، 2004.
- محمد الخطيب << الإثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية >>، دار علاء الدين سورية.
- محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين بن منظور<< لسان العرب>>، دار صادر لبنان مج 7، ط4، 1863.
- محمد عباس << أفلاطون والأسطورة>>، دار التنوير للطباعة والنشر، 2008.
- محمد عبد الحميد محمد أبوزيد << الإنسان والأساطير والسحر>>، دار العالم الثالث ج1، 2005.

- محمد عبد المعيد خان << الأساطير والخرافات عند العرب>>، دار الحداثة لبنان ط4، 1982.
- محمد عجينة << موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها>>، دار الفرابي، لبنان، ط1، 1994.
- مسند ابن حنبل، المطبعة الميمنية، مصر، 1313.
- هشام شرابي<< مقدمات لدراسة المجتمع العربي>>، منشورات صلاح الدين، القدس 1975.
- يوسف حلاوي<< الأسطورة في الشّعر العربي>>، دار الحداثة، لبنان، ط1 ،1982.

2- المراجع المترجمة:

- أرنست كاسيرر << الدولة والأسطورة>>، تر (أحمد حمدي محمود)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1957.
- جوزيف كيزيزيو<< تاريخ أفريقيا السوداء >>، تر (يوسف شلب الشام)، دار علاء الدين سوريا.
- جيلبير دوران << الأنثروبولوجيا رموزها أنساقها أساطيرها >>، تر (مصباح الصمد) مجد المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط3، 2006.
- سردار كافالام مادهوبانيكار<< الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقية >>، تر (أحمد فؤاد بلبع)، المجلس الأعلى للثقافة، ط2.
- سغموند فرويد << الطوطم والتابو>>، تر (بوعلي ياسين)، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1983.
- سغموند فرويد << موسى والتوحيد >>، تر (جورج طرابيشي)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1986.
- فراس السواح << الأسطورة والمعنى >>، دار علاء الدين، سورية، ط2، 2001.
- فراس السواح << مغامرات العقل الأولى >>، دار علاء الدين، سورية، ط 13، 2002.
- فرانسوا لابلاتين<< أبحاث في السحر مجموعة دراسات >>، تر (محمد أسليم) مطبعة سندي، مكناس، 1995.

- فيليب سيرنج << الرموز في الفن - الأديان - الحياة >>، تر (عبد الهادي عباس) دار دمشق، سوريا، ط2 ،2009.

- كارين ارمسترونغ << تاريخ الأسطورة>>، تر (وجيه فانصو)، الدار العربية للعلوم لبنان ط1، 2008.

- كلود ليفي شتراوس<< الأسطورة والمعنى>>، تر (صبحي حديدي)، دار قرطبة للنشر الدار البيضاء، ط2، 1986.

- لوك بنوا، إشارات << رموز وأساطير>>، تر (فايز كم نقش)، دار عويدات للنشر والطباعة، لبنان، ط1، 2001.

- مرسيا الياد << مظاهر الأسطورة>>، تر (نهاد خياطة)، سورية، 1987.

3- المراجع الأجنبية:

- Claude Levi Strauss, Anthropologie Structurale, Plon, 1958 .

- John Lewis, Anthropology, London, 1969.

- Raymond Firth we, The Tikopia, London ,1967.

- L'eau et les rêves :Essai sur l'imagination de la matière , Librairie José Corti ,1942.

- Petit Larousse en Couleurs- Libraire Larousse,1980.

4- المجلات والدوريات:

- إبراهيم محمد علي << مجلة كلية العلوم الإسلامية >>، مج6، العدد 12، 1433 هـ - 2012م.

- سعيد بن علي بن وهف القحطاني<< مجلة العادات والأعراف القبلية المخالفة للشريعة الإسلامية >>، 1433 هـ.

- عاصم محمد حسن محمد << الديانات التقليدية في غرب أفريقيا (مدخل دراسي) >> مجلة قراءات أفريقية، العدد الثالث، ذوالحجة 1429 هـ/ ديسمبر 2008، شبكة الألوكة www.alukah.net.

فهرس الموضوعات

-الموضوع **الصفحة**

شكر وعرفان:.....03

الإهـــــــداء:.....04

المقدمـــــــة:.....05

التمهيـد: مفهوم الأسطورة والخرافة والتداخل المعرفي بينهما.....12

1- مفهوم الأسطورة 13

أ- مفهوم الأسطورة لغة 13

ب- مفهوم الأسطورة اصطلاحا 15

2- مفهوم الخرافة 20

أ- مفهوم الخرافة لغة 20

ب- مفهوم الخرافة اصطلاحا 21

3- التداخل المعرفي بين المفهومين.....23

الفصل الأول: صورة عن الحياة الدينية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية.....27

1- الخلق والتأليه.....28

أ- خلق الآلهة 28

ب- خلق العالم 33

ج- خلق الأرض 40

د- خلق البشر.....42

هـ - خلق النار.....46

2- التأليه والتقديس 49

أ- تقديس الناس 50

ب- تقديس الحيوان 52
ج- تقديس النبات 57
د- تقديس الأشياء 61
3- السحر في المجتمع الأفريقي 64
أ- السحر والمرأة والساحر الطبيب 73
الفصل الثاني: صورة عن الحياة السياسية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية 76
1- بنية القبيلة الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية.....77
أ- العائلة نواة التنظيم القبلي.....77
ب- العشائر الطوطمية 82
ج- زعماء وشيوخ القبائل والسحرة الملوك.....84
2- ارتباط القبيلة بالأعراف 91
أ- مكانة العرف في القبيلة 92
ب- عادات وأعراف قبيلة 95
ج- الوشم لدى بعض قبائل أفريقيا 98
3- ارتباط القبيلة بالسلف 102
أ- جذور عبادة الأسلاف 104
ب- أساسيات عبادة الأسلاف 108
ج- طقوس الأسلاف 112
الفصل الثالث: صورة عن الحياة الاجتماعية الأفريقية في الأساطير والخرافات الأفريقية.....119
1- الزواج والولادة في الأساطير والخرافات الأفريقية 120
أ- غموض الزواج والولادة 120
ب- طقوس الزواج والولادة 125

ج- تابو الزواج والولادة 128
2- الموت والبعث في الأساطير والخرافات الأفريقية.....130
أ- ظهور الموت 130
ب- الصراع مع الموت 136
ج- البعث والعالم الآخر.....140
3- أخلاق وسلوكات الأفارقة في الأساطير والخرافات الأفريقية 144
أ- الممارسات الطقسية الأفريقية 145
ب- المعتقد الأفريقي البدائي 148
ج- الدين والأخلاق في المجتمع الأفريقي 152
- **الخاتمـــة**.....159
- **ملحق بعض الأساطير والخرافات الأفريقية**.....164
- **قائمة المصادر والمراجع**.....176
- **فهرس الوضوعات**.....180

ABSTRACT

Myth has a great place in the remote societies, It is Connected to their religions and if any one abuse to take it as a joke, he will be killed or knocked down immediately.

In another way the legend is one of many kinds of humain thoughs wich is linked to myth, but it has it’s main characteristics because it’s based on stange forces such as gosts, monsters, and devils…

For this reason, we have choosed the theme of this academic research" The picture of Africa through African myths and legends".

First, we proposed in the introduction a definition of myth and legend and their relation ship in knowledge.

In this introduction, we based on giving certains definitions of myth and legend To show that they are linked together although each one of them has it’s main characteristics of the form and the sense in order to give a clear picture of African Society through both of them.

In the first chapter of this research we tried to give a picture of African religion's life through African myths and legends, so we concentrated on discussing certain elements of this kind of life such as the creation of universe and things… and to believe in them as gods and godesses…

Concerning the second chapter we based on giving a picture of African political life through African myths and legends. Here we could discuss the Construction of social life of African political life and we realised that they are well linked to their customs as sacred behaviours, and they also belive to their grand- parents considering them as sacred Forces.

In the third chapter of this research we gave the Social picture of African life through African myths and legends so, we, showed how African people consider marriage enfantement, and death… and what are they their behavior, feelings and faith towards these main elements of life?

At last, we conclude, through this academic research that African people are similar to people of the remote past in the world, because they still believe in universe and things… as sacred creation although they are surrounded by the scientific

developmend of everything which goes quickly far away from them.

ministry of Higher Education And Scientific Research

Algier's University 2

Faculty Of Arabic Language and Literature and Oriental Languages

University Center Hadj Moussa Akh Akhamouk - Tamanrassat

The Image of Africa In African Myths And Legends

Supervised By

Doctor : Houria BOUCHERIKHA

Defended By :

Warda LOUATI

University Years

***2014*/2015**